

فتاة غسان

﴿ رواية تاريخية غرامية ﴾

﴿ تشرح حال الاسلام من أوّل ظهوره ﴾
﴿ الى فتوح الشام والعراق مع بسط عوائد العرب ﴾
﴿ في آخر جاهليتهم وأوّل اسلامهم ووصف ﴾
﴿ اخلاقهم وآرائهم وسائر أحوالهم ﴾

تأليف

جرجي زيدان

« منشىء الهلال بمصر »



الجزء الثاني

« طبعت بمطبعة (الهلال) بأول شارع الخليج بمصر سنة ١٩٠٨ م »

الهلال

❋ مجلة علمية شرقية ادبية تاريخية ❋

لمنشئها

جرجي زيدان

أنشئت بمصر في اول سبتمبر سنة ١٨٩٢

تبحث في كل المواضيع العصرية وفي التواريخ الشرقية وخصوصاً الاسلامية مع رسوم مشاهير الشرق وتواريخهم ومستحدثات الاختراع ورسوم مشاهير العصر وتاريخ الحوادث الجارية في كل اقطار العالم وروايات تاريخية اسلامية تبدأ بظهور الاسلام وتندرج فيه دولة دولة وعصراً وعصراً على اسلوب حديث كثير التشويق للمطالعة تصدر مرتين في الشهر في كراس كبير صفحاته اربعون صفحة جيدة الورق جميلة الحروف متقنة الطبع . بدل اشتراكها في السنة خمسون غرشاً داخل القطر المصري واما خارجه فهو ١٢ شليناً او ١٥ فرنكاً و ٢ روبية او ٣ ريالات اميركانية او ٣ ريالات مجيدية ونصف تدفع سلفاً فمن اراد الاشتراك فيها فليخابر « ادارة الهلال بمصر » وان اراد احد الحصول على مثال منها فليطلبه فيرسل اليه مجاناً

❋ هدايا الاصدقاء ❋

افضل هدية تهديها الى صديقك اذا كان ممن يحبون المطالعة الاشتراك سنة في مجلة الهلال فان قيمته زهيدة ومطالعته [illegible] وهي هدية مفيدة



فتاة غسان

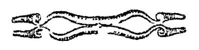
رواية تاريخية غرامية

تشرح حال الاسلام من أول ظهوره
الى فتوح الشام والعراق مع بسط عوائد العرب
في آخر جاهليتهم وأول اسلامهم ووصف
اخلاقهم وآدابهم وسائر أحوالهم

تأليف

جرجي زيدان

« منشئ » الهلال بمصر



الجزء الثاني

« طبعت بمطبعة « الهلال » باول شارع الفجالة بمصر سنة ١٩١١ م

مقدمة

﴿ الجزء الثاني من فتاة غسان ﴾

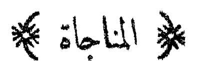
هذه هي الرواية السادسة من رواياتنا التاريخية ولكنها تمتاز عنها كلها بانها الحلقة الاولى من سلسلة روايات متتابعة تتضمن تاريخ الاسلام من اول ظهوره الى الآن سننشرها تباعاً في مجلتنا « الهلال » فهذه الرواية الاولى منها وتتضمن الحوادث التي وقعت من ظهور الاسلام الى فتح الشام والعراق وتليها رواية في فتح مصر وهذه سبق لنا نشرها في السنة الرابعة من الهلال وهي « ارمانوسة المصرية » ولم يكن في عزمنا تأليف هذه السلسلة اما وقد عزمنا على ذلك فصارت « ارمانوسة المصرية » الحلقة الثانية من تلك السلسلة

فاما الحلقة الاولى التي نحن في صددها « فتاة غسان » فقد نشرنا الجزء الاول منها في السنة الخامسة من الهلال وهذا الجزء الثاني نشرناه في السنة السادسة [illegible] حضرات القراء طبعهما على حدة رغبة في [illegible] رواية اخرى ننشرها في السنة السابعة تتضمن مقتل عثمان وخروج الخلافة من [illegible] بني امية ثم روايات اخرى في اهم حوادث الدولة الاموية في [illegible] وفي الاندلس وحوادث الدولة العباسية [illegible] تاريخ الاسلام

[illegible] حضرات القراء [illegible]

[illegible]

الفصل التاسع والاربعون



المناجاة

تركا حمادًا وسلمان في مكة وقد غلب عليهما اليأس بعد ان تكبدا مشاق الاسفار ولم يظفرا بشيء مما أملاه وخصوصًا حماد فانهُ اصبح يئسًا تتقاذفهُ عوامل الحب من جهة وعوامل الشهامة من جهة اخرى وهو بين ذلك لا يرجو لقاء والده ولا يأمل الظفر بحبيبتهِ فكان كلما تصوَّر ذلك ثارت الحمية في رأسهِ وعظم عليهِ العود الى الملقاء فحدثتهُ نفسهُ ان يبعد عن الناس ويأوي الى مكان لا يعرفهُ فيهِ احد او ان يقيم في دير او نحوهِ لان الحياة اصبحت لديهِ شرًّا من الموت

أما سلمان فانهُ ادرك حال سيده وعلم ما هو فيهِ من اليأس فثارت في نفسهِ عاطفة الشهامة وعوَّل على ان يبذل نفسهُ في سبيل تعزيتهِ فخرج من الغرفة ذات صباح متظاهرًا بحاجة يفتش عنها وترك حمادًا وحده فلما خلا حماد بنفسهِ خرج من الغرفة وصعد الى سطح الخان وقد ضاق صدره وصغرت نفسهُ وبالسطح مظللة خيمة من ورق الشجر فجلس على وسادة واخذ ينظر الى مكة وما يحيط بها فاذا هي عبارة عن ارض منبسطة في واد تحف بهِ الجبال فلم تشغلهُ تلك المناظر الآهلة ثم عاد الى هواجسهِ فتذكر حبيبتهُ ووالده وتصوَّر مقدار ما تراكم عليهِ من الهموم مما الَّم بهِ من الفشل وقد قطع البراري والقفار حتى جاء الكعبة للبحث عن قرطي مارية مهرًا لخطيبتهِ هند ومرضاة لوالديها فعلم من حرب الخراعي ان القرطين لا يمكن العثور عليهما هناك . وبعد ان كان على أمل من لقاء والده مع أبي سفيان في مكة تحقق ضياعهُ ويئس من حياتهِ فتصوَّر نفسهُ مغلول اليدين مقصوص الجناحين فعظم الامر عليهِ كثيرًا واشتد بهِ اليأس حتى تناثرت الدموع من عينيهِ ثم تذكر انهُ في غربة لا تحذر بهِ الاستسلام للعواطف فامسك نفسهُ ولكن اليأس غلب عليهِ فانقبضت نفسهُ واشتد بهِ الهيام فاخذ يناجي هندًا قائلاً

آه منك يا هند بل آه من هذا القلب الذي عصاني واطاعك ونعمَّ ما فعل

فانك والله جديرة بذلك ولكن والدك آه من والدك فانه انما اراد مستحيلاً فطلب مني مهرًا العنقاء اقرب منالاً منه وكأني به لا يرضاني له صهرًا وعذره مقبول طالما كان نسبي مجهولاً . فالقرطان لم يوجدا فهند بعيدة المنال مني آه يا هند أأعود اليك بصفقة المغبون واذا عدت كذلك ما يكون رأيك   لا ريب عندي ان ذينك القرطين لا يهمك امرهما ولا رضيت ان امشي في سبيل التفتيش عنهما الا مجاراة لوالديك .. ولكن ما هذا يا حماد كيف تعود الى هند صفر اليدين وكيف تقابل جبلة وماذا تقول له لا لا لا لن اعود الى اللقاء على هذه الحال وقد فقدت والدي في بلاد لا اعرف فيها اليفًا ومن يدريني ان هو ابن المنذر ووفاء المنذر يا ليته قص شعري قبل ضياعه فقد كنت على موعد منه انه متى وفى المنذر وقص الشعر يطلعني على امور تهمني وقد يكون لها علاقة بأمر رواحي فاين والدي الآن آه يا أبتاه ابن انت ألعلك لا تزال في قيد الحياة من يعلمني ابن مقرك فاطير اليك مسرعًا أما اذا يئست منك ومن هند فلا يعود لي في الحياة مأرب فاما ان الجأ الى دير او صومعة اقضي بقية الحياة منفردًا لا ارى انيسًا او ان ألقي نفسي في مهلكة . ولكن لا لا ان قتل النفس ضعف ومذلة وكيف افعل ذلك ونفسي رهينة امر هند وهند لا تريد قربي الا ان لأصبرن صبر الرجال واعيد الكرة في البحث عن القرطين فاذا يئست فقدتهما عمدت الى هند وبثثت لها امري وأطلعتها على كنه ضميري فاذا رأيتها تؤثر مرضاة والديها وحفظ تقاليد عائلتها على رضاي قلت على الدنيا ومن فيها السلام لأني لا ارضى من الدنيا برضاها فنتعاقد ونتراضى على امر يكون لنا فيه نجاة من والديها   وانت يا والدي آه ابن انت يا ابتاه ان ضياعك عرقل مساعيّ وغل يديّ ولو ترى اباك وتاركني في هذا الامر لسهلت كل صعب وهديتني صراطًا مستقيمًا ولكن الاقدار ابت الا معاندتي فصبرًا جميلاً . »

مرت كل هذه الخيالات في ذهن حماد وهو متكئ على الوسادة تارة يبكي وطورًا يحرق اسنانه وأوشك الفجر ينبثق ولم ينم في الليل الماضي الا قليلاً فغلب عليه النعاس فنام واستغرق في المنام فغمضت عيناه

الفصل الخمسون

حسّان بن ثابت الانصاري

مضى بعض ذلك النهار وحماد بين نائم وهاجس فوق السطح لم يذق طعاماً حتى اذا كان العصر أفاق من صوت سلمان خادمهُ ففتح عينيهِ فرآه واقفاً فوق رأسهِ يناديهِ وعلى وجههِ امارات البشر كأنهُ اتى امراً جديداً فانبسطت نفس حماد فهبَّ من رقاده وجلس وصاح ما وراءك يا سلمان

قال ما ورائي الاَّ الخير بإذن الله

قال ارى على وجهك امارات البشر فهل اهتديت الى طريق جديد يوصلنا الى ساحة الفرج

قال نعم يا سيدي اظنني توفقت الى شيء من هذا القبيل

قال قل ما هو

قال خرجت في هذا الصباح على بركة الله وقد عولت في باطن سري ان لا اعود اليك الاَّ ببشرى خير فسرت في اسواق مكة وانا اتوسل الى الله ان يلهمني رشداً وسداداً او يهديني سبيلاً احتمي بهِ اليأس عن مولاي فمررت ببعض البيوت فرأيت عند بابهِ بغلة عليها بردعة ثمينة والى جانبها غلام فحدثتني نفسي ان اسألهُ عن صاحب البغلة فقال هو حسان بن ثابت شاعر الانصار فتذكرت اني اعرف هذا الاسم فأخذت في التفكر لعلي اذكر الرجل فعلمت اني كنت اسمع اسمهُ مذ كنت في العراق وانهُ كثيراً ما كان يأتي الحيرة فينظم القصائد في مدح الملك النعمان رحمهُ الله وكثيراً ما كان يفد على ملوك بني غسان فيمتدح جبلة والحارث بن ابي شمر (١) وغيرهم فقلت في نفسي اظنني اصبت ضالتي ان الرجل يجالس اعظم ملوك العرب فربما كان لهُ المام بامر القرطين وسألت الغلام عن حسان فقال انهُ في البيت فاستأذنت في الدخول عليهِ فاذن فدخلت عليهِ حتى اقبلت على الرجل فاذا هو جالس على وسادة في بعض زوايا الغرفة وتأملتهُ فاذا بهِ قد تبدلت حالهُ عما كنت اعرفهُ فاحناه الكبر وضعف بصره وشاب

شعره واسترسلت لحيته (١) فبادرت الى يده فقبلتها وحييته فرد التحية ورحب بي واجلسني الى جانبه وسألني عن امري فما زلت ادخل معهُ في حديث واخرج من آخر حتى توصلت الى القرطين فسألتهُ عما يعرفهُ من امرهما ففكر قليلاً ثم قال اظنني سمعت ذكرهما في بعض مجالس النعمان بن المنذر في الحيرة فقلت وكيف كان ذلك

فقال يغلب على ظني ان بعض تجار الفرس الذين يحملون الاقمشة الفارسية الى مكة عاد منها ذات عام ومعهُ قرطا مارية فعرضهما على النعمان واظنهُ اشتراهما منهُ فاذا صدق ظني كان القرطان الآن في خزينة الملك النعمان في الحيرة

فلما سمعت ذلك هرولت اليك مسرعًا لنسير اليهِ فهل تسير معي

قال نعم ولا بد من المسير اني ارى في كلام الشاعر بابًا للفرج هلمَّ بنا

فنهض حماد وقد انبسطت نفسهُ وعادت اليهِ بعض الآمال وان لم يكن في الخبر ما يدعو الى الامل ولكن المرء اذا كان في ضيق كان سريع التعلق بالامل ولو كان اوهى من خيط العنكبوت واحسَّ حماد بفراغ معدتهِ فتناول شيئًا من التمر يسد بها جوعه وخرج مع سلمان ماشيين حتى اتيا بيت حسان فاستأذنا ودخلا فتقدم اولاً سلمان فسلم وذكر اسم حماد امام حسان وقال انهُ سيده وانه من امراء العراق ولما سمع بوجود حسان هناك ارتد المتول بين يديهِ فتقدم حماد وهمَّ بتقبيل يدي الشيخ فمنعهُ ولكنهُ رفع بصرهُ اليهِ وتفرس فيهِ كأنهُ يراجع في ذكرهِ صور امراء الحيرة لعلهُ يعرف حمادًا فتشابه عليهِ امرهُ فسألهُ عن اسمهِ واسم عائلتهِ

فقال حماد اني حماد بن الامير عبد الله

فقال حسان لا اذكر رجلاً بهذا الاسم في بلاط النعمان او لعلي نسيتهُ فقد قتل النعمان رحمهُ الله تمودة غدرًا منذ بضع وعشرين عامًا وتفرقت اصدقاؤهُ على اني انقطعت عن الحيرة قبل ذلك العهد فلم اعد اقدمها ولا رأيت احدًا من امرائها ولكن بقي منذ ذلك الربوع وعاد سلطتها للفرس فقد كانوا ربيبة الدولة الفارسية وبيت قصيد وخصوصًا النعمان بن المنذر رحمهُ الله وجازى الباغين عليهِ شرًّا

فقال حماد وهل كنت منه قريبًا كثيرًا

قال نعم ولم يمض عام قبل ان يموت حتى كنت اركب ناقتي من المدينة حتى آتي اللقاء ودخل على جماعة من لخم وجارت بن ابي شمر الغساني ثم اقصد العراق فادخل

(١) صفات الشعراء

مجلس النعمان بن المنذر فيخلع عليَّ الخلع ويأمر لي بالعطايا وهكذا كان يفعل الغسانيون ايضًا ثم كان ما كان من امر قتله فانقطعت عن العراق الى البلقاء حتى ظهر الاسلام واسلم اهل المدينة فكنت في جملة من تشرف بالاسلام ولازمت رسول الله صلى الله عليهِ وسلم اسير معهُ او الحق بهِ حيثما اقام وقد عاد الآن بجيشهِ الى المدينة ولا بدّ ان اتبعهُ عاجلاً

فقال سلمان ذكرت يا مولاي ان القرطين بيعا للملك النعمان فماذا تمّ لهما بعد موتهِ

قال لا ادري وربما كانا في جملة ما استولى عليهِ قاتلوه من التحف فاذا صح هذا الظن كان القرطان في خزينة ملوك الحيرة الآن

وكان حسان يخاطب سلمان وعيناه لم تحولا عن وجه حماد وهو يتفرسهُ ويلاحظ حركاتهُ كانهُ يعرف لهُ سبهًا وحماد غافل عن ذلك بما كان غارقًا فيهِ من الهواجس بعد ان سمع ما سمعهُ من امر القرطين وصعوبة الحصول عليهما بعد وصولهما الى خزينة ملوك الحيرة ولكنهُ عول على البحث عنهما ما استطاع الى البحث سبيلاً

وبعد قليل همّ حماد بالخروج فسألهُ حسان اين تقصدون

قال سلمان انما نقصد منزلنا لنتهيأ للخروج في الغد

قال هل تريدون الذهاب الى المدينة

قال ربما مررنا بها في طريقنا الى البلقاء

قال ارى انكما غريبان فربما عسر عليكما المسير منفردين وقد آنست فيكما عنصرًا جيدًا فهل تقبلان مرافقتي الى المدينة تقيمان فيها ريثما تعزمان على البلقاء وربما ارفقتكما بمن يوصلكما اليها

فنهض سلمان نهوض الاحترام واثنى على حسان ثناءً طيبًا وقال انا نشكر لفضل الشاعر شكرًا جزيلاً ولا بعد ذلك منهُ الاّ كرمًا ومنة عرف بها عرب الحجاز منذ القدم

قال عفوًا يا اخا تميم اني لا احوز الاّ بمال المبادرة ولا ارتع الاّ في بحبوحة خيرهم فاني لا انكر فضل العراق عليَّ وعلى كل من نزل ديارهم من الغرباء وذلك امر مشهور لا يجهلهُ احد فكيف باهلهِ فاذا شئتما المسير الى منزلكم الليلة فاعدوا حوائجكم وها اني مرسل معكم من يحملها الينا فنبيت الليلة هنا ونصبح سائرين ان شاء الله

الفصل الحادي والخمسون



❋ اللقـاء ❋

فباتوا تلك الليلة في منزل حسان واصبحوا جميعاً قاصدين المدينة وحسان يطربهم في اثناء الطريق بلطائف منظوماته في مدح ملوك الحيرة وملوك غسان وحماد يسر بما يسمعه في جبلة بن الايهم ويطرب كل بيت يسمعه ولم يكن ذلك الاّ ليزيد اشجانهُ ويذكره بخطيبتهِ هند ثم تذكر ثعلبة واباه الحارث بن ابي شمر فقال

وكيف رأيت الحارث بن ابي شمر

قال رأيتهُ كريماً محبّاً للشعراء ولكنهُ كان حاسداً لجبلة فكنت اذا مدحت جبلة في حضرتهِ كان الحسد يظهر على وجههِ مع ما كان يحاول اخفاءه من عواطفهِ (١)

فتحقق حماد ان ثعلبة انما ورث ذلك الخلق عن والدهِ وزاد عليهِ اللؤم والخساسة ولما تذكر ذلك غلب عليهِ الانقباض واوجس خيفة على هند من غدرهِ اثناء غيابهِ وخصوصاً اذا عاد خالي الوطاب فاستولى عليهِ السكوت فادرك سلمان منهُ ذلك فاراد اخفاء الامر عن حسان فقال وكيف رأيت جبلة

قال رأيتهُ شهماً عزيز النفس كريم الخلق كبيراً ما عرضت بحسد الحارث امامهُ وهو لا يبالي بل كان يلتمس لهُ عذراً ويتعالى متجاهلاً فكنت لا ازداد الاّ اعجاباً بهِ

فقال سلمان واي الملكين اشد نشاطاً الآن

قال ان جبلة ارفع مقاماً واعز جانباً ولكن بعض القادمين علينا من البلقاء انبأنا بوفاة الحارث

سمعت الناس واتهمه حسان فما احسده قال سلمان وهل تحققتم وفاته

قال سمعت بوفاته ثمة فيما بعض الرواة تحسس احوال الروم بعد واقعة موتة (٢)

فالتفت سلمان الى حماد فرآه يبتسم ولكن الغمة ما زالت ظاهرة على وجههِ يتخللها

---

(١) الاغاني

(٢) لم يرد في تواريخ العرب ذكر السنة التي توفي فيها الحارث ولكنهم ذكروا انهُ كان في واقعة موتة ثم انقطع خبره

بعض الاقفاص فاشار اليهِ بملامح وجههِ اشارة فهم حماد منها انهُ يهنئهُ بانكسار شوكة ثعلبة لكنهُ تحوَّل حالاً الى حسان وقال لهُ وما ظنك بمن يرث الامارة بعده

قال لا اظن احدًا من اهلهِ اهلاً لهذه الامارة والغالب ان تجتمع كلمة قبائل غسان تحت لواء جبلة بن الايهم

فانشرح صدر حماد ولكن امر القرطين ما زال حاجزًا بينهُ وبين كل سرور

وساروا حتى اتوا المدينة فوصلوها صباحًا فوجدوا اهلها في فرح وعلموا انهم اوتوهُ من النصر بفتح مكة المشرفة ورأَوا الناس عكوفًا على الصلاة وما زالوا سائرين حتى اناخوا جمالهم امام منزل حسان فهمَّ الخدم بحمل الامتعة الى المنزل واخذوا الجمال الى العلف ونزل سلمان وحماد وقد اعجبوا بما آنسوه من عكوف المسلمين على الصلاة وما رأَوا من خشوعهم وتدينهم فضلاً عما شاهدوه من بسالتهم في فتحهم مكة

اما حسان فلم يكد يصل منزلهُ حتى طلب الراحة من وعثاء السفر لشيخوخته وعجزه ودعا ضيفيهِ اليهِ مجلساً متأدبين فقال لهما تذكرت امرًا اظنهُ يهمكما كثيرًا وقد فاتني ذكره لكما قبل الآن

قال سلمان وماذا عسى ان يكون ذلك

قال ذكرت لكم واقعة مؤتة واظنكم لم تفهموا ماهي

قال سلمان كلاَّ يا سيدي لم نفهم المراد جيدًا

قال كان رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ارسل جندًا من المسلمين لحرب الغسانيين في العام الماضي فسار الجند وحاربهم في مكان يقال لهُ موءتة بالقرب من بصرى وستسمعون خبر هذه الواقعة الآن ولكني اردت ان اوجه التفاتكم الى رجل اسره جندنا في أثناء تلك الحملة وقد حملوه الينا فلما رأيتهُ معهم عرفت انهُ أُسر ظلمًا ولما سأَلتهُ عن خبره علمت انهُ ليس من اهل البلقاء بل هو عراقي ومن اهل الحيرة ذكر انهُ كان براني اثناء وفودي على الملك النعمان منذ نيف وعشرين عامًا وبما انكم من اهل العراق فربما استأنستم بالرجل والوطن اخص جامعة بين الناس. قال ذلك ونادى رجلاً واقفًا بالباب بمحضر فقال لهُ ادعُ ضيفنا العراقي

قال لبيك وخرج ثم عاد يتبعهُ رجل كهل ملتف بعباءة مقطب الوجه وكان حماد وسلمان لا يزالان يحسبون جمال الشعر محالماً وقع نظر سلمان على ذلك الرجل

أحس بخفقان قلبه كأنه آنس فيه مشابهة لسيده عبد الله ولكنه رأى في سحنته ملامح تخالف ما لعبد الله أهمها ان عبد الله كان طويل الشاربين مستدقهما ومسترسل شعر اللحية مع خفة اما هذا فهو قصير الشاربين واللحية على ان سلمان ما زال ينظر اليه ويتأمله حتى دنا منه فوقف له وهمّ بمصافحته فلم يكد يفوه بأول كلمة حتى تحقق سلمان انه هو سيده بعينه فهمّ به وقبله وناداه باسمه

وكان حماد في شاغل من هواجسه في هند والقرطين ووالده فلم ينتبه الاّ وسلمان ينادي بأعلى صوته سيدي الامير اهلاً سيدي الامير فالتفت حماد فاذا هو والده عبد الله فنهض ونهض سلمان فهمّ عبد الله بحماد وضمه وجعل يقبله ودموع الفرح تتساقط على وجهه وسلمان يقبل يد عبد الله ويهنيهما بعضهما ببعض فانبسطت وجوه الجمع وزالت منها العبوسة وجلسوا وعبد الله بجانب حماد قابضاً على يده بين يديه وحسان جالس الى جانب وقد عجب لما رآه وسمعه فسألهم عن امرهم فحكى له عبد الله عما تمّ من الاتفاق المعروف وان حماداً ووالده وسلمان جاؤوا معه ففرح حسان لما تمّ على يده من الخير . ثم جلسوا يتحادثون

فقال سلمان لقد رأيت في وجه سيدي تغييراً كاد يحول بيني وبين معرفته فاني أعهد شعر لحيته طويلاً مسترسلاً فاني اراه قصيراً

فضحك عبد الله وقال ان لهذا التغيير حديثاً غريباً سأقصه عليك بعد ان اسمع حديثكم وما كان من امر الاسد وضياع الفرس

الفصل الثاني والخمسون

﴿ واقعة مؤتة ﴾

فحكى سلمان حكايته مع حماد والاسد وكيف تحوّل منه تسلق تلك الشجرة وما تمّ بعد ذلك من حديث هند ووالدتها ووالدها ووجد حماد لما تم بما كان من مقتضى حماد ومن ترجمة شعر حماد من امر الاسد وما لاقاه حماد في سبيل ذلك من الاسفار والاخطار حتى جاؤوا مكة وتبدلوا فيها وكيف نشأوا من وجود القرطين هناك حتى تحقق لهم وجوده في حوزة النعمان بن المنذر في الحيرة

وكان عبد الله في اثناء الحديث مصغيًا صامتًا وإمارات الاستغراب ظاهرة على وجهه كأنهُ سمع اموراً لم يكن يتوقع حدوثها ولا يرضاها ولكنهُ سكن عن ذلك واخذ يقص عليهم حديثهُ فبدأ بوقوعهِ بالاسر في عسام ثم مسيره الى بيت المقدس ومقابلتهِ هرقل امبراطور الروم وما سمعهُ من حديث ابي سفيان ثم سفره معهُ وما كان من مشاهدتهِ الفرس واستدلالهِ منها على ضياع حماد وكيف رافقهُ ابو سفيان في مسعة الرقباء للتفتيش عن حماد وما شاهدوهُ من عظام الفرس الآخر وبعض الآثار حتى انتهى الى مسيره منفردًا الى عمان ووقوعهِ اسيرًا بين يدي الحجار بين الذين ساروا لمحاربة اهل الشام وما دار بينهُ وبين بعضهم عن السبب الذي جاءت تلك الحملة من اجلهِ الى ان قال

فلبثت اسيرًا عندهم واما على مثل الجمر لان املي لم ينقطع من لقاء ولدي حماد على اني كنت في بعض الاحايين لا ارتاب من فقده واحيانًا اراجع ما شاهدتهُ من الادلة على ذلك فلا ارى ما يقطع بوقوع القضاء فكان بقائي في معسكر جيش الحجار قيدًا ثقيلاً عليّ وخصوصًا انهم منعوا القرى عني فقد كنت استأنس بهِ فبعد ان قضيت مدة بجوار عمان علمت ذات يوم ان الروم قد حشدوا حشدًا كبيرًا يبلغ عدده نحو مئتي الف وفيهم الروم والعرب من بني غسان ولخم وجذام وبهراء [1] فلما بلغ المسلمين ذلك خافوا الفشل لان عددهم لا يزيد على ثلاثة آلاف فضلاً عما في جند الروم من المعدة والسلاح وبلغني ان امراء جند المسلمين اجتمعوا في خيمة ابن رواحة احد امرائهم وتشاوروا في الامر فقال اكثرهم نكتب الى رسول الله في المدينة نخبره الخبر فاما ان يمدنا بالرجال واما ان يأمرنا بأمر فنمضي لهُ فقام فيهم ابن رواحة وخطب خطابًا انهض هممهم فقال « يا قوم والله ان التي تكرهون هي التي خرجتم اياها تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم الاّ بهذا الدين الذي اكرمنا الله بهِ فانطلقوا انما هي احدى الحسنيين اما ظهور واما شهادة » فقال الناس « والله صدق ابن رواحه » [2] واشتدت عزائمهم وصمموا على الحرب وكنت اعجب لبسالتهم واقدامهم واتحاد كلمتهم واستهلاكهم في سبيل نصرة دينهم

فبعد ايام نودي بالجند فقاموا وسرت انا فيهم محصورًا ارى كل حركاتهم وسكناتهم

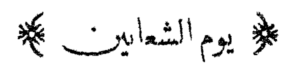
(١) السيرة الشامية (٢) السيرة الحلبية

فما زلنا سائرين حتى دنونا من بلدة على رحلتين من بيت المقدس يقال لها موتة وكان جند الروم قد عسكر هناك فالتفت الى ذلك الجند فاذا هو مالئ السهول هناك وفيهم الفرسان والمشاة ورأيت في وسط المشاة مشاة عليهم ملابس كثيرة الالوان تبهر النظر تتلألأ في ضوء الشمس فلم أكن اظن المحاربين ينظرون الى ذلك الجند حتى يعودوا القهقرى وجلاً ومهابة ولكن رأيت فيهم ثباتاً لم أرَ مثله في اسفاري كلها وما ذلك الاّ لوثوقهم بربهم وعدم مبالاتهم بانفسهم في سبيل نصرة دينهم

وخلاصة القول ان المسلمين تقدموا تحت قيادة ثلاثة من الامراء ساروا امامهم مشاة على اقدامهم وما ذلك الاّ لاستهلاكهم في الجهاد والطاعة حتى التقى الجيشان واشتبكت الحرب وكان اللواء اولاً بيد احدهم زيد بن حارثة فقاتل وهو يعلم ضعف الجند ولكنه ظل مكافحاً حتى قتل طعناً بالرماح فتقدم الامير الثاني وهو جعفر بن ابي طالب فقاتل بهِ وهو على فرسٍ شقراء فألحمهُ القتال واحاط بهِ فنزل عن فرسهِ وعقرها وقاتل حتى قتل فأخذ اللواء عبد الله بن رواحة وهو على فرسهِ ثم نزل عن فرسهِ وحارب حتى قتل فوقع الرعب في قلوب المسلمين وكادوا ينثنون لو لم يقم فيهم رجل لم أرَ مثلهُ باسلاً اسمهُ خالد بن الوليد وسمعت بعضهم يسميهِ سيف الله فجمع كلمة الجند وهجم هجمة واحدة فظن الروم ان نجدة قد جاءتهم فاستولى الخوف على جند الروم وفشلوا وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً (١) ولكنهم لم يثبتوا على الحرب فعاد المسلمون يريدون المدينة وكنت انا في اثناء هذه الموقعة في حيرة شديدة ولو كانت الحياة عزيزة عليَّ لفررت من المعسكر ساعة اشتغال المسلمين بالحرب ولكني وددت ان اصاب بسهم اقتل بهِ فلم يصبني شيء فلما عاد المسلمون الى هنا عدت انا معهم اسيراً واصابني في اثناء الحرب حمى فاصبحت وشعر لحيتي يتساقط وكذلك شعر رأسي حتى سقط منهُ الأكثر فلما وصلت المدينة التقيت شاعرنا (واشار الى حسان) فتعرف بي ودعاني للاقامة في دارهِ فأقمت عندهُ كما ترون وفي اثناء ذهابي اخذني الى الشيخ الذي سميتموهُ الحارث بن كلدة طبيب العرب (٢) فوصف لي دهناً من عشب ينبت الشعر وارجو ان يعود الى ما كان عليهِ

(١) السيرة النبوية ج ٣ ، ابن الاثير

الفصل الثالث والخمسون



يوم الشعانين

فلما اتمّ عبد الله حديثهُ هنأُوا بعضهم بعضاً بالسلامة ثم قال حماد واين فرسي الآن

قال هو معي هنا فهل تريد ان تراه

قال نعم وخرجوا الى بستان بالقرب من المنزل وكان الجواد مشدوداً الى نخلة فلما وقع نظرهُ على صاحبهِ اخذ في الصهيل كانهُ يرحب بقدومهِ وتقدم حماد اليهِ فلمس جبهتهُ وقبلهُ بين عينيهِ ثم عادوا جميعاً والفرح ملء قلوبهم الاَّ حماد فانهُ عاد الى هواجسهِ في هند وابيها والقرطين فلما وصلوا المنزل وجلسوا نظر عبد الله الى حماد وقال له العلك لا تزال مصمماً على الاقتران بهند

قال نعم يا ابتاه ولا اظنني قادراً على العدول عنهُ بعد ان كان ما كان

قال وهل نسيت نذرنا لدير بحيراء

قال واي نذر

قال نذر يوم الشعانين الذي سنقص فيهِ شعرك

قال وما دخلهُ بمسأَلة الاقتران

قال ان لهُ دخلاً كبيراً لاني سأتلو عليك في ذلك اليوم حكاية واطلعك على امور ذات بال لها علاقة كبرى بامر الزواج

فخاف حماد ان يكون هناك ما يحول بينهُ وبين هند

فقال وهل في ذلك السر ما يمنعني من هند

قال لا اقدر على التصريح بشيء من ذلك الآن ولكن احد الشعانين يكشف لك كل شيء

فقال ان يوم الشعانين بعيد فهل يسوغ لنا استبداله بسواه

قال كلاَّ يا ولدي بل يجب علينا اتمام النذر حرفاً حرفاً فوقع حماد في حيرة واوجس خيفة لئلا يكون في قصة يوم الشعانين ما يحول بينهُ وبين هند فود ان يطلع على حقيقة ذلك ليعلم كيف يتصرف وقد كان عازماً على المسير الى البحث عن القرطين وكان

يظن ان والده سيكون اكبر مساعد له على ذلك لكثرة اصدقائه هناك فاصبح بعد ما سمعه منه لا يستطيع مكاشفته بالامر لانه قال له صريحًا ان لا يخطو خطوة في مسألة الاقتران قبل يوم السعانين فصمت برهة يفكر في الامر فخطر له ان يستطلع سلمان على حدة لعله يكون عالمًا بشيء من ذلك السر

فانفرد به في مسألة ذلك اليوم وسأله عما يعلمه من امر يوم الشعانين

فقال له ان سر ذلك اليوم مكتوم عن كل بشر اعرفه وقد قضيت مع سيدي والدك اعوامًا مذ كنت طفلاً حتى صرت شابًا وانا اسمع انه نذر قص شعرك في دير بحيراء عند ما تبلغ هذا السن وانه سيطلعك في ذلك اليوم على امور تهمك كثيرًا ويكون لها علاقة كبرى بمستقبل حياتك واعترف لك اني بذلت قصارى جهدي في استطلاع شيء من ذلك السر فلم اوفق وتراني اكثر رغبة منك في معرفته فما لنا الاَّ الانتظار الى يوم الشعانين

فقال وكيف اقضي هذه الايام وماذا افعل بهند وقد فصحت لك عن امور انت تعلم اني اكتمها عن سائر العالمين فهل يخفى عليك ما بيني وبين هند من المحبة والرابطة وقد تركتها على موعد من اللقاء فمضت سنة مذ تركتها ولم افعل شيئًا مما تعهدت لها به بعد ان اشترطت عليَّ شرطها على اثر ولا ارى ان اعود اليها الاَّ والقرطان في يدي وقد [illegible] ان لا امر [illegible] عود بالمنديل عنها في العراق ولا نستطيع ذلك الاَّ بمساعدة والدي وقد سمعت قوله الدال على رغبته في ايقاف كل حركة قبل يوم الشعانين فكيف اقضي هذه [illegible] و[illegible] بعيدا عن هند [illegible] لا تزال على عهدي

[illegible] ما عرفته من حبها لك وثباتها في حبك فلا يترك محلاً للشك في [illegible] على [illegible] [illegible] يمكن ان يحوّل عنك يمنة ولا يسرة ولكني ارى ان تكتب [illegible] [illegible] ما عندك وسببها في انفاذ المهمة التي انت سائر [illegible] [illegible] ما كنه ضميرها

[illegible] على اللقاء هنا الى يوم السعانين

[illegible] اهل المدينة لا يفترون عن الاستعداد للحروب [illegible] في ذلك فالغالب انه يصل الذهاب الى بصرى [illegible]

قال فاذا كنا ذاهبين الى بصرى فليس ثم حاجة الى الحارث لاني الاقيها هناك واجتمع بوالديها او بأحدهما وابلو عليهما ما وقع فما عليك الاَّ اقناع والدي بالذهاب بنا الى اللقاء

قال حسنًا ولكنك اذا اردت مقابلتها هناك فليكن ذلك على غير علم من والدك

قال سنظر في ذلك ثم افترقا واخذ سلمان في تحريض مولاه عبدالله على الخروج من المدينة والاقامة بنية ذلك العام في اللقاء وخصوصًا لان الحارث قد مات وخرج النعمان من يدي ابيهِ ثعلبة

فوافقهُ عبد الله على ذلك فقضوا بضعة ايام في المدينة يشاهدون ما أحدثهُ المسلمون فيها من الابنية واحسنها المسجد الجامع على انهم كانوا يشاهدون في كل يوم شيئًا جديدًا من الاعدادات الحربية للغزو او غيره مما زادهم تهيبًا لجند المسلمين وحسبوا لمستقبل دولتهم حسابًا كبيرًا

ثم أخذوا في الاستعداد للمسير فودعوا حسانًا فارقهم بدليل يعرفهُ وساروا يقطعون البراري والقفار حتى أتوا بصرى فتشاوروا في مكان يقيمون فيهِ فاتفق رأيهم على الاقامة في دير بحيراء فاتخذوا فيهِ غرفة اقاموا فيها

أما حماد فان عودتهُ الى ذلك الدير اذكرتهُ اموراً هاجت اشجانهُ فتذكر اجتماعه بهند هناك لاوَّل مرة وما كان من مجيء ثعلبة بعدهُ الى آخر ما حدث في حينه ثم عزم على المسير الى جبلة للسلام عليهِ ثم الى صرح الغدير لملاقاة هند وبثها ما في ضميره وما بلغت اليهِ مهمتهُ وما يرجوه من العثور على القرطين في العراق ولكنهُ كان كلما تصوَّر وقوفهُ امامها موقف المعتذر او المستمهل اشمأزت نفسهُ وعسر عليهِ ذلك الموقف



الفصل الرابع والخمسون

هند في صرح الغدير

فلنترك حماداً ووالده وسلمان ولنعد الى صرح الغدير لنرى ماذا تمّ لهند بعد سفر حماد لئلا يظن القارئ اننا نسينا عواطفها وانتحابها ولم نسأل بما قاسته اثناء غيابهِ من الوحشة والخوف عليهِ ولا سيما بعد ان سمعت فتح مكة ودخول المسلمين اليها عنوة وهي تعلم ان حماداً انما سار الى هناك التماسًا للقرطين

ودّعت هند حماداً يوم سفره وقلبها وجف عليهِ لعلمها انه سار في تلك المهمة والاخطار ظاهرة فيها ولكن ثقتها بشجاعتهِ وتعقلهِ هوّنت عليها الامر لأوّل وهلة ثم اشتغلت عنهُ بالاضطرابات والخوف اثناء حرب مؤتة وحمدت الله لغيابهِ خوفًا عليهِ ان يصاب بسوء [illegible] تعرض لسهام المحاربين

فلما انقضت الحرب وعادت [illegible] سكينة عادت هي الى الاضطراب واستبطأت [illegible] لأن [illegible] وقع [illegible] وخوف [illegible] فلما طال الامد ولم تسمع عنه [illegible]

وكانت والدتها [illegible] حركته [illegible] وقد ادركت ما بها فاحدثت تسليها بالآمال [illegible] والارتياح [illegible] على انها كانت [illegible] لا [illegible] مرور [illegible] محارب [illegible] عنها تسمع من احد حديثًا [illegible] وخصوصًا الذين [illegible] من مكة [illegible] واضطربت جوارحها وهي مع [illegible] عن اخبارها حتى التقت يومًا [illegible] قدمت [illegible] دخول المسلمين [illegible] عنوة [illegible] حماداً في ذلك [illegible] [illegible] محارب [illegible]

ثم رأت [illegible]

عنهُ وانزوت في صرح الغدير لا ترى احدًا ولا تسمع خبرًا مخافة ان يكون في ما تسمعهُ ما يسوءُها ثم سمعت بموت الحارث بن ابي شمر والد ثعلبة فاحست بارتياح لعلمها ان موتهُ يقلل من نفوذ ابيهِ لدى والدها على ان ذلك لم يزد شيئًا من اسباب سعادتها فالهموم ما زالت تتراكم عليها وليس لديها من تشكو همها اليهِ غير والدتها لكنها كانت تخاف مخاطبتها بهذا الشان لئلاَّ تسمع منها ما يزيدها يأْسًا ففضلت الكتمان وهي مع ذلك لا تزداد الاَّ نحولاً وانقباضًا وميلاً الى الخلوة

وكانت كلما خلت بنفسها نظرت الى الاساور في يدها وجعلت تقبلها وتتنسم منها رائحة حماد فاذا اشتد بها الهيام بكت وتحرَّقت ونقمت على والديها لانهما أَبعدا حمادًا عنها وخيل لها انهما انما ارسلاه الى تلك الاصقاع للتخلص منهُ وما زال هذا الفكر يتمكن منها حتى اصبح بمنزلة الاعتقاد وصارت تنفر من مجالسة والديها وتسيء الظن بهما فلم يزدها ذلك الاَّ رغبةً في الخلوة والانقطاع عن الناس

وأَما والدتها فقد كانت لنباهتها وحدة ذهنها لا تغفل عن خاطر يمرُّ في ذهن ابنتها وكانت تعذرها على ذلك لانها شعرت هي ايضًا بارتكابها امرًا قبيحًا بارسال حماد في مهمة خطرة الى هذا الحد وقد زاد ندمها خبر وفاة الحارث بن ابي شمر وضعف نفوذ ثعلبة مع كره هند لهُ فتحققت عند ذلك ان هندًا يستحيل عليها الاقتران بهِ وقد أصبح بعد موت والده وضيع المنزلة ولم يعد جبلة يخشى بطشهُ لو ردَّ طلبهُ

فاصبحت سعدى بسبب ذلك شاعرة بخطأ فظيع ارتكبتهُ امام ابنتها فأَحرمتها تهنأَ بحبها وحبيبهُ وصارت هي اكبر رغبة من هند في عود حماد وصممت في باطن سرها على انهُ اذا عاد ولو خائبًا لتساعدنَّهُ في الحصول عليها ولو أبى والدها على انها لم تكن تستحسن مخاطبة هند بهذا الشأْن لئلاَّ توطد آمالها ثم ربما لا يعود حماد من الحجاز فيكون ذلك سببًا في زيادة احزانها فصبرت نفسها لترى ما يأْتي بهِ القدر ولكنها ما برحت تتنسم الاخبار علها تسمع نبأً جديدًا

اما جبلة فقد كان في بدء مشغولاً عن مثل هذه الامور بما كان من الحرب في مؤتة فما عتم ان رجع المسلمون حتى توفي الحارث فزاد اشتغالهُ وعظم اهتمامهُ بضم قبائل العرب في الشام وأملها الدولتان لعرب المتنصرة هناك قبائل وبطون أكثر بها ابناء زهير وكانت بنو زهير حارثة منقسمة الى فئتين احداهما تابعة للحارث

والاخرى لجبلة فلما توفي الحارث اشتغل جبلة بضم بعض قبائل الحارث اليهِ ان لم يكن كلها ولم يطمع بذلك الَّا لعلمهِ بضعف ثعلبة عن القيام بما قام بهِ والدهُ قبلهُ ولاعتقاده ان امراء القبائل انفسهم يكرهون ثعلبة لدناءتهِ وشراسة اخلاقهِ · فوقع بسبب ذلك تنافر بين جبلة وثعلبة واحس هذا بضعفهِ وخاف العاقبة لكن سوء خلقهِ لم يهدهِ الى سبيل يسترضي بهِ عمهُ فاخذ يطعن فيهِ امام الامراء يريد تحقيره في اعينهم فلم يحتقروا الَّا ثعلبة وبلغ ذلك جبلة فحقدها عليهِ وزاد سعيهُ حتى اخرج كل العرب الغساسنة من حوزتهِ ولم يترك لهُ منهم الَّا شرذمة قليلة

فازداد ثعلبة لؤمًا وسفاهة واخذ يطعن في جبلة وابنهِ وسائر اهل بيتهِ فندم جبلة لما وقع منهُ في حق حماد واسف لابعاده في تلك الرسالة الخطرة ولم يزدد مع الزمان الَّا ندمًا ولكنهُ كتم ندمهُ ينتظر ما يجيء بهِ القدر ولكنهُ صمم في باطن سره ان يكفّر عما ارتكبهُ في حق حماد بان يزوجه بابنتهِ سواء عاد بالقرطين او بدونهما فضلاً عما في ذلك من النكاية في حماد

الفصل الخامس والخمسون

هند والقمر

وما زالت هذه حال هند حتى كاد ينقضي العام ولم تسمع عن حماد خبرًا فترجح لديها انهُ اما قتل او فشل وشق عليهِ الرجوع خائبًا فهاجر الى مكان بعيد او لعلهُ فتك بنفسهِ فرارًا من اثقال اليأس وتخلصًا من عذاب الحب فتراكمت عليها الهموم وفي ذات يوم قضت هند نهارها في مثل هذه الهواجس ووالدتها تسارقها اللحظ وتغتنم فرصة تخاطبها وهي تحاذر وتتجاهل فلما سدل الليل نقابهُ دخلت الى غرفتها واوصدت الباب وراءها وجلست الى نافذة تطل على الحديقة والقت جبينها على وسادة وجعلت رأسها على كفيها وكانت الليلة مقمرة وجوها صافيًا والبدر يتخلل نوره من وراء الاغصان ونسيم الربيع يتنفس عن الاودية والجبال فاخذت تتأمل بما احدثهُ من الظلال الغريبة على السهول والسباسب ونظرت الى حديقة القصر فرأت اشجارها متنفسة بسكون ... الطول منها كبيرًا وقد وقفت تلك الاطلال على

ما هنالك من اغراس الريحان وغيره من انواع العطريات فحجبتها عن النظر ولكنها لم تحجب رائحتها فضوع القصر منها وقد هدأت الطبيعة وأوت الطيور الى اوكارها وسكنت الرياح فلم تسمع الا خرير ماء الغدير في وسط البستان ونظرت الى ضفاف ذلك الغدير فرأت اشجار الحور مرسة صفوفا كأنها عذارى حشن للاستقاء فهالهن سكون الطبيعة فبهتن ووقفن على ضفاف الغدير صامتات

فما برح القمر ان اعتلى وظهر وجهه واضحًا فاستقبلته هند وجعلت تتأمله فاحست بارتياح الى منظره فتذكرت ارتياحها الى رؤية حبيبها فاختلج قلبها فعادت الى الانقباض فارسلت نظرها الى القمر لعلها تسترجع ذلك الارتياح فامتنع عليها

ولكنها ما لبثت ان تأملت وجه القمر حتى ترقرقت الدموع في عينيها واخذت تخاطبه قائلة « الفلك مشرق الآن على منازل مكة وحبذا لعلّ حبيبي هناك ينظر اليك و يستقبلك بوجهه ليته يفعل ذلك فيلتقي طرفانا عندك فنجتمع على بعد الدار »

الى الطائر السري انظري كل ليلة ☆ فاني اليهِ في العشية ناظر
عسى يلتقي طرفي وطرفك عنده ☆ فنشكو اليهِ ما تكن الضمائر

« نعم اني ارى على وجهك صورة كأنها ظل وجههِ فهل يرى هو مثل ذلك ايضًا »

ثم عادت الى البكاء فاطلقت لنفسها العنان حتى لم تبالِ عن التنهيق وهي تظن نفسها منفردة لا يسمعها احد ولكنها ما لبثت ان سمعت قارعًا قرع الباب فعلمت انها والدتها سمعت صوت بكائها فجاءت لتعزيها فودّت البقاء في خلوتها فتظاهرت بالنوم ولم تنهض لفتح الباب فقرعت والدتها الباب ثانية واخت عليها ان تفتح فمسحت عينيها ونهضت ففتحت الباب ولم يكن في الغرفة نور غير ضوء القمر الداخل من النافذة فدخلت سعدى وضمّت هند وضمتها وجعلت تقبلها وتنظر الى وجهها الحقيقي كأنها وهند صامتة مطرقة لا تبدي حراكًا فقالت سعدى ما بالك يا ولدي ما الذي يبكيك لماذا لا تشكين اليّ همك الستُ والدتك اما انت ولدي ووحيدتي هل كنت لا تعلمين اني احبك

فلبثت هند صامتة ولكنها نظرت الى والدتها نظرة عيناها تغني عن الكلام وتنبئ بكلمة ففهمت سعدى انها تحبها لما ارتكبته نحو حماد ولكنها ارادت مطايبتها فاخذتها بيدها الى السرير واجلستها الى جانبها وقالت ما بالك لا تجيبيني يا هند تكلمي حتى

شيئًا الم اكن حافظة اسرارك قولي يا ولداه ما يبكيك

فنظرت هند اليها وكان ضوء القمر واقعًا على وجهها فرأت سعدى الدموع تتلألأ وهي ساقطة من عينيها فانفطر لها قلبها وهمّت بها تائهة وضمّها وتناولت منديلها وجعلت تمسح لها الدموع فحوّلت هند وجهها نحو النافذة وتنهدت وهي تنظر الى القمر وضوئه على السهول والجبال

فنهضت سعدى ووقفت معترضة بينها وبين النافذة وقالت لها قولي يا ولداه ما الذي يبكيك لقد تقطع قلبي ولم يعد لي صبر على بكائك ألا تعرفين قلب الوالدة

فوقفت هند ثم مشت نحو النافذة والدتها تعترضها وتمسك يدها ثم وقفت وقفة من يستغرب حالها فنظرت هند اليها تدرًّا وقالت « نعم يا اماه اني اعرف قلب الوالدة ولكن الوالدة لا تعرف قلب ابنتها »

فادركت سعدى مرادها فقالت ومن قال لك يا هند اني لا اعرف قلبك فانت قد عرفت ... [illegible] ... لاني اعرف حبك

قالت كيف ... [illegible] ... وقد كنت لي عوامض اسراره

[illegible] ... سامحك الله وسامح والدي

و ... وتنهدت ... [illegible]

[illegible] سعدى ... [illegible] كيف تقولين ذلك يا هند كيف لم ... [illegible] حصل ما حصل بمصادقتك ورضاك لما فيه من الخير لك

[illegible] ... وانت ... [illegible] الكلام قائلة ومع ذلك

[illegible] ... ودلال ... جاء حماد القرطين ام

[illegible]

[illegible] ... لقد قضي الامر

[illegible] ... لعام مد سار من هذا

[illegible] ... وقالت وهي تبكي « ... [illegible]

[illegible] ... يا اماه ... [illegible]

[illegible] ... القدر

[illegible] ... صوتها

«آه يا حماد حبيبي اين انت الآن العلك على الارض ام في السماء ام اين انت من يخبرني بمكانك لكي اطير اليك فاما ان اعيش قربك او ان ادفن تحت قدميك فقد كفاني ما سببته لك من الشقاء وما جزاء عملي هذا غير الموت . الموت الموت ! . »

قالت ذلك ورمت بنفسها على السرير ووالدتها لا تزال ممسكة بيدها تحاول تلطيف ما بها فلما القت نفسها خافت سعدى ان يغمى عليها فبادرت الى الماء لترشها به وامسكتها بيدها. وجعلت تخاطبها وقلبها يتقطع ولولا اشتغالها بمعرفتها لكانت هي المغمى عليها لا محالة ،ولكن اشتغال الانسان عن محنة بسواه ينسيه نفسه . فهمت بها وخاطبتها فتحققت انها لم يغمَ عليها فحاولت اجلاسها وجعلت تقبلها وهند مشتغلة بالبكاء والتنهيق ويداها على وجهها

فرأت سعدى ان تتركها هنيهة ريثما يهدأُ روعها فلبثت صامتة مطرقة تفكر في امرها حتى اذا آنست منها سكينة وهدوءًا جاءت بكأس من الماء وقدمته اليها لتشرب فشربت وهي مطرقة خجلاً لما ظهر من عواطفها رغماً عنها

فابتدرتها والدتها قائلة هوني عليك يا ولداه فانك مثال التعقل والرزانة عندنا فكيف اطلقت لنفسك العنان

فظنت هند انها توبخها فقالت كأني توبخيني فقد علمت اني اتيت امرًا يعاب عليه امثالي ولكن الكأس قد طفح والامر بعد

قالت سعدى لم يحدث شيء بعد يا هند ان حمادا خطيبك وقد قلت لك سواء جاء بالقرطين ام لا فانه لك وانت له

فتنهدت سعدى وقالت هذا اذا قدّر لنا ان نراه لا اظنه الا قتل في مهمته الآن صارعًا في بطن الارض ولا يعود الينا صفر اليدين

قالت تدبري الامر بالصبر والحكمة واتكلي على الله فانه قادر على كل شيء وهلمّ بنا نصلي ونطلب اليه تعالى ان يعيده سالمًا

فتأملت هند في حديث والدتها فترجح عندها انها تقول الصدق بشأن حماد واقترانه بها سواء جاء بالقرطين ام لا فسرّها ذلك ولكنها ارادت ان تستطلع ما عند والدها من هذا القبيل فقالت لوالدتها

هب انك رضيت بذلك فما رأي ابي ... وما ...

قالت ان والدك اكثر رغبة مني في الامر وخصوصاً بعد ان وقع ما وقع بينه وبين ذلك الخائن من النفور على اثر وفاة والده الحارث فطيبي نفساً وقري عيناً واتكلي على الله واطلبي اليه تعالى ان يحفظ لك خطيبك ويعيدهُ اليك سالماً معافى ونسي انعاسا فسكن روع هند وسارت الى فراشها وسلمت امرها الى الله

الفصل السادس والخمسون

﴿ البشارة ﴾

واصبحت في اليوم الثاني فعاد اليها الاكتئاب فودت انها لم تستيقظ او انها تظل نائمة فلا تستيق الا على صوت حماد فلبثت في الفراش تلتمس النوم واخذت تتقلب عبثاً فلما كان الضحى جاءت والدتها تتفقدها فلما رأتها في الفراش اشتغل بالها واستطلعت الخبر فشكت هند كسلها عن القيام فجلست الى جانبها تحادثها بما يذهب عنها الهواجس وهند تسمع وتفكر [illegible] حتى كانت الظهيرة فسمعتا صوتاً خارج الصرح ينادي [illegible] فخفق قلب هند لذلك الصوت وهمت من فراشها [illegible] سمعتا منه صوت سلمان وتذكرتا قدومه اليهما قبلاً [illegible] راكباً على فرس مثلما رأتا سلمان قبلاً فتحققتا انهُ هو [illegible] في [illegible] قدومه عليهما بغتة على غير انتظار فنادياه فتحول ودخل [illegible] وظلت هند في الغرفة جالسة وركبتاها ترتجفان من [illegible] وقد سمعت وقع اقدام الرجل مع والدها [illegible] فوصل الرجل الى باب غرفتها وحالما وقع نظرها [illegible] كيف تكلمه فبدرها هو بالسلام وتبسم وهمّ [illegible] سلمان وكانت والدتها قد اغلقت الباب

[illegible] كيف [illegible]

[illegible] في خير [illegible] ان هو قريبا

قال هو في خير وقد تركته في دير بحيرى ينتظر امرك ويدعو لك

قالت هل هو في خير وعافية

قال نعم يامولاتي انهُ في خير وقد التقى بوالدهِ في المدينة

فخرَّت هند الى الارض فقبلتها وقالت نحمد الله على سلامته قالت ذلك وقد انبسط وجهها وابرقت اسرتها

فقالت سعدى ابن هو حماد ولماذا لم يأتِ معك

قال انهُ في دير بحيرا محملاً من مقابلتكم

قالت وما الذي يخجلهُ اننا لا نريد منهُ شيئاً غير سلامتهِ

قال والقرطان

قالت لا حاجة بنا اليهما فقد زال السبب الذي دعا الى طلبهما

قال ان امر القرطين قد عاد علينا بالقتل فقطعنا الفيافي والقفار حتى اتينا الكعبة فلم نعثر لهما على خبر وقصَّ عليهما حكاية سفرهما من يوم خروجهما من صرح الغدير الى ان عادا وكيف التقيا بعبد الله وما عزما عليهِ من البحث عنهما في العراق

فقالت هند دعنا من الاقراط فقد اغنانا الله عنها

فتعجب لذلك التغير واراد ان يعلم اذا كان حملة ابضاً في مثل رأيهما

فقال وهل سيدي الملك حبلة في خير

قالت سعدى نعم هو في خير ينتظر قدوم صهره حماد بفارغ الصبر

فلما سمع قولها (صهره) وازداد اطمئناناً برضاها عن حماد فقال وهل هو ايضاً يغفل امر القرطين

قالت انه لا يريد شيئاً غير سلامة ولدنا حماد فادعهُ الينا لنراه

قال انهُ يود ذلك من صميم قلبهِ فاذنوا له بفرصةٍ آتي بهِ اليكم

قالت فليأتِ باقرب وقت ولكننا نود حضوره والملك غير حاضر ليفرح بعودته ولكن ايضاً والدهُ معهُ ليتم الفرح

ففرح سلمان بهذا الاحتفاء ولكن خاطراً مرَّ بذهنهِ فاسكتهُ بغتة فلمحت هند شيئاً غيّره فقالت ما بالك يا سلمان ما الذي اسكتك فهل هناك ما يمنع حضوره اخبرني

قال كلاَّ يامولاتي انهُ ينتظر هذا الاجتماع انتظار الظمآن للماء الزلال وهو انما

تحمل الاخطار ومشاق الاسفار طمعاً بذلك ولكنه ...

فبغتت هند وسعدى معاً وقالتا ما الذي يدعو الى ترددك قل يا سلمان لقد شغلت بالنا

قال لا يخفى عليكما ان سيدي حماداً تشرف بخطبة سيدتي هند ووالده لا يعلم ولما علم بذلك يوم اجتماعنا في المدينة سرَّ كثيراً ولكنه استمهل حماداً في اتمام هذا الامر ريثما يأتي يوم الشعانين

قالت سعدى وما علاقة يوم الشعانين بذلك

قال لا علاقة له بالأمر حيث النذر فقد علمتم ان سيدي حماداً منذور ان يقص شعره في دير بحيراء من يوم ولادته وان يكون قصه في يوم الشعانين في السنة الحادية والعشرين من عمره فلما كان اليوم المعين منذ عامين حدث ما حدث لما تعلمانه ولم يتمكن من وفاء النذر فلما عاد من هذا السفر قال سيدي عبد الله لولده انه سيقص شعره في يوم الشعانين القادم بعد بضعة أشهر وتقدم اليه ان لا يباشر عملاً مهماً قبل ذلك اليوم لانه سيطلعه على امور تهمه ولكني لا اظن لها علاقة بهذا الامر

فلما سمعت هند ذلك الكلام تعوذت بالله مما هو مخبأ لها في عالم الغيب وقالت في نفسها لعل امامنا عراقيل اخرى غير التي انقضت

فقالت سعدى لا بأس ولكن دعنا نمنع سيدك من الحضور ليلتقي بوالد هند وخصوصاً لانه قريب منه ... على ... في الملقاة . اما ذلك الامر فما نحن في عجل اليه واذا المراد ان نضمن قلوبنا ونهدأ بالنا نرى بعضنا بعضاً وقد تمهدت العقبات بموت الحارث وسقوط ... بين القبائل

فقال سلمان نحمد الله على نعمه ولا اقدر ان اصف لكم مقدار سرور مولاي حماد بهذه الاخبار فعينوا المكان والزمان اللذين تريدان الاجتماع بهما لاخبر سيدي

فقالت هند ... حماداً ... ثم تعين يوماً يجتمع فيه بالوالدين لاننا نخشى اذا انتظرنا اجتماعنا ان يطول الاجل ... في البعد وربما لا يستطيع المجيء الا بعد بضعة ايام ... ان تسمع حماداً فلا على المراد لنستوضح امر النذر وعلاقته بالاقتران

فقال سلمان ها اني ذاهب لاخبره وانه يكون هنا في صباح الغد ان شاء الله

فخرج وقد ندم على ما فرط منهُ في حديثهِ عن عبد الله وعلم انهُ اخطأ فيما ذكره بشأن الدير وخاف ان يشق ذلك على حماد فعوَّل على التخلص من هذه التبعة بالحيلة فاسرع حتى اتى الدير في مساء ذلك اليوم وكان قد سار في هذه المهمة ولم يخبر عبد الله لعلمهِ انهُ لا يريد ذلك

فلما وصل الدير كان حماد في انتظاره فاستقبلهُ وهو ينظر الى وجههِ لعلهُ يقرأ على ملامحهِ ما يشرح فرآه يبتسم ووجههُ منبسط فرحب بهِ وسألهُ عن الخبر

فقال ابشر يا مولاي ان الله قد محا كل شقاء كُتب علينا وزالت كل الموانع التي كنا نخاف وقوعها بينك وبين هند

قال وكيف هند هل هي مسرورة برجوعي وهل علمت اننا لم نعثر على القرطين وماذا قالت

فضحك سلمان وقال ان القرطين لم يبعد لهما دخل في امر اقترانكما فقد تغير وجه المسألة بموت الحارث بن ابي شمر . ونصَّ عليهِ الخبر الى ان قال واذا شئت الاقتران في صباح الغد فهو لك لان والدة الفتاة ووالدها راضيان بك لا يريدان منك شيئًا واما هند فانت تعلم قلبها

قال وهل طلبت مواجهتي

قال كيف لا وقد طلبت ايضًا ان يشرف سيدي والدك على ان يكون الملك جبلة موجودًا لتتم المعرفة بينهما واني واثق باقبال نجم سعدنا لان اقترانك بهند فضلاً عن انهُ من أهم اسباب سعادتنا فهو سبيل الى اكتسابكما نفوذًا لدى ملك غسان

فقال ولكنك تعلم ان والدي لا يرضى الذهاب معي بهذا الشان

قال أعلم ذلك وقد ذكرتهُ امام سيدتي هند

فبغت حماد وقال كيف ذكرتهُ وماذا قالت

قال ذكرتهُ على اسلوب لطيف فقلت ان سيدي عبد الله سرَّ كثيرًا بحظ نجمكما ولكنهُ يود وفاء النذر قبل عقد الاقتران

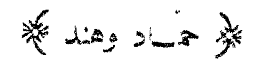
قال حماد اخشى ان تكون هند قد فهمت شيئًا يحملها على اساءة الظن

قال لا اظنها فهمت شيئًا من ذلك وعلى كل فانك ذاهب اليها في صباح الغد وقد اجلنا اجتماع والديكما الى فرصة اخرى فاذا اجتمعتما افهمها الحكاية كما تريد

قال اذاً نذهب الى صرح الغدير في صباح الغد وماذا نعمل بوالدي هل نخبره

قال أرى ان نخبره بأننا ذاهبون لطمأنينة اهل الصرح بعودتنا وانما لانحدث بشان الخطبة أو الاقتران مطلقاً

قال هذا هو الصواب



الفصل السابع والخمسون

﴿ حمّاد وهند ﴾

وفي مساء ذلك اليوم [illegible] حماد والده في امر هند وقال له ان وفاة الحارث ربما سهلت امر اقترانه وربما عدلوا عن طلب القرطين واظهر حماد سروره [illegible]

فقال [illegible]

قال [illegible] لسرورك ولكني لا ازال [illegible] بالاقتصار في هذا الموضوع ريثما [illegible]

قال [illegible] فلا [illegible] دلك اليوم ولكني عازم في صباح الغد على الذهاب [illegible] واظنهم يودون مشاهدتك

قال [illegible] وتذهب لمشاهدة اهل صرح الغدير

[illegible]

[illegible] مولاي

وفي صباح [illegible] وركب سلمان معه وسارا قاصدين الصرح

[illegible] قدوم حماد الأ [illegible]

[illegible] فقد اطلأت

في [illegible] السهر شيئاً لمسه

[illegible] تشرف على طريق

[illegible] ترى حماداً قادماً وكانت كلما

رأت شبحاً او ظلاً او سمعت صوت صهيل او وقع اقدام خفق قلبها ولا يكاد يحدث في الصرح صوت الاّ سمعته كانها كلها آذان لعظم تأثرها

اما سعدى فقد كانت توصي الخدم في اعداد ما يلزم للضيافة من الذبائح ونحوها فلما فرغت من ذلك فكرت في هند وما يكون من حالها عند ملاقاتها حماداً بعد طول غيبته فخافت من شدة تأثرها ائلاّ يظهر منها ما تعاب عليه او يؤثر في صحتها ورأت ان تسير اليها وتشاغلها لتذهب ما بها من قلق الانتظار فجاءتها فاذا هي في مثل ما خافته عليها

فلما سمعت هند وقع اقدام والدتها كادت تغشى لولا تعودها سماع ذلك فاستقبلت والدتها باشة فابتدرتها سعدى قائلة ما بالك منفردة يا هند اظنك تتوهمين عدول حماد عن المجيء

فضحكت ولم تجب

فقالت هيا بنا الى الحديقة نتنسم رائحة الازهار لان بقاءك هنا ممل قالت ذلك وامسكت بيدها ومشتا حتى نزلتا الى البستان وأوغلتا بين الاشجار وهند تسارق النظر من بين الشجر لعلها ترى حبيبها قادماً ولكن والدتها سارت بها في الحديقة حتى بعدت عن الطريق وكانت هند انما تمشي مجاراة لها وقلبها يحدثها بالرجوع الى القصر لئلا يصل حماد اثناء غيابها

وفيما هما في ذلك سمعتا صوت صهيل عرفته هند حالاً انه صهيل جواد حماد فخفق قلبها فنظرت اليها سعدى متجاهلة فاذا هي قد [illegible] بالرجوع

فقالت لها دعينا هنا فانه لا يلبث ان يأتي [illegible] وقد ارادت سعدى ان يكون الملتقى على انفراد مخافة ان يحدث في اثناء ذلك الاجتماع ما لا يستحسن اطلاع اهل القصر عليه

فسكتت هند ولكنها ما فتئت تنظر من خلال الاشجار نحو باب الحديقة [illegible] مجيء حماد سارع [illegible] حتى رأته قادماً [illegible] وقد تقلد الحسام تحت عباءة حرير [illegible] خفقان قلبها واصفر وجهها ثم ما لبثت ان [illegible] حتى التفت حماد فسلمت عليه فهم بتقبيل [illegible]

[illegible] يحدثها [illegible] ولكن الخشية والحياء منعاها

ما هو [illegible] نحوها [illegible] وجهه يطفح سرورًا وعيناه شاخصتان اليها [illegible] وهيامًا

[illegible] الى الارض خجلاً ولكن الابتسام غلب عليها ولما امسكت [illegible] في [illegible] ثم توردت وجنتاها وأبرقت أسرّتها كأن [illegible] ثم انحصر في وجهها فاضاء . فقال حماد [illegible] ولكني عدت مع ذلك حي حين

[illegible] أشعة الهيام منها [illegible] الى عودتك سالمًا فالحمد لله [illegible] ودموع الفرح [illegible] وهي تبتسم فارادت اخفاء دموعها [illegible] من حمرة الخدود وتحول حماد وسعدى [illegible] يضحكان فقط ولو تركا على [illegible] سعدى حملها على الاكتفاء [illegible]

[illegible] فقالت سعدى [illegible] اطنبت [illegible] فانشغل بالنا كثيرًا [illegible] عودتك سالمًا عدما قاسيته من الخطر [illegible] احسبني تبت امرًا ولا تحملت شقاء [illegible] لأن السبب فقدان القرطين [illegible] على مواصلة البحث عنها في العراق

[illegible]

[illegible] لاقرط وان عدنا من فصل المولى ما

[illegible]

[illegible] عارًا على حماد ان [illegible] وعيناه نظران الى [illegible] ويكاد النور

[illegible]

[illegible] لانه جاهد في سبيل

القرطين جهادًا حسنًا ولا يزال ساعيًا في التفتيش عنهما في خزائن الحيرة ولكننا نحن حولناه عن عزمهِ فما ذلك من قبيل الخيبة لا سمح الله

ثم قالت سعدى ان امر القرطين يا ولدي لا يهمنا مطلقًا فمثل هذه الافراط كثير عندنا من نعم الله . من ذلك لؤلؤتان معلقتان بتاج الملك جملة هما مثل لؤلؤتي قرطي مارية تمامًا حتى لقد يحسبها الناس نفس القرطين (١)

قال حماد اني لا أجهل نعم الله على ملوك غسان زادكم الله نعماً ولكنني وددت ان اجعل لي سبيلاً استحق به هندًا فان نسبي وحدهُ ولا حسبي يخولاني هذا الشرف ولكن ذلك أحسبهُ من جملة كرم الغسانيين على الغرباء . قال ذلك وتبسم والتفت الى هند فاذا هي تبتسم ايضاً وتنظر الى الارض

فالتفتت سعدى اليهِ وقالت ان النسب يا ولدي لا يجعل الانسان انساناً [illegible] الرجل باصغريهِ لا ببرديهِ فان ما شهدناهُ من شهامتك وكرم اخلاقك لجدير [illegible] برفع منزلتك الى أوج الملوك وكم من ملك نحضهُ دناءتهُ [illegible] الدهر [illegible] على ذلك قريب . قالت ذلك ونظرت الى هند كأنها تذكرها بدناءة ثعلبة [illegible] بينهُ وبين حماد فادرك حماد ذلك فاطرق خجلاً لما سمعهُ من الاطناب ولكن قلبهُ رقص طربًا لتخصيصهِ من امر القرطين وتمثل له ملاك السعادة طوع ارادتهِ [illegible] أسرتهُ ثم تذكر يوم الشعانين وتأخير الاقتران [illegible] بهند في تلك الساعة [illegible] كل [illegible] ثم [illegible] سعدى [illegible] انّ العمار لا تحتاج الى تدليل [illegible]

قال لا اشعر بتعب وان الغسل والتدليل امران مستدركان [illegible] هذه الحديقة بين الاشجار ومجاري المياه والاستظلال تحت [illegible] نفسي . ولا اخفي على سيدتي اني لم اكن ارجو مثل هذا الاجتماع [illegible] المشتاق ولا اسى [illegible] في [illegible] في ذلك اليوم [illegible]

قالت هند وكيف [illegible]

قال لا [illegible]

(١) الاغاني

اني ركبت متن الاسفار وقطعت البراري والقفار للبحث عن قرطي مارية مهرًا لحبيبتي هند والبحث عن والدي فنزلت بلدًا شهدت فيه حربًا وخطرًا ثم تحققت فقدان القرطين ... والدي فلما تركت كل هذه المصائب عليّ صعدت الى سطح غرفتي وقد ضاق صدري وتذكرت هندا ووالدي وما انا فيه من اليأس فماذا تكون حالي ... هل هو في خير وهل ينوي زيارتنا ... سرورنا فقد زالت كل الحواجز وتمهدت كل ...

... حماد ... يوم الشعانين فقال في نفسه لم تزل امامنا ... فقال ان سيدي أواه يسر كبيرًا ... الآن في شاغل وسيعلم اول فرصة ... وما كنت

الفصل ... والخمسون

﴿ ... ﴾

... في القصر حركة واهتمامًا ثم ... خرج ... الجميع الذين هم على ...

... اكثرهم ... واهتمامًا لانها ... ان يكون ... في البحث عن القرطين ... الى حماد ... على ما سمعته ... لانها هي التي ... اليه رسولا بالامس ... استطاع ... فعل

... المقام حتى تودي في القصر ... وخرج حماد ... ووالدتها الى الحديقة

تعلم يا ولدي ان العرب يرجعون في انسابهم الى اصلين كبيرين هما قحطان واسماعيل ومن نسل قحطان عمّرت اليمن وما جاورها ومن نسل اسماعيل عمرت الحجاز وما جاورها ويسمى نسل اسماعيل الاسماعيلية او العدنانية نسبة الى جدّ من اجدادهم بعد اسماعيل اسمهُ عدنان ويسمى بنو قحطان القحطانية

وقد قامت من القحطانية دول ملكت الحافقين منهم التبابعة المشهورون وغيرهم من دول حمير وسبا . ومن مملكة سبا خرجت ملكة سبا التي ذكرت التوراة انها زارت الملك سليمان وما زالت اليمن عامرة آهلة حتى حدث سيل العرم (١) فتفرق اهلها ايدي سبا [illegible] اتعرفون ما هو سيل العرم

قال حمّاد لا يا أستاذ لا اعرفهُ

قال عبد الله اعلم [illegible] ولدي [illegible] اليمن [illegible] جزيرة العرب ارض تقلّ فيها الانهر والينابيع [illegible] في [illegible] مياه الامطار [illegible] تجتمع في مجاري الاودية [illegible] اقصى [illegible] فلافادة [illegible] كانوا يجعلون في عرض الاودية سدوداً من حجر تعترض [illegible] الماء فيجتمع و [illegible] حتى يسقي اعالي الارض

وكان من تلك [illegible] في اليمن [illegible] يقال له العرم [illegible] قديماً بحجارة [illegible] يسدّون [illegible] يرجعون اليه في سقيهم وكانت [illegible] حتى اصبح [illegible] ذلك وكان [illegible]

وكانت [illegible] سقوط [illegible] امر السد وقلّت [illegible] لئلاّ يسيل [illegible] ماء [illegible]

[illegible]

[illegible]

المبارزة فعجبوا لذلك ولكنهم صبروا انتظارًا لما يكون بعدهُ فادرك عبد الله ضمائرهم فقال لهم لا تروا في حديثي ما كنتم تتوقعونهُ من الانباء المهمة فاني انما اقص عليكم اخبارًا متناقلة على السنة الناس ولكني اردت ان ابسط لكم اصل نسب ملوك الحيرة المقيمين في العراق ثم اتطرق من ذلك الى كشف السر فامهلوني ولا تملّوا

الفصل الحادي والستون

ملوك الحيرة

قلت لكم ان بني كهلان تفرقوا قبيل سيل العرم وبعده وكانوا احياء عديدة نذكر منها ثلاثة هي لخم والازد وطي امالخم فهم اجدادنا الذين اقاموا في العراق ومنهم المناذرة ملوك الحيرة (قال ذلك وتنهد) واما الازد فمنهم بنو غسان عرب هذه البلاد اما طي فاقاموا بنجد والحجاز في جبلي اجا وسلمى [1]

وسرّ حمادًا أن يكون بين الغسانيين واللخميين قرابة ولكنهُ ما زال قلقًا للوصول الى آخر الحديث وكذلك سلمان اما الراهب فكان اقلهما قلقًا واشتياقًا كأن الشيخوخة وكثرة الاختبار علّماه الا يخاف حوادث الزمان فضلاً عن ان ما قصهُ عبد الله عليهم الى ذلك الحين لم يكن بالشيء المجهول عنهُ

اما عبد الله فانهُ اتمّ الحديث قائلاً تعلمون ان ملوك الحيرة اللخميين يتصل نسبهم بكهلان بن سبا من عرب اليمن نزحت منهُ فرقة ولخم الى العراق واقاموا فيه مدة على حالهم من البداوة واول من حكم العراق من العرب قوم من حي يقال لهُ دوس وهو بطن من الازد وهم اقرب نسبًا الى الغسانيين منهم الينا ولم تمض مدة حتى تغلب اجدادنا عليهم وملكوا العراق تحت رعاية ملوك الفرس على مثال ما هم عليهِ الآن واتخذوا مدينة الحيرة كرسيًا لملكهم وسموا ... جميعًا المنذر وهو لقب ملوك العراق كما تعلمون

ولا اطيل الكلام عليكم ... باختصار انهُ توالى على كرسي الحيرة بضعة عشر ملكًا اشهرهم ... بن عمرو ... من ... ان الغسانيين لما قدموا

(١) ...

من اليمن كانوا على عبادة الاوثان فلما ملكوا وخالطوا الرهبان واهل النصرانية تنصروا واول من تنصر من ملوكهم امرؤ القيس هذا (١) ثم ملك النعمان بن امرىء القيس ويقال له الاعور وهذا الذي بنى القصرين المشهورين (الخورنق والسدير) ومن غريب امره انهُ لما عظم ملكهُ وامتلأت عيناه من خيرات الارض مال الى الزهد فترك الملك وتنسك (٢). وملك بعدهُ المنذر ثم الاسود وهذا حارب اصحابنا الغسانيين منذ مئة وخمسين عامًا واسر عدة من ملوكهم وكان ذلك سبب عداوة مستمرة فيما بيننا وبينهم (٣). وتوالى بعد الأسود ملوك كثيرون منهم المنذر بن ماء السماء وكان معاصرًا لكسرى انو شروان ملك الفرس المشهور ولهُ معهُ وقائع وحوادث يطول شرحها فلنتركها ولننتقل الى آخر ملوك الحيرة النعمان بن المنذر

فلما ذكر اسمهُ ابتدرهُ الراهب قائلاً اظنك تعني ابا قابوس

قال نعم انهُ كان يلقب ابا قابوس

قال الراهب هذا الذي قتلهُ كسرى برويز وبسبب قتلهِ صارت واقعة ذي قار (٤)

وقد كنت شابًا وشهدت هذه الحوادث وكنت اعرف الملك النعمان هذا رحمهُ الله ولي معهُ حديث طويل

الفصل الثاني والستون

✵ مقتل النعمان بن المنذر ✵

فتنهد عبد الله وهو يعتدل في مجلسهِ ويصلح الرداء على كتفيهِ وقال قد وصلنا الى المراد من حديثي فارعوني السمع لاقص عليكم غرائب ما اعلمهُ عن هذا الملك قال ذلك وشرق بدموعهِ حابسة ولولا ضعف النور لظهر الدمع متلألئًا في عينيهِ ولكنهُ تجلد واعاد الحديث فقال

ان الملك النعمان هذا لا احتاج في وصفهِ الى تطويل وكلكم يعرفهُ الاَّ حمادًا ويكفي في وصفهِ انهُ شهم شجاع صادق وقد اعاد النصرانية الى الملك (٥) بعد ان فسدت

(١) ابن خلدون (٢) ابو الفداء (٣) ابن خلدون (٤) الطبري (٥) ابو الفداء

وابدلها اسلافة بالوثنية (١). ولا تتضح لكم دخيلة حديثي الّا اذا ذكرت لكم كيفية تولي النعمان الملك . فقد كان ابوه المنذر ملكاً فمات وكان في بلاط كسرى على عهده رجل عدنانيّ اسمه عدي بن زيد كان يحسن العربية والفارسية وكانت له منزلة كبرى ونفوذ لدى كسرى وكان مقام كسرى في المدائن والمنذر في الحيرة كما تعلمون. وكان للمنذر ١٢ ولداً احدهم النعمان الذي نحن في صدده وكان قد ربي في حجر عدي بن زيد ورضع في اهله (٢) وكان من ابناء المنذر ايضاً فتى اسمه الاسود رباهُ قوم من اهل الحيرة يقال لهم بنو مرينا ينتسبون الى لخم

فلما مات المنذر خاطب كسرى عدياً في من يلي الحيرة بعده وقال له « اني اريد ان اخرج الملك من أيدي هؤلاء واجعله في يدي واحد من خاصتي فهل بين أولاد المنذر من يصلح للملك » قال عديّ انهم بضعة عشر رجلاً كلهم أشداء فاذا امر مولاي جئته بهم قال ائتِ بهم . فبعث يستقدمهم وفي نفسه ان يسهل سبيل الملك الى النعمان سرّاً لانه ربي عنده فخلا به قبل اجتماعهم واسرّ اليه اشياء يقولها في حضرة كسرى ففعل وتولى الملك فشقّ ذلك على ابن مرينا لانه كان يرجو ان يكون الملك للاسود التماساً للنفوذ على يده فاخذ يحرض الاسود على الانتقام من عدي بدعوى انه عدناني (اي من نسل عدنان وبين القحطانية والعدنانية مناظرة) موافقة وسلم التصرف في ذلك اليه فجعل ابن مرينا يتقرب من النعمان بالهدايا والتحف ويشي بعديٍّ فيذكره بالخير ويتواطأ وبعض الحضور على الطعن فيه فيروون عن لسانه انه يقول بان النعمان تحت امره وانه هو الذي ولّاه الملك وما زالوا كذلك حتى اضغنوهُ عليه . فبعث النعمان الى عدي يدعوهُ الى زيارته فجاء وفي حال وصوله امر بسجنه في مكان خارج الحيرة لا يدخل عليه فيه احد فعلم عديّ بها وشاية فجعل يكتب الى النعمان يستعطفه نصاً ونثراً فلم يجد ذلك نفعاً فكتب الى اخ له اسمه أُبيّ يحرضه على انقاذه فقام ابيٌّ الى كسرى وأنبأه بخبره فكتب الى النعمان في اطلاقه فجاء اعداء عديّ واكثرهم من بني بقيلة واصلهم من عرب غسّان (٣) اهل هذه الديار وحرضوا النعمان رحمة الله على الفتك بعديّ قبل وصول كتاب كسرى اليه وحسّنوا له ذلك بحيلة يطول شرحها وكان الرسول قد مرّ قبل وصوله الى الحيرة بسجن عديّ واخبره بكتاب كسرى ثم

(١) الاغاني (٢) ابن خلدون (٣) الطبري

خرج من عنده الى النعمان وفي اثناء ذلك ارسل النعمان الى عديّ اناسًا فقتلوه فلما فضّ كتاب كسرى كتب اليه ان عديًّا مات . ولكن النعمان ما لبث ان عرف انه اساء عديًّا فندم وما صدق ان لقي ولدًا من اولاده اسمهُ زيد بن عديّ حتى همّ باكرامه ورفع شانهُ تكفيرًا عما فرط منهُ بشان والده واوصى بهِ كسرى فجعلهُ في منزلة والده عديّ (١)

فلم يغفل اهل الوشاية عن اطلاع زيد على كيفية قتل ابيهِ فحقدها على النعمان وسعى ضده لدى كسرى بحيلة غريبة . وذلك ان الاكاسرة كانوا يبعثون الى ايالاتهم يطلبون نساء لهم على اوصاف مخصوصة ولكنهم لم يكونوا يلتمسون ذلك من احياء العرب لعلمهم بتخلهم بكرائمهم . فقال زيد لكسرى مرة ان في الحيرة نساء جمعن كل اوصاف الجمال فاذا بعثت الى النعمان ارسل اليك منهنّ . وكان زيد يعلم ان النعمان لن يرضى بذلك فيقع التنافر بينهُ وبين كسرى فانفذ كسرى رسولاً ومعهُ زيد الى النعمان فاخبره بطلب كسرى فعظم ذلك عليهِ فالتفت الى زيد وقال لهُ « اما في مها السواد وعين فارس ما يبلغ كسرى بهِ حاجتهُ ان الذي طلب كسرى ليس عندي « قال الرسول لزيد بالفارسية ما معنى المها والعين » قال « البقر »

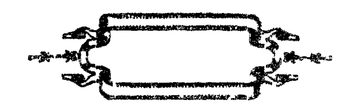
فلما رجعا الى كسرى اخبراه بما قال النعمان واقنعاه انهُ انما اراد الحط من منزلة كسرى بقولهِ « اليس في بقر الفرس ما يكفيهِ » فغضب كسرى غضبًا شديدًا ولكنهُ كتم ذلك والنعمان قد شعر بغضبهِ فاخذ يستعد ويتوقع حتى اتاه كتاب كسرى يستقدمهُ اليهِ فعلم انهُ انما يدعوه لمقتلهِ فحمل سلاحهُ واهلهُ والتمس الفرار . وكنت انا ممن لازم النعمان زمانًا وكان يستأنس بي ويرتاح الى رفقتي فقال لي كيف انت يا عبدالله قلت اني يا مولاي لاحقك بك اينما توجهت فقال ان في ذلك خطرًا عليك قلت ما انا باحرص على نفسي مني على نفس مولاي النعمان فقال بورك فيك . فمضينا من ذلك اليوم وسرنا حتى اتينا قبيلة طي في اعالي نجد وكان النعمان قد تزوج منهم فطلب ان يحموه بين الجبلين (اجا وسلمى) فقالوا « لا يمكننا ذلك ولولا صهرك لقتلناك فانهُ لا حاجة بنا الى معاداة كسرى »

فتركناهم وسرنا الى قبائل اخرى فلم يقبلنا احد منهم خوفًا من كسرى حتى لقينا رجلاً من قبيلة بكر بن وائل اسمهُ هاني بن مسعود (٢) وكان سيدًا منيعًا وكان للنعمان

(١) الاغاني (٢) والطبري يسميهِ هاني بن قبيصة بن مسعود)

فضل عليهِ فقال لهُ «اني مانعك مما امنع نفسي واهلي وولدي منهُ ما بقي من عشيرتي الاّ دنين رجلٌ ولكني لا ارى ذلك نافعاً لك لانهُ مهلكي ومهلكك فاذا اذنت لي فاني مشير عليك بالذهاب الى كسرى مستعطفاً واحمل اليهِ الهدايا فاذا صفح عنك عدت ملكاً والاّ فالموت خير لك من ان يتلاعب بك صعاليك العرب» فاستحسن مولاي النعمان الرأي ولكنهُ قال ما افعل بحرمي فقال هاني «هنّ في ذمتي لا يخلص اليهنّ حتى يخلص الى بناتي» ففعل النعمان بذلك وانا خائف من عاقبة الامر وقد حدثتني نفسي في صدهِ عن الذهاب ولم اجسر لاني شاهدت وجههُ وكان ابرش احمر كما تعلمون [1] قد امتقع حتى صار كمن اصابهُ اليرقان ونهض وقد همهُ الامر كثيراً وجعل يخطر ذهاباً واياباً وقصر قامتهِ ظاهر وهو يفتل شاربيهِ الاشقرين كانهُ خائف من الذهاب وكان ضميرهُ دليلهُ

ثم فكر قليلاً وقال لهاني ارى يا اخا بكر ان ارسل الى كسرى هدايا فان قبلها سرت اليهِ فقال هاني نعم الرأي رأيت فارسلها اليهِ فقبلها كسرى خداعاً منهُ قبحهُ الله . فهمّ مولاي النعمان بالمسير فقلت اني سائر معك ووالله لا افارقك لحظة فقال ارى ان تبقى عند بناتي خير من ان تذهب معي قلت اني فاعل ما تريد ولكني ارى السماء آمنات في حمى هاني بن مسعود فأذن بذهابي معك فأذن وكأن نفسي حدثتني بخطر قريب فسرنا حتى اتينا المدائن فلقينا زيد بن عدي فتشاءمت برؤيتهِ وتحققتُ سوء قصدهِ وكنت مصيباً في ذلك لانهُ لم يكد يلقانا حتى قال النعمان «انجُ نعيم ان استطعت النجاة» فقال النعمان «فعلتها يا زيد فوالله ان عشت لاقتلنك قتلة لم يقتلها عربي قط ولالحقنك بابيك» فضحك زيد لعنهُ الله وتوعدهُ فعلمنا انها حيلة اعدها لهُ وتحقق النعمان ان الساعة قد دنت وان القضاء واقع لا مفر منهُ فلما وصل الى كسرى أمر بتقييدهِ وبعثوا بهِ الى سجن في خانقين [2] وكنت اتردد اليهِ في السجن خلسة وانا ارجو الافراج عنهُ اما هو فلم يكن يرجو نجاة



(١) الطبري (٢) الاغاني

الفصل الثالث والستون



السرّ

وسرتُ اليه ذات يوم صباحًا فرأيتهُ قد تغير حالهُ وامتقع لونهُ كانهُ خائف من امر قريب ولا انسى منظره الرهيب في ذلك اليوم فوقفت انتظر امره فقال لي يا عبد الله

قلت لبيك يا مولاي

قال ارى ان اسرَّ اليك امرًا فهل تعاهدني على حفظهِ

قلت كيف لا

فمدَّ يده واعطاني هذا الرداء المزركش (قال عبد الله ذلك ونزع الرداء عن كتفيهِ ووضعهُ امامهُ) فاخذتهُ منهُ ثم استخرج من يده خاتمًا عليهِ اسمهُ واقمهُ وهو هذا (ومدَّ عبد الله يده واستخرج الخاتم من جيبهِ ووضعهُ على الرداء) وكان الحضور شاخصين يحبسون انفاسهم اصغاء لما سيقولهُ عبد الله وتوقعًا للخطر القريب. وكان عبد الله قد تغيرت سحنتهُ واختنق صوتهُ وتخللهُ ارتعاش زاد الحضور تهيبًا

ثم قال ولما تناولت الخاتم قال لي النعمان اعلم يا عبد الله اني في هذا السجن حتى ينقضي اجلي فيخرج مُلك الحيرة من ايدي اللخميين لان عديًّا هذا سيبذل جهده في اذلالهم خوفًا ممن ينتقم لي ولا اعرف من اولادي من يصلح لرفع هذا العار عنا ولكن بين اهلي عند هانئ بن مسعود زوجتي سميَّة وهي حامل وستلد قريبًا فاذهب اليها بهذا الخاتم وهذا الرداء وقل لها ان هي وضعت غلامًا ان تعهد اليك تربيتهِ فتربيهِ تربية رجال القتال حتى يشبَّ شهمًا حرًّا واحذر ان تقص شعره او تخبره عن نسبهِ قبل الحادية والعشرين من عمره فاذا بلغها قص شعره في دير بحيرا. واخبره عن نسبهِ والبسهُ هذا الرداء وهذا الخاتم ...»

ولم يكد يتم عبد الله كلامهُ حتى استولت الدهشة على الحضور وخصوصًا حماد اذ خيل لهُ انهُ في حلم وساعده على ذلك الوهم ضعف النور وهدوء المكان وكانوا لا يردون انفاسهم الاَّ وهم يحذرون ان تنقرض حديث عبد الله ولما وصل الى هذا الحد تحققوا ان حمادًا هو ابن الملك النعمان فجعلوا ينظرون اليهِ نظرة الاحترام. اما عبد الله فحالما بلغ الى قولهِ «والبسهُ هذا الرداء وهذا الخاتم» وقف على قدميهِ وحمل الرداء على

كتفي حماد والخاتم في اصبعهِ وامسكهُ بيدهِ وانهضهُ واجلسهُ على المقعد الحجري وهمَّ بتقبيل يدهِ فخجل حماد وجذب يدهُ منهُ فقال لهُ عبد الله لا تخجل يا مولاي انك الآن سيدي ابن الملك النعمان وقد انقضى زمن والدية عبد الله . فجلس حماد على المقعد وجلس عبد الله بين يديهِ وهمَّ سلمان بيد حماد فقبلها وتأدب في مجلسهِ وهو يقول « والله كنت ارى هيبة الملوك على وجههِ من يوم عرفتهُ »

اما الراهب فانهُ على عجزهِ وقف ورفع يدهُ فوق رأس حماد وباركهُ ودعا لهُ بطول البقاء وقبل رأسهُ . كل ذلك وحماد يحسب نفسهُ في حلم ولكنهُ فرح كثيرًا بما علمهُ من نسبهِ وودَّ لو ان هندًا حاضرة فتسمع ذلك فتفرح معهُ وخيل لهُ ان سعدهُ قد تمَّ لانهُ ملك وسيقترن بملكة وبرث ملك غسَّان . وفيما هو يفكر في ذلك نهض عبد الله فقال لم يتمَّ حديثي بعد فهل تسمعونهُ الى آخرهِ

قالوا نعم

فمدَّ يدهُ الى جيبهِ واستخرج اسطوانة من القصب ثخن الاصبع وخاطب حمادًا قائلاً وقد اعطاني مولاي النعمان هذه الاسطوانة واستحلفني ان اسلمها اليك مختومة بعد اتمام الخبر فتفتحها في هذا الدير وتقرأ ما فيها وتعمل بهِ

فمدَّ حماد يدهُ فتناول الاسطوانة وهمَّ بفتحها فامسكهُ عبد الله وقال لا تفعل قبل اتمام الحديث

قال تفضل

فقال عبد الله فلما أتمَّ النعمان وصيتهُ بكى وبكيت ولكني كنت أحس الدمع تحجبًا لهُ . فقال « اعلم يا عبد الله ان القضاء واقع قريبًا فاحتفظ بهذا السر حتى يأتي وقتهُ اما اذا انا خرجت من هذا السجن وعشت فللمسالة وجه آخر » . وللاسف يا سيدي انهُ لم يخرج من ذلك السجن فوافاهُ القدر فتوفي بداء الطاعون (١) قال ذلك وتنهد والدموع ملء عينيهِ وتنهد الجميع ثم قال

اما انا فسرت الى هانئ وبقيت في ذلك سنة وكانت حاملاً فاسررت اليها ما كان واطاعت فانتظرت ريثما وضعت وامها واسماء ولكنها لم تعش بعد الولادة الا قليلاً فحملتك الى هلي واوضعتك بينهم حتى نشأت على ما ترى

(١) الاغاني

الفصل الرابع والستون

وقعة ذي قار

ولعلك تسألني عما تم من امر وديعة والدك فاخبرك يا مولاي ان كسرى علم بعد وفاة سيدي النعمان ان اهله وماله وسلاحه عند هانئ وفيه اربعة آلاف شكة والشكة سلاح الفارس كله (١) فكتب كسرى الى هانئ بان يبعث الوديعة اليه فابى ذلك محافظة على العهد ورعاية للذمام وكان لكسرى عامل على عين التمر وما والاها الى الحيرة اسمه اياس بن قبيصة الطائي فدعا به اليه فجاءه برجاله فاستشاره في الغارة على بكر بن وائل فاشار عليه ان يفعل فعقد كسرى لاياس بن قبيصة على كتيبتي والدك وهما الشهباء والدوسر (٢) وارسل معه جندًا آخر بقيادة رجال من الفرس فكانت حملة ترعرع الجبال وفيها من الخيل والجمال والمؤنة والعدة مالا يحصى. فلما سمع هانئ بن مسعود بها سار برجاله للاقاتها فالتقوا في محل يقال ذو قار وكانت فيه وقعة عرفت بوقعة ذي قار بين الفرس والعرب اشتهر امرها في الاقطار وكانت الغلبة فيها لهانئ ورجاله فانهم هزموا الفرس شر هزيمة وهي اعظم وقعة انتصف فيها العرب من العجم قبل الاسلام (٣) وفرّ اياس الى كسرى فسأله عن الخبر فقال غلبت بكر بن وائل وجئنا اليك بنسائهم ففرح كسرى به وامر له بكسوة ولكن اياسًا خاف افتضاح امره قريبًا فاستأذن بالذهاب الى اهله فاذن له فانصرف الى عين التمر ثم جاء رجل من اهل الحيرة الى كسرى وحدثه بهزيمة القوم فغضب منه كسرى فامر فنزعت كتفاه ولم يصدق الا اياسًا فولى اياسًا الحيرة (٤) كما تعلمون وقد ولي بعده رجل فارسي آخر ثم وليها احد احوتك المنذر المغرور وهي الآن في ولاية اياس بن قبيصة (٥) ولا تزال الوديعة عند هانئ بعضها او كلها

وكان حماد قد ملّ الانتظار تشوقًا الى ما في تلك الاسطوانة فلما فرغ عبد الله

(١) ابن خلدون (٢) الاغاني (٣) الاغاني (٤) الأغاني جزء ثاني : ويقول الطبري ان كسرى ولّى اياسًا الحيرة بعد وفاة النعمان (٥) ابن خلدون

من حديثه نهض وقد اعياه التعب لشدة تأثره وذكرى مصائبه وقال لحماد الحق يا مولاي بالاسطوانة فدفعها اليه فالتمس من الراهب ان يباركها قبل الفتح فباركها فوقفوا جميعًا وتناول عبدالله الاسطوانة وعالجها بمدية حتى انفتحت فدنا من مصباح منير بجانب ايقونة ونظر الى ما في الاسطوانة وكلهم يتطاولون من جنبيه وورائه ينظرون معه فاذا فيها لفافة من جلد فاستخرجها ونشرها بين يديه فرأى عليها كتابة بالاحرف الاسطرنجيلية وهي كتابة اهل العراق الى ذلك الحين فشخصت ابصارهم الى ما فيها فاخذ عبد الله يتلوها عليهم وهم يسمعون وهاك نصها :

« من النعمان نزيل دار البقاء الى ابنه المنذر المقيم بين الاحياء اما بعد فهذا كتاب كتبته وانا في عالم الوجود وانت في دار الحياة وستقرأه بعد رجوعي الى عالم الغيب وبروزك في عالم الاحياء . فاذا قرأته وقد وفيت نذرك وعرفت حقيقة نسبك فاعلم ان عظامي تناديك من ظلمة القبر وتستحلفك بشرف اجدادك المناذرة من آل لخم ان لا تقرب امرأة ولا تشرب خمرًا حتى تنتقم لابيك من اكاسرة الفرس فاذا فعلت ذلك فانك مبارك انت ونسلك وان لم تفعل فان رفاتي ترتعش حنقًا ونفسي تتألم وهي تنظر اليك من مساكن الآخرة تراقب حركاتك وسيجمعني واياك موقف نحاسب فيه والسلام »

فلم يكد حماد يأتي على خاتمة الكتاب حتى ارتعدت فرائصه واي ارتعاد وقد رأى مساعيه كلها ذاهبة ادراج الرياح على ان الحمية من الجهة الثانية ثارت فيه والنخوة هاجت في رأسه وشعر بدافع يدفعه الى الاخذ بثار والده من اكاسرة الفرس وقد استعظم المشروع وهاله الاقدام عليه فوقف مبهوتًا لا ينبس ببنت شفة

فنظر عبد الله اليه ينتظر ما يبدو منه فلما رآه صامتًا قال له هذا هو السر ياسيدي قد اطلعتك عليه فالقيت عن عاتقي حملاً حملته بضعًا وعشرين عامًا وانا اخاف ان اقضي نحبي قبل افشائه فانظر في ماذا تفعل

فقال حماد لقد القيت على حملاً اثقلني به وارجو ان اتوفق للقيام بما عهد اليّ والدي وهو بريء . قال ذلك وتحفز للخروج من الصومعة فاوقفه عبد الله والتمس من الراهب ان يختم حديثهم بالصلاة فصلى وتضرع الى الله ان يساعدهم على كتمان الامر ثم خرجوا وكأن على رؤوسهم الطير لهول ما سمعوه ورأوه واكثرهم

الفصل الرابع والستون

وقعة ذي قار

ولعلك تسألني عما تم من امر وديعة والدك فاخبرك يا مولاي ان كسرى علم بعد وفاة سيدي النعمان ان اهلهُ ومالهُ وسلاحهُ عند هانئ وفيهِ اربعة آلاف شكة والشكة سلاح الفارس كلهُ (١) فكتب كسرى الى هانئ بان يبعث الوديعة اليهِ فابى ذلك محافظة على العهد ورعاية للذمام وكان لكسرى عامل على عين التمر وما والاها الى الحيرة اسمهُ اياس بن قبيصة الطائي فدعا بهِ اليهِ فجاءهُ برجالهِ فاستشارهُ في الغارة على بكر بن وائل فاشار عليهِ ان يفعل فعقد كسرى لاياس بن قبيصة على كتيبتيَ والدك وهما الشهباء والدوسر (٢) وارسل معهُ جندًا آخر بقيادة رجال من الفرس فكانت حملة ترعرع الجبال وفيها من الخيل والجمال والمؤنة والعدة ما لا يحصى. فلما سمع هانئ بن مسعود بها سار برجالهِ لملاقاتها فالتقوا في محل يقال ذو قار وكانت فيهِ وقعة عرفت بوقعة ذي قار بين الفرس والعرب اشتهر امرها في الاقطار وكانت الغلبة فيها لهانئ ورجالهِ فانهم هزموا الفرس شر هزيمة وهي اعظم وقعة انتصف فيها العرب من العجم قبل الاسلام (٣) وفرَّ اياس الى كسرى فسألهُ عن الخبر فقال غلبت بكر بن وائل وجئنا اليك بنسائهم ففرح كسرى بهِ وامر لهُ بكسوة ولكن اياسًا خاف افتضاح امره قريبًا فاستأذن بالذهاب الى اهلهِ فاذن لهُ فانصرف الى عين التمر ثم جاء رجل من اهل الحيرة الى كسرى وحدثهُ بهزيمة القوم فغضب منهُ كسرى فامر فنزعت كتفاهُ ولم يصدق الا اياسًا فولى اياسًا الحيرة (٤) كما تعلمون وقد ولي بعده رجل فارسي آخر ثم وليها احد اخوتك المنذر المغرور وهي الآن في ولاية اياس بن قبيصة (٥) ولا تزال الوديعة عند هانئ بعضها او كلها

وكان حماد قد ملَّ الانتظار تشوقًا الى ما في تلك الاسطوانة فلما فرغ عبد الله

(١) ابن خلدون (٢) الاغاني (٣) الاغاني (٤) الأغاني جزء ثاني : ويقول الطبري ان كسرى ولىَّ اياسًا الحيرة بعد وفاة النعمان (٥) ابن خلدون

من حديثهِ نهض وقد اعياه التعب لشدة تأثرهِ وذكرى مصائبهِ وقال لحماد الحيّ يا مولاي بالاسطوانة فدفعها اليهِ فالتمس من الراهب ان يباركها قبل الفتح فباركها فوقفوا جميعًا وتناول عبدالله الاسطوانة وعالجها بمدية حتى انفتحت فدنا من مصباح منير بجانب ايقونة ونظر الى ما في الاسطوانة وكلهم يتطاولون من جنبهِ ووراءهِ ينظرون معهُ فاذا فيها لفافة من جلد فاستخرجها ونشرها بين يديهِ فرأى عليها كتابة بالاحرف الاسطرنجيلية وهي كتابة اهل العراق الى ذلك الحين فشخصت ابصارهم الى ما فيها فاخذ عبد الله يتلوها عليهم وهم يسمعون وهاك نصها

« من النعمان نزيل دار البقاء الى ابنهِ المنذر المقيم بين الاحياء اما بعد فهذا كتاب كتبتهُ وانا في عالم الوجود وانت في دار الحياة وستقرأهُ بعد رجوعي الى عالم الغيب ومرورك في عالم الاحياء. فاذا قرأتهُ وقد وفيت نذرك وعرفت حقيقة نسلك فاعلم ان عظامي تناديك من ظلمة القبر وتستحلفك بشرف اجدادك المناذرة من آل لخم ان لا تقرب امرأة ولا تشرب خمرًا حتى تنتقم لابيك من اكاسرة الفرس فاذا فعلت ذلك فانك مبارك انت ونسلك. وان لم تفعل فان رفاتي ترتعش حنقًا ونفسي تتألم وهي تنظر اليك من منافذ الآخرة تراقب حركاتك وسيجمعني واياك موقف نحاسب فيهِ والسلام ».

فلم يكد حماد يأتي على خاتمة الكتاب حتى ارتعدت فرائصهُ واي ارتعاد وقد رأى مساعيهُ كلها ذاهبة ادراج الرياح على ان الحمية من الجهة الثانية ثارت فيهِ والنخوة هاجت في رأسهِ وشعر بدافع يدفعهُ الى الاخذ بثار والده من اكاسرة الفرس وقد استعظم المشروع وهالهُ الاقدام عليهِ فوقف مبهوتًا لا ينبس ببنت شفة

فنظر عبد الله اليهِ ينتظر ما يبدو منهُ فلما رآهُ صامتًا قال لهُ هذا هو السر يا سيدي قد اطلعتك عليهِ فانزاح عن عاتقي حملٌ حملتهُ ستًا وعشرين عامًا وانا اخاف ان اقضي نحبي قبل مفاتحتك فاخبرني ماذا تفعل

فقال حماد لقد القيت عليّ حملاً اثقلني بهِ وارجو ان اتوفق للقيام بما عهد اليّ والله معيني ونصيري . قال ذلك وتحفز للخروج من الصومعة فاوقفهُ عبد الله والتمس من الراهب ان يختم حديثهم بالصلاة فصلى وتضرع الى الله ان يساعدهم على كتمان الامر ثم خرجوا وكأن على رؤوسهم الطير لهول ما سمعوهُ ورأوهُ . واكثرهم

بغتة وابذهالاً حماد لانهُ اصبح لايدري ماذا يعمل أيسير الى هند يطلعها على سرهِ وليس في ذلك السرّ الاّ ما يوجب كدرها لانهُ حائل بينها وبين الاقتران الى اجل غير معين وان يكن في اطلاعها على حقيقة نسب حماد امر يسرُّها . ام يخاطب حلة بالامر لعلهُ يشير عليهِ او ينجدهُ . ام يأْم العراق فينزل المدائن ساعياً في الانتقام من كسرى فلما فكر في مسيرهِ الى هناك تهيَّب لعلمهِ بما يحول بينهُ وبين ذلك المرمى من العقبات فان الاكاسرة ذوو بطش ومنعة فسار الى الدير وقضى ليلهُ ساهرًا لعظم تأثرهِ وهو يفكر في طريقة تهون عليهِ المشاكل

الفصل الخامس والستون

﴿ دولة الفرس ﴾

ما برحت الفرس من قديم الزمان تحت سلطة مملكة اشور حتى تولى هذه المملكة الملك سردنبول في القرن الثامن قبل الميلاد وساء حكومتها واشتغل عن سياسة مملكتهِ بمجالسة النساء واللهو على انواعه فانعصتهُ الرعية وودت التخلص منهُ فاتفق كبيران من قوادهِ على اخراج الملك من يده وهما ارباسيس قائد عسكر مادي وبيليزيس قائد جند بابل فاتحدا على العصيان وحاربا ملكهم فحصراه في نينوى فلما أيقن بالهلاك احرق قصره بما فيهِ من المال والناس وهو في جملتهم سنة ٧٦٠ ق . م وهكذا انقضت مملكة اشور الاولى وقامت مملكة مادي وفارس وملكها ارباسيس وتوالى الملوك من بعده وفيهم العادلون والمدبرون او الجهلاء والظالمون ومن اشهرهم كورش العظيم صاحب الغزوات المشهورة فافتتح بابل وما بين النهرين وارمينيا وسوريا وآسيا الصغرى وجانبًا من بلاد العرب وتولى بعده ابنهُ قمبيز فتح مصر على زمن الملك اماسيس من فراعنة مصر ثم تولى داريوس ومن جاء بعده ولم يحسنوا السياسة فتقهقرت المملكة واختلت احوالها . ولما ظهر اسكندر الاكبر في القرن الرابع قبل الميلاد طمع ببلاد فارس ففتحها وقهرها واستولى عليها ولكن عمر اسكندر لم يطل فمات واقتسم قواده مملكتهُ فكانت بلاد فارس من نصيب سلوقس ولم يطل حكمهُ فعراه

الفرتيون بقيادة ارساسيس الاول وما زالت في حوزتهم خمسماية سنة

فانف الفرس من رضوخهم للنير الاجنبي فثاروا سنة ٢٢٦ م بقيادة رجل منهم اسمهُ اردشير فطرد الفرتيين وأسس دولة اشتهرت في التاريخ الفارسي هي الدولة الساسانية ومنهم كسرى انوشروان الملقب بالملك العادل وهو اعظمهم وصار لفظ كسرى لقباً لكل من ملك بعده منهم فعرفت دولتهم بالملوك الاكاسرة

وكان مقام الاكاسرة في المدائن وهي مدينة عظيمة على ضفاف الفرات فيها قصر عظيم طار ذكره في الآفاق سمي الايوان ويعرف بايوان كسرى

وحكم (انوشروان) ٤٨ سنة وخلفهُ ابنهُ هرمز وكانت امهُ ابنة ملك التتر واستاذه الحكيم بزرجمهر وكان وزيره فسارت الاحكام في ايام هذا الحكيم على مثال ما كانت في زمن انوشروان فلما توفي بزرجمهر انغمس هرمز في الشهوات واهمل شؤون المملكة فعصاهُ الولاة وغزاه ملك التتر فنصره قائد من قواده اسمهُ بهرام كان آية في الدهاء والذكاء فطرد التتر من البلاد ثم تحوَّل الى محاربة الرومانيين فوشى به بعض المقرَّبين من البلاط الملوكي فاظهر لهُ هرمز بعض الاحتقار فاستشاط بهرام غيظاً وجاهر بعصيان الملك وخلعهُ وولى بعده ابنهُ كسرى ابرويز وكان صبيًّا صغيرًا نساعد على قتل ابيهِ بعض اقربائه فلما خلص الحكم لهُ طمع بهرام بالملك ففرَّ ابرويز من وجههِ واستجار بملك الرومانيين في ذلك العهد واسمهُ الامبراطور موريس فاعده ورد الملك اليهِ ففرَّ بهرام الى بلاد التتر فاحسنوا وفادتهُ ولكن الخيانة لحقتهُ الى هناك فمات مسموماً

واستبد كسرى ابرويز بالحكم وقد عقد النية على صداقة الامبراطور موريس لانهُ هو الذي رد الملك اليهِ فبالغ في اكرام الرومانيين في بلاده فلما مات صديقهُ المذكور عاد الى مناوأة الروم فاثار عليهم حربًا عوانًا فغزا بلاد الشام ودخل بيت المقدس وعثر هناك على الصليب الذي يقال ان السيد المسيح صُلب عليهِ وكان في حُقة بصندوق من الذهب فحمله الى المدائن وكان ابرويز مع ذلك ملكًا خاملاً مترفًا منغمسًا بالملاهي الى ما يفوق طور التصديق حتى قيل انهُ تزوج ١٢ الف امرأة واقتنى خمسين الف جواد وهو الذي جاءه كتاب صاحب الشريعة الاسلامية الغراء يدعوهُ فيهِ الى الاسلام

بغتة وإنذها الا حماد لانهُ اصبح لا يدري ماذا يعمل ايسير الى هند يطلعها على سرهِ وليس في ذلك السرّ الّا ما يوجب تكدرها لانهُ حائل بينها وبين الاقتران الى اجل غير معين وان يكن في اطلاعها على حقيقة نسب حماد امر يسرّها ام يخاطب جبلة بالامر لعلهُ يشير عليهِ او يحدهُ ام يأُم العراق فينزل المدائن ساعيًا في الانتقام من كسرى. ولما فكر في مسيرهِ الى هناك تهيب لعلمهِ بما يحول بينهُ وبين ذلك المرمى من العقبات فان الاكاسرة ذوو بطش ومنعة فسار الى الدير وقضى ليلة ساهرًا لعظم تأثرهِ وهو يفكر في طريقة تهون عليهِ المشاكل



الفصل الخامس والستون

﴿ دولة الفرس ﴾

ما برحت الفرس من قديم الزمان تحت سلطة مملكة اشور حتى تولى هذه المملكة الملك سردنبول في القرن الثامن قبل الميلاد وساء حكومتها واشتغل عن سياسة مملكتهِ بمجالسة النساء واللهو على انواعه فابغضتهُ الرعية وودت التخلص منهُ فاتفق كبيران من قوادهِ على اخراج الملك من يده وهما ارباسيس قائد عسكر مادي وبيليزيس قائد جند بابل فاتحدا على العصيان وحاربا ملكهم فحصراه في نينوى فلما أيقن بالهلاك احرق قصره بما فيهِ من المال والناس وهو في جملتهم سنة ٧٦٠ ق م وهكذا انقضت مملكة اشور الاولى وقامت مملكة مادي وفارس يملكها ارباسيس وتوالى الملوك من بعده وفيهم العادلون والمدبرون او الجهلاء والظالمون ومن اشهرهم كورش العظيم صاحب الغزوات المشهورة فافتتح بابل وما بين النهرين وارمينيا وسوريا واسيا الصغرى وجانبًا من بلاد العرب وتولى بعده ابنهُ كمبيز ففتح مصر على زمن الملك اماسيس من فراعنة مصر ثم تولى داريوس ومن جاء بعده ولم يحسنوا السياسة فتقهقرت المملكة واختلت احوالها . ولما ظهر اسكندر الاكبر في القرن الرابع قبل الميلاد طمع ببلاد فارس ففتحها وقهرها واستولى عليها ولكن عمر اسكندر لم يطل فمات واقتسم قواده مملكته فكانت بلاد فارس من نصيب سلوقس ولم يطل حكمه فعرا

الفرثيون بقيادة ارساسيس الاول وما زالت في حوزتهم خمساية سنة

فاسف الفرس من رضوخهم للنير الاجنبي فثاروا سنة ٢٢٦ م بقيادة رجل منهم اسمه اردشير فطرد الفرثيين وأسس دولة اشتهرت في التاريخ الفارسي هي الدولة الساسانية ومنهم كسرى انوشروان الملقب بالملك العادل وهو اعظمهم وصار لفظ كسرى لقبًا لكل من ملك بعده منهم فعرفت دولتهم بالملوك الاكاسرة

وكان مقام الاكاسرة في المدائن وهي مدينة عظيمة على ضفاف الفرات فيها قصر عظيم طار ذكره في الآفاق سمي الايوان ويعرف بايوان كسرى

وحكم (انوشروان) ٤٨ سنة وخلفه ابنه هرمز وكانت امه ابنة ملك التتر واستاذه الحكيم بزرجمهر وكان وزيره فسارت الاحكام في ايام هذا الحكيم على مثال ما كانت في زمن انوشروان فلما توفي بزرجمهر انغمس هرمز في الشهوات واهمل شؤون المملكة فعصاهُ الولاة وغزاه ملك التتر فنصره قائد من قواده اسمه بهرام كان آية في الدهاء والذكاء فطرد التتر من البلاد ثم تحوّل الى محاربة الرومانيين فوشى به بعض المقرّبين من البلاط الملوكي فاظهر له هرمز بعض الاحتقار فاستشاط بهرام غيظًا وجاهر بعصيان الملك وخلعه وولى بعده ابنه كسرى برويز وكان صبيًا صغيرًا تساعد على قتل ابيه بعض اقربائهِ فلما خلص الحكم له طمع بهرام بالملك ففرّ برويز من وجههِ واستجار بملك الرومانيين في ذلك العهد واسمهُ الامبراطور موريس فانجده ورد الملك اليهِ ففرّ بهرام الى بلاد التتر فاحسنوا وفادته ولكن الخيانة لحقته الى هناك فمات مسمومًا

واستبد كسرى برويز بالحكم وقد عقد النية على صداقة الامبراطور موريس لانهُ هو الذي رد الملك اليهِ فبالغ في اكرام الرومانيين في بلاده فلما مات صديقهُ المذكور عاد الى مناواة الروم فاثار عليهم حربًا عوانًا فغزا بلاد الشام ودخل بيت المقدس فعثر هناك على الصليب الذي يقال ان السيد المسيح صُلبَ عليهِ وكان في حفرة بصندوق من الذهب فحمله الى المدائن وكان برويز مع ذلك ملكًا خاملاً مترفًا منغمسًا بالملاهي الى ما يفوق طور التصديق حتى قيل انه تزوج ١٢ الف امرأة واقتنى خمسين الف جواد وهو الذي جاءه كتاب صاحب الشريعة الاسلامية الغراء يدعوهُ فيهِ الى الاسلام

كالكتاب الذي جاء الامبراطور هرقل في بيت المقدس فاحتقر برويز ذلك الكتاب واساء حاملة

ثم مالث برويز ان علم بعزم الامبراطور هرقل على اكتساح بلاده ولم يقوَ على دفعه فما زال هرقل هاجمًا واهل القرى يفرون من امامهِ حتى وصل المدائن وبرويز لاهٍ بقصرهِ ونسائهِ ولما احسَّ بقرب الخطر فرَّ فنقم عليهِ ابنهُ شيرويه فقتلهُ وحكم مكانهُ سنة ٦٢٩م ولكنهُ لم يحكم طويلاً لجملة سواه وسواء وفي سنة ٦٣٠م تولى تخت مملكة الفرس فتاة من آل ساسان اسمها بوران دخت ابنة كسري برويز وفي ايامها هجم هرقل على المدائن واسترجع الصليب منها وحملهُ الى القسطنطينية وحكمت بعدها اختها آزرميدخت سنة ٦٣٢م (١٠ه) واشتهرت بالجمال والتعقل وماتت مسمومة ولها قصة يطول شرحها وملك بعدها ملكان لم يطل حكمها واخيرًا افضي الملك الى يزدجرد بن شهريار بن كسرى وفي ايامهِ فتح العرب بلاد فارس

الفصل السادس والستون



المدائن

في عاصمة اكاسرة الفرس ويسميها اليونان كتيسيفون ويسميها الطبري طيسفون والغالب ان كتيسيفون قسم من المدائن وكانت على مسافة عشرين ميلاً من بغداد جنوبًا على الضفة الشرقية لدجلة يقابلها في الغرب بلدة اسمها كوش (١) يعتبرها بعضهم من ضواحي كتيسيفون بينهما جسر عظيم مبنيٌّ من السفن وكان بجوار ذلك المكان ايضًا آثار مدينة يونانية اسمها سلوقية نسبة الى سلوقوس خليفة الاسكندر هناك وقد سميت هذه الاماكن بجملتها المدائن (٢) (جمع مدينة)· واصل اسم المدائن انهُ كان في مكانها حصن كبير يسمّى حصن كتيسفون كان البرثيون (الفرتيون) ابان سلطانهم على العراق يقيمون بها (٣) المدائن لصد الحروب وكان بجوار الحصن

(١) [illegible] (٢) [illegible]

مدينة سلوقية الشهيرة ثم اخذوا يبنون حول الحصن المنازل والحدائق فلم يأْت تاريخ الميلاد المسيحي حتى بنيت هناك مدينة سميت باسم الحصن [1] كما جرت العادة في مثل هذه الحال وظلت المدائن مقام الاكاسرة في زمن الشتاء . وكانت محاطة بسور منيع عليهِ الابراج والقلاع يزيد مناعة مياه دجلة من جهة والآجام والمستنقعات من الجهات الاخرى فاصبحت المدائن جزيرة في وسط المياه يستحيل وصول الاعداء اليها قبل ان تمزقهم نبال الفرس من الاسوار وقد كان بين دجلة والفرات جنوبي المدائن قناة موصلة بينهما اسمها نهر ملكا ومعناها بالكلدانية نهر الملك تسهل نقل السفن بين النهرين [2]

وكان على ساحل المدائن عند دجلة سلَّم ممتد بطول الضفة يصعد عليهِ الناس من النهر الى المدينة بدرجات متينة مبنية من الحجر ويسمى هذا السلم باصطلاح اهل تلك البلاد « مسنّاة »

وترسو عند المسناة سفن الفرس مئات والوفًا حتى تخال سواريها غابة من الاعمدة تناطح السحاب والناس فيها جماعات يتزاحمون بين صاعد ونازل وشكل السفن يشبه شكلها في العراق الآن فانها مستورة المؤخر كانها قطعت بسكين قطعًا عاموديًا فصارت عريضة ملساء واما مقدمها فانهُ يصعد مستدقًا رويدًا رويدًا حتى اذا انتهى الى اعلاه انحنى على نفسهِ نحو السفينة على شكل المنجل فتخال تلك السفن اذا تحاذت متلاصقة عند المسناة وقد ادبرت مقاديمها نحو المدينة انها سيوف عقفاء يحملها جند من الحرس يحمون المدائن

ولو اطللت على المدائن من مرتفع في ذلك العهد لخيل لك انها غوطة فيها البساتين والمغارس بينها القصور والمنازل مبنية من الآجر وقد قام في وسطها الايوان كانهُ ملك عظيم الشان تحف بهِ الخدم والاعوان

(١) ترور ٥ كسب ١٦ (٢) احسن واعم

الفصل السابع والستون

ايوان كسرى

هو قصر باذخ يسمونه ايضًا الطاق جرى اسمه على السنة العرب واقلامهم مجرى الامثال بالعظمة والفخامة حتى عدوه من المباني العجيبة بناه سابور ذو الاكتاف وهو سابور بن هرمز (١) في القرن الرابع للميلاد (٢) لكنه يعرف باسم ايوان كسرى انوشروان · قضى سابور في بنائه نيفًا وعشرين سنة (٣) اقامه في وسط المدائن على مقربة من دجلة بحيث لا يحول بين الايوان والنهر الاّ الحدائق والبساتين تنتهي عند الصفة بالمسناة المتقدم ذكرها ويحيط بالايوان جملةً حديقة واسعة فيها الاغراس والازهار والرياحين والشجر من الاردرخت والليمون وغيرها · ويحيط بالحديقة سور مبني من الآجر له ابواب عليها الحرس بملابسهم واتراسهم ورماحهم وفوق الابواب رسوم فارسية منقوشة طبعًا على الطين وهو نحو ما كان يفعل الاشوريون في آثارهم (٤) · وعلى جانبي الباب الاكبر المطلّ على المدينة تمثالان كبيران يمثلان الثور الاشوري المجنح برأس انسان طويل اللحية متوّج الرأس (٥) وفي زاوية من زوايا الحديقة بناء الافيال وفيه بعض الفيلة المرباة لركوب الاكاسرة · وبين ابواب الحديقة والايوان طرقات مرصعة بالحصى الوانًا على شكل الفسيفساء يتألف من ترتيبها بعضها بازاء بعض رسوم تمثل اسودًا وآدميين وفرسانًا ومركبات عليها الملوك والقواد يجدون في صيد الاسود نشبه رسوم ملوك اشور اسلاف الفرس ما بين النهرين واكبر تلك الطرقات واوسعها طريق ممتد من الباب الكبير الى باب الايوان يصطف الى جانبيه الحرس عند دخول كسرى الى الايوان

واما بناء الايوان فعبارة عن بناية كبيرة طولها مئة ذراع وعرضها خمسون (٦) مبنية بالآجر والجص سقفها عقد واحد قائمة على عمد من الرخام المنقوش ويصعد الى ارض الايوان بدرجات عند بابه وفي صدره عرش مرصع بالذهب والحجارة الكريمة

---

(١) الاتليدي بالمستطرف (٢) ابو الفداء (٣) الاتليدي (٤) رولنسن
(٥) انسيكلوبيديا الكسندر (٦) الاتليدي

يجلس عليه كسرى تعلوه قبة مرصعة وفي داخلها مروحة من ريش النعام والى جانبي العرش مجالس اعوانه ومرازبته وجدران الايوان وسقفه مزينة برسوم بديعة في جملتها صورة كسرى انو شروان وغيره من الاكاسرة العظام وابيات من شعر مكتوب بالحرف الكلداني الذي كان يكتب به الفرس قبل الاسلام وفي سقف الطاق رسوم الافلاك والابراج والنجوم من ذهب منزّلة في قبة زرقاء

وكان للايوان شرفات مزخرفة بالنقوش تشرف على الجهات الاربع قائمة على اعمدة يتألف من صفوفها رواق يحيط بالطاق من جهاته الاربع طول الشرفة الواحدة خمسة عشر ذراعاً وقد ادخل في بناء الايوان من الذهب ما ربما زادت قيمته على مليون دينار(١)

وباب الطاق كبير نقش على عتبته العليا رسم الشمس مذهبة والى كل من جانبي الباب تمثال اسد كانه يمشي وعيناه تتلألآن والاسدان مصنوعان من الرخام محليان بالذهب وفي موضع العينين منهما زمردات زرقاء بديعة الشكل . واما عتبته السفلى فمصنوعة من الرخام المرمر . ولا يخلو باب الايوان من عشرات من الحرس ولا يخلو مجلس الاكاسرة من مئات من العلماء(٢) بين كاهن وساحر ومنجم ويسميهم الطبري الحزاة . فضلاً عن الحجّاب والحراس والمرازبة

هذه كانت حال الايوان عند ظهور الاسلام في القرن السابع للميلاد

الفصل الثامن والستون

أُسٌ أم جان

فلندع كسرى واعوانه ولنعد الى حماد وهواجسه فقد تركناه في دير بحيراء غارقاً في لجج الافكار تتقاذفه العوامل بين المسير الى العراق او البقاء في البلقاء وكلا الامرين شاق وكلما تصور مسيره الى مدائن كسرى هالة موقفه موقف الخصم امام ملك الفرس وعظم عليه الاقدام منه وهو فرد وذاك سلطان يضم الجند والاعوان ولم يكن

(١) الاتشيهي (٢) طبرى

ذلك ليهوله أو يكبر عليهِ لولا امر هند وتأجيل الاقتران ولقد كان ميالاً كل الميل لاطلاع هند على ما كشف لهُ من نسبهِ مع ما جدَّ من امر التأجيل ليرى ما يبدو منها ومن والدها ولكنهُ تربص ريثما يتخذ الى ذلك سبيلاً لائقاً . فلما تلبدت عليهِ المشاغل وضاق صدره خرج من غرفتهِ ولم يعلم عبد الله ولا سلمان بخروجهِ وسار يلتمس منفرداً يخاطب نفسهُ لعلهُ يتوفق الى رأي يخفف قلقهُ . وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل فلاحت لهُ أكمة على بضعة اميال منهُ فركب وسار نحوها وفيما هو في الطريق غاب وجدانهُ بما اجتذب انتباههُ من الشواغل فسار الجواد حثيثاً وحماد لا يعلم فلم ينتبه الاَّ وهو في سفح جبل فالتفت الى الوراء فاذا بصرى والدير قد غابا عن بصرهِ ونظر الى الشمس فرآها مائلة نحو المغيب فوقف يفكر في ماذا يفعل أيعود الى بصرى حالاً ام يجلس هناك هنيهة فنظر الى ما حولهُ فاذا هو في وادٍ بين جبلين اجردين كسائر جبال حوران[1] فترجل وقاد جواده صعداً يلتمس قمة احد الجبلين لعلهُ يشرف منها على بصرى فيعرف جهتها منهُ ومتى عاد اليها أمن الضياع وفيما هو صاعد حانت منهُ التفاتة الى الجبل المقابل فرأى كهفاً نحتتهُ يد الطبيعة في سفح ذلك الجبل ولاح لهُ شبح يتلصص بين الصخور هيئتهُ بين الآدمية والوحشية لطول شعرهِ وعريهِ فوقف حماد ينظر الى ما يبدو منهُ فما لبث ان رآه يهرول نحو الكهف حتى دخلهُ وتوارى

فمال حماد الى استطلاع حقيقة ذلك الشبح وتحوَّل نحو الكهف يقود الفرس وهو لا يسمع في ذلك المكان صوتاً غير صوت وقع اقدامهِ وقرقعة حوافر جواده تدوي في انحاء ذلك الوادي ويتخلل الدوي طقطقة حجارة تتدحرج من مواقع حوافر الفرس ممتزجة بصوت صهيلهِ . فنزل الوادي ثم همَّ بالصعود حتى اذا صار على مقربة من الكهف رأى حجراً يتدحرج نازلاً نحوهُ فتحوَّل عن طريقهِ وعلم انهُ انما دحرج من الكهف عليهِ فلم يبال ولكنهُ ازداد ميلاً الى معرفة ذلك الشبح فما زال صاعداً حتى دنا من الكهف واذا بحجر آخر يتدحرج فنادى باعلى صوتهِ « لا ترمنا الحجارة فلسنا براجعين من هذا المكان قبل الوصول اليهِ » فردد الوادي صدى كلامهِ اضعافاً فتهيب من موقفهِ وزاده تهيباً قرب غروب الشمس واختلاط الاظلال حتى كادت تتحول الى ظلام فشعر

(١) ميل

اذ ذاك انهُ أساء عملاً بمجيئهِ الى ذلك المكان الموعر مع ما آنسهُ من الوحشة والمقاومة ولكنهُ تجلد وتعهد سلاحهُ فاذا هو مقلد الحسام والخنجر ثم ما لبث ان وصل الى باب الكهف فظهرت لهُ مغارة لا يرى آخرها لعمقها ولا يستطيع الدخول اليها والفرس معهُ فوقف وحدق ببصرهِ الى الداخل لعلهُ يرى احدًا فلم يقع نظرهُ على شيء حيّ فصاح قائلاً « من يقيم في هذا الكهف فليخرج الينا لاننا غير مخولين عنهُ قبل ان نراهُ ولا خوف عليهِ » قال ذلك وهو يكاد يرتعش رهبةً لسكون الطبيعة سكونًا لا يتخللهُ تغريد طائر ولا نقيق ضفدع ولا خرير ماء ولا هبوب هواء ولا صوت آخر حيّ او جامد غير صهيل الفرس ووقع حوافرهِ · فهمّ حماد بشد الجواد الى صخر والدخول الى المغارة بنفسهِ وفيما هو يهمّ بذلك ظهر لهُ شبح خارج من ظلمة ذلك الكهف لا يسمع لاقدامهِ وقع فثبت حماد قدمهُ وتحفز للدفاع اذا اقتضت الحال · فلم يكد يفعل حتى وصل ذلك الشبح اليهِ فاذا هو رجل عارٍ يكسوهُ شعر رأسهِ المسترسل الى قدميهِ وقد تمكن بهِ الشيب فابيضّ على ان الكبر لم يغير شيئًا من اعتدال قامتهِ ورشاقة حركتهِ وحدة بصرهِ وان يكن جلد وجههِ قد تجعّد وشعر حاجبيهِ وشاربيهِ قد طال و شعر صدره اصبح لعصوهِ وبياضهِ كانهُ زبد الصابون وطالت اظافر يديهِ ورجليهِ حتى التفّت على نفسها

فلم يكد يقع نظر حماد عليهِ حتى هاب منظرهُ ولو لم يرَ في يدهِ صليبًا كبيرًا لخيل لهُ انهُ من مردة الجان ولكنهُ ادرك لاول وهلة ان الرجل ناسك من نسّاك تلك الايام انقطع عن العالم وأوى الى الكهوف التماسًا للعبادة وكان قد سمع بكرامة هؤلاء وصدق نظرهم في عواقب الامور فلاح لهُ ان يحادثه في ما هو فيه و يستشيره في امرهِ لعلهُ يجد شيئًا من قلقهِ فتقدم نحوه باحترام وهمّ بتقبيل الصليب في يدهِ فأدناه من فيهِ فقبلهُ ثم خاطب الناسك قائلاً « العلك ناسك مقيم في هذا المكان » فأجابهُ الناسك بحني الرأس أن « نعم » فقال هل تأذن لي بمحادثة اشكو فيها بعض ما في ضميري على سبيل الاعتراف فتشير عليّ بما يوحي بهِ اليك الروح القدس

فاجاب الناسك بالاشارة انهُ لا يستطيع التكلم الآن لان من شروط نسكه ان يصمت اسبوعًا و ينطق اسبوعًا وان آخر اسبوع الصمت ينقضي الليلة فاذ جاء في الغد خاطبهُ · وكان التنسك شائعًا في تلك الايام وللنساك انواع منهم من ينذر الصمت

طول الحياة او بعضها ومنهم من ينذر العري او الجوع او السهر اياماً ومنهم من ينذر المعيشة على عشب الارض وهؤلاء فئة كبيرة كانت بين النهر بن سمّوا « النساك الرعاة » فيقيمون في المعر والكهوف المظلمة (١)

وكان ناسك حوران هذا ممن نذر الصمت اسبوعاً فسرّ حماد بتاجيل المقابلة خوفاً من البقاء هناك تلك الليلة ثم لا يعرف طريقه في عودته لشدة الظلام · فقال له الا آتي اليك معي بطعام اونحوه من بصرى فاجاب (لا) لانه من النساك الرعاة الذين يعيشون على عشب الارض

فقال له ولكنني أرى الارض هنا مجدبة لا عشب فيها

فاشار الناسك بيده الى مكان وراء ذلك الجبل فيه مرعى

فسأله عن سبب رميه بالحجارة وهو صاعد · فاجابه لعلمه انه لا يستطيع مخاطبته قبل انقضاء اسبوع الصمت

فقال حماد وابن الطريق الى دير بحيراء فدله على طريق سهل غير الذي جاء منه فودعه وقبّل الصليب وعاد وجواده وراءه حتى وصل الى الطريق فركب وسار قاصداً الدير فرأى عبد الله وسلمان ينتظرانه في الغرفة وقد قلقا لغيابه على غير موعد وقال له عبد الله لقد شغلت بالنا بغيابك على غير انتظار

فلم يشأ حماد اطلاعهم على ما اتفق له في ذلك اليوم رغبة منه في كتمانه ريثما يسمع كلام الناسك فيطلعهم على الحكاية كلها

فقال لهم خرجت على فرسي فسرت بقاع لم اكن اعرفها فاخطأت الطريق في رجوعي فطال بي المسير

فقال عبدالله وما الذي حملك على الركوب منفرداً · فكبر عليه الاقرار بقلقه وتهيبه من الامر فقال خرجت لترويح النفس

فادرك عبد الله حاله تماماً ولم يشأ ان يثبط عزيمته ولا ان يزيد قلقه خوفاً عليه من اليأس فقال له ارى سيدي في اهتمام وقلق وما في الامر ما يدعو الى ذلك ولا نحن في سرعة او حصر

فظل حماد صامتاً مفكراً فادرك سلمان ان في نفس حماد كلاماً ربما لا ...

(١) حدس

التصريح به على مسمع منه فتظاهر بامر يهمه خارجاً وترك الغرفة فلما خلا عبدالله وحماد قال عبد الله ما بال سيدي لا يبيح بسره الست شريكك في أمرك

قال بلى بل انت بمنزلة والدي ولا اخفي عنك شيئاً فاني في قلق وارتباك واراني في حاجة الى من يفرج كربتي برأي او مشورة ومسألتنا في ما تعلم من الدقة والخطر

فقال عبد الله هلمّ بنا الى الراهب الشيخ الذي شاركناه في سرّنا لعله يشير علينا بما يفرج كربتنا

قال هلمّ بنا اليه

وخرجا حتى اتيا غرفته فدخلا عليه وكان متكئاً فجلس ورحب بهما فجلسا ثم قال عبد الله انك يامولاي شريكنا في سرّنا وعالم بما في ضميرنا فهل تشير علينا بما يخفف عنّا

فقال الراهب ان المسألة في غاية الدقة والمشقة وقد ادركت عظمها منذ سمعتها ولا ادري بماذا اشير . قال ذلك وسكت برهة يفكر ثم هبّ من مجلسه بغتة وقال أرى ان تذهبا الى ناسك حوران فانه يقيم في كهف على مقربة من هذا المكان فعساهُ ان يشير عليكما مشورة خير

فبغت حماد عند سماعه اسم الناسك وقال هل تظنه قادراً على ذلك

قال نعم ياسيدي انه ممن اوتي علماً وكرامة فلا تخلو مشورته من فائدة

فقال عبد الله لحماد وهل عرفته قبل الآن

فقال اعترف لك اني وصلت اليه اليوم بطريق الاتفاق وخاطبته فاجابني باشارة يديه انه لا يستطيع التكلم الاّ في صباح الغد لانه ممن نذروا السكوت اسبوعاً والكلام اسبوعاً

فقال عبد الله فلنذهب اليه غداً ان شاء الله فهل ترافقنا يا حضرة الاب المحترم الى مغارته

قال الراهب ياحبذا لو استطعت المسير اليه معكما ولكني شيخ لا اقوى على المشي ولا الركوب والطريق وعر فسيرا اليه بحراسة الله ودعوني اقيم هنا اصلي واتضرع اليه تعالى ان يسهل سبيلكما

فودعاه وخرجا

الفصل التاسع والستون

ناسك حوران

واصبح حماد وعبد الله في الغد فقال حماد الا نصطحب سلمان في مسيرنا الى الناسك

قال عبد الله لا ارى ما يمنع ذلك وسلمان كما تعلم اكثر غيرة علينا من غيرة احدنا على الآخر ولا اخالنا نستغني عنه في ما نحن فيه ولا يليق بنا وقد صحبناه اعواماً خدمنا بها خدمات جمة ان نخفي عنه امرًا نجريه

قال حماد ذلك ما اراه . وبعثا اليه فصحبهما وخرجوا في الصباح على افراسهم وحماد دليلهم حتى اقتربوا من الجبل واطلّوا على الكهف فقال حماد هذا هو الكهف وكأني ارى الناسك في انتظارنا عند بابه

فنظر عبد الله حتى اذا وقع نظره على الناسك تهيب من منظره عن بعد وصعدوا فلما دنوا من الكهف تحفز الناسك للاقائهم وكانوا قد ترجلوا ومشوا نحوه فقال اهلاً بكم ومرحباً واخذ يتفرس فيهم واحدًا واحدًا بعينين براقتين تحت حاجبين بارزين بروز الطف حتى يخال لك ان العينين في حفرتين عميقتين

فقال حماد مرحباً بك ايها المتعبد التقي لقد جئناك عملاً بوعدك وهذا والدي (واشار الى عبد الله) وهذا صديقي (واشار الى سلمان)

وتقدموا جميعاً وعبد الله ينظر الى وجه الناسك كأنه يعرف وجهاً مثله

وكان الناسك مستعملاً فيها عدداً احجار يجلسون عليها وهو يخطر امامهم عارٍ او شعره مسترسل عليه يتكل بعصا فغلب عليهم الحياء فلم يستطيعوا النظر اليه الا خلسة

فلما اخذ الحجارة تقدموا اليه وقبلوا يده فباركهم وجلسوا . اما هو فجثا على التراب جثو المستريح وجمع شعر راسه ولحيته في صدره الى حجره واخذ يرحب بهم ويعتذر لعدم امكانه القيام بحق ضيافتهم

فقال عبد الله لقد جئناك نلتمس بركة لا ترحاباً فقد بلغنا أنك من رجال الله

المختارين فنظرة منك تغنينا عن اثاث القصور . قال ذلك وهو ينعم النظر فيه لعله يذكر الوجه الذي يشبهه .

فقال الناسك اني أحقر عباد الله فاشكر لحسن ظنكم بي وما تكبدتموه من المشقة في زيارتي وابسطوا ما في انفسكم لعلي استطيع بمشيئة الله ان اخدمكم خدمة لوجه تعالى

فقال عبد الله انا من الطائفة النصرانية الذين يعتقدون بكرامة النساك عبّاد الله ونعتقد انهم ينطقون بوحي منه تعالى وقد جئنا لنطلعك على سرّ لم يطلع عليه احد سوانا وراهب مقيم في دير بحيراء . والسرّ ذو خطر يستلزم اصغاءا وكتمانًا ونحن معاشر النصارى نعلم خطارة سر الاعتراف وما فيه مما يدعو الى الثقة التامة بامثالكم

فقال الناسك قل يا ولدي ولا تخف

فالتفت عبد الله يمينًا وشمالاً كأنه يحاذر ان يسمعه احدٌ وقال يظهر لي انك من اهل العراق

قال الناسك لقد اصبت المرمى نعم اني من اولئك . وما الذي دلّك على ذلك

قال دلني عليه ملامح وجهك ونوع تعبدك فقد قيل لي انك من النساك الرعاة وهم كثيرون في العراق (١)

قال نعم يا ولدي اني كما قلت

قال فوالحالة هذه قل لي هل تعرف الملك النعمان بن المنذر

فلم يكد عبد الله ينطق باسم النعمان حتى ظهرت البغتة على وجه الناسك وارفضت عيناه واقطب حاجباه واجاب وهو يشرأب بعنقه ويحدق بعينيه « نعم اعرفه »

فعجب عبد الله لما ظاهر ولكنه تجاهل وقال هل تعرفه معرفة جيدة ام تسمع باسمه واخباره فقط

فقال الناسك (ويده في لحيته يمشطها باصابعه) لا بل اعرفه كما تعرف ولدك هذا قال ذلك بصوت مختنق حتى خيل لهم انه يبكي

فقال عبد الله اراك يا سيدي قد اهتممت لحكايتنا من اول كلمة قلناها

فتنهد الناسك ومد يده الى عينيه ومسح بها دموعه وقال ان ذكرى الملك النعمان

---

(١) جبس

يهيج اشجاني وتتفتت كبدي فهل يهمكم من امره ما يهمني ام جاء ذكره على لسانكم عرضاً

قال بل هو محور حكايتنا ومرجع سرّنا رحمة الله

وكان حماد وسلمان شاخصين يتعجبان لما يبدو من الناسك وعبد الله يزداد استئناساً بطلعته ولكنه لم يدرك ما الذي يدعوه الى ذلك

فقال الناسك قل ما تقوله عن النعمان اني ارتاح الى ذكره ولكنني اتأسف لتذكري عاقبة امره

فقال عبد الله اذا كان النعمان يهمك الى هذا الحد فانظر الى هذا الشاب وقل لنا هل تعرفه (واشار الى حماد)

فمسح الناسك عينيه ونظر الى حماد وجعل يتفرس فيه ولم يكد يتأمله حتى صاح باعلى صوته «انه ابن النعمان لا شك فيه» وهمّ به وضمه واخذ يقبله

فخفقت قلوبهم وبكوا جميعاً والناسك ضامٌّ حماد الى صدره يقبله ويبكي

فازداد عبد الله استغراباً للامر وقال للناسك لقد اذهلتنا بما بدا منك فكيف تقول انه ابن النعمان وقد كان النعمان ابرش احمر (١) وهذا اسمر ادعج

قال لا عبرة في ذلك فان ملامح النعمان قد تمثلت فيه وهو الرجل الذي رغبت عن العالم وانقطعت الى هذه الجبال من اجله

فبهتوا لهذا القول ولم يفهموا مغزاه فاراد عبد الله ان يستطلع حقيقة الخبر فقال وهل تعرف الذي يكلمك

فنظر الى عبد الله نظر المتأمل وقال العلك صديق الملك النعمان وشريكه في مصابه «شمعون الحيري» . وكان هذا اسم عبد الله المعروف به اذ ذاك

فاندهلوا جميعاً وخصوصاً عبد الله فانه اعاد نظره الى الناسك وازداد استئناساً به ولكنه لم يذكر كيف عرفه فقال اما وقد علمنا انك شريكنا في الامر فاخبرنا من انت وفرج كربتنا

فصعّد الناسك الزفرات وقال اما انا فاني القس الذي ارتد النعمان الى النصرانية على يده (٢) بعد ان كان اسلافه قد نبذوها وعادوا الى الوثنية او المجوسية ديانة الفرس

---

(١) الطبري (٢) ابو الفداء

فانتبه عبد الله من غفلته كأنه افاق من رقاد وقال العلك النس يعقوب
قال نعم وقد كنت مقيماً في دير هند الكبرى المنسوب الى هند بنت الحارث بن عمر بن حجر آكل المرار وهو في ظاهر الحيرة وكانت هند هذه كما تعلمون قد ترهبت فيه فسمي باسمها (١) ولكنني كنت اختلف الى النعمان كثيراً ويطلعني على اسراره حتى كان ما كان من امر سجنه في خانقين فرحت الحيرة وسرت الى هناك وجعلت اتردد اليه في السجن . ألا تذكر انك كنت تراني هناك
قال اذكر ذلك جيداً وما زلت منذ رأيتك الآن وانا في افكر فيه . ثم هم عبد الله به وتعانقا وهما يبكيان اما الناسك فتحول نحو حماد وضمه وجعل يقبله ويبكي وهو يقول احمد الله اني رأيتك قبل موتي
ولبثوا برهة صامتين وكل يبكي ويمسح دموعه بكمه الا الناسك فقد كان يمسحه بطن كفه
ثم قال عبد الله اقصص علينا بقية الخبر يا حضرة النس المحترم
قال كنت اتردد اليه في السجن اصلي له وابارك وادعو له وكان كلما اجتمعت به يقول والاهتمام ظاهر على وجهه « لدي سرٌّ سأطلعك عليه في فرصة أخرى » فاهتممت لمعرفة ذلك السر وكنت اتوقع سماعه في كل زيارة وهو يسوّفه وكنت كلما سرت اليه رأيتك وعرفت اهتمامك وغيرتك عليه . وسألته عنك يوماً فقال انك مستودع اسراره وانه يثق بك وثوقاً تاماً . وما زلت اختلف اليه حتى اصيب بمرض ظنوه الطاعون ولا اظنه اياه . فزرته ولم تكن انت ساعتئذ هناك فقال لي اراني لن انقه من مرضي هذا واظن القضاء سيعاجلني واخاف ان لا املك فرصة اخاطبك بها فقلت قل يا سيدي ولعل الله شافيك بادعيه وبركة اسمه . ثم بكى وبكيت (قال الناسك ذلك وخنقته العبرات والجميع سكوت يصغون الى خبره يتطاولون باعناقهم ويحدقون بابصارهم في شفتيه وهما ترتجفان من شدة التأثير) فسكت الناسك برهة ريثما استرجع قواه ثم قال فامسكني النعمان رحمه الله بيدي وادناني منه واسرّ اليّ امراً خطيراً قال انه اسره اليك ولا ادري هل يجوز لي التلفظ به وهو سرٌّ الاعتراف

(١) المشترك وضعاً لياقوت

فقال عبد الله لقد قلت اني عارف به فلم يعد من قبيل سر الاعتراف وقد اطلعت ابنة ورفيقنا هذا عليه

فقال الناسك اما والحال على ما تقول فاخبركم انه ادناني منه وهو جالس على فراشه في ذلك السجن وقال « اني سأقضي نحبي هنا ظلمًا من قوم لا يعرفون الله ولا يشفقون على انسان وسأترك اهلي واولادي بدون ان اراهم واودعهم واني عالم ان سلطان الحيرة سيخرج من بني لخم بعد موتي فاسررت الى شعون ان يربي ولدًا لي لم يولد بعد وان يكتم نسبه عنه حتى يبلغ العشرين من عمره فيقص شعره في دير بحيرا ثم يطلعه على حقيقة نسبه قال واعترف لك اني حرضته على ان ينتقم لي من دولة الفرس » . قال الناسك فلما سمعتُ كلامه اقشعرَّ بدني واستعذت بالله من ذلك كله وقلت « يا سيدي الملك اراك تستعجل الاجل وليس ما يدعو الى قربه واما الانتقام فاتركه الى الله سبحانه وتعالى وهو الديان العظيم » . فاجابني والدموع تخنقه « لقد قضي الامر يا أبتاه وعهدت بذلك ولا ارى الرجوع عنه والله يقضي بما يشاء » قال النعمان ذلك واختلج صوته وارتعدت فرائصه ثم غاب صوابه وفيما نحن في ذلك جاء السجان يشدد النكير على من يدخل الى النعمان فخرجت ولم اعد اراه ثم ما لبثت ان سمعت بانتقاله الى دار البقاء (قال الناسك ذلك وتنهد) وعلمت واحسرتاه عليه انه لم يمت بخانقين بل نقلوه الى ساباط فمات فيها (١)

فلما سمعتُ ذلك كرهتُ الدنيا وتحققت فناءها وردت زهدًا فيها فالتجأت الى النسك واخترت منه اكثره زهدًا وهو هذا الذي انا فيه اعيش على نبات الارض وامكث عاريًا كما ترون وكنت مقيمًا في العراق مع رفاق كثيرين من الرهبان وذكر النعمان لم يبرح من ذهني يومًا واحدًا وصورته نصب عيني وهو على ذلك الفراش في خانقين وما زلت اردد كلماته الاخيرة فاحببت الاطلاع على ما فعلته انت من هذا القبيل فلم اعرف مقامك ولما مضت بضع عشرة سنة من وفاته ولم ارك ولا عرفت مقرك قلت لعلك نشأ في الفلاة بالقرب من دير بحيراء لأجل . . . . اول الميعاد . فجئت واقمت في هذا الكهف وفي نفسي شيء اريد ان اطلعك عليه ولم اسمع عنكم خبرًا ولا انا استطيع البحث لانقطاعي عن الناس فضلًا عن اني لم اكن اعرف

اسمك الجديد فكنت اتوقع ان اسمع خبراً عن شمعون الحيري فلم اسمع هذا الاسم قط

الفصل السبعون

انذر القاتل بالقتل

قال عبد الله وما الذي في نفسك وتريد ان تطلعني عليهِ . قال

قال هو خبرٌ يتعلق بوصية النعمان لك ولابنهِ فاحكِ لي ما تمَّ معك من قبيل النذر هل وفيتهُ واطلعت هذا الملك على حقيقة نسبهِ

قال عبد الله نعم يا مولاي لقد وفينا النذر بعد ميعاده . وحكى لهُ القصة من اولها الى آخرها حتى اتى على سبب مجيئهم اليهِ فقال وقد جئنا اليك لعظم ما قام في نفس مولانا الملك من الاهتمام في امر الانتقام فقلنا نطلع الناسك حوران على هذا السر لعلهُ يشير علينا مشورة تخفف ما بنا . او تهدينا سبيلاً مستقيماً

فقال الناسك لقد وقعتم على خبير وان في بقية قصتي ما يفرج عنكم كل كرب ان شاء الله

فاستبشر عبدالله وحماد وسلمان بانفراج الازمة وسرُّوا لقدومهم على هذا الناسك فقال عبد الله اخبرنا بقية قصتك بورك فيك

[illegible] كنت لفرط اهتمامي في امر الملك النعمان وامر وصيتهِ وما تتضمنهُ من الحث [illegible] لا ابرح افكر في هذا الامر نهاراً واحلم بهِ ليلاً حتى استيقظت ذات صباح و[illegible] ان امر كسرى برويز قاتل النعمان وان ابنهُ شيرويه تآمر عليهِ [illegible] سي هذه عاقبة القوم الظالمين . ثم مالبثت ان سمعت بانهُ قتلهُ (١) [illegible] يقتلهُ وشعرت براحة مست ليلة ذلك الخبر وانا هاجس في عاقبة ال[illegible] القاتل « وانذر القاتل بالقتل » فرأيت في منامي كأن الملك النعمان قادم [illegible] اصبح الناس وحدهم باسم فخفت ارؤيتهِ على هذه الصورة

---

(١) أي [illegible]

ثم سمعته يقول « لا تعجب يا يعقوب لمقتل برويز المجوسي فقد اعدَّ له الله ما هو اعظم من ذلك ليعتبر القوم الظالمون »

فقلت وقد بهرني نور وجهه فاطرقت «وماذا عسى ان يكون اعظم من الموت قتلاً بسيف البنين »

فقال لي « سوف ترى وكل آتٍ قريب » فرفعت نظري لاراه فغاب عن بصري واستيقظت من منامي مذعورًا ولم تمضِ بضع سنوات حتى وقع في سلالة برويز ما لم نسمع بمثله في غابر الازمان . اتدرون ما هو

قال عبد الله وماذا تعني

قال كان لبرويز هذا ثمانية عشر ولدًا كلهم ذوو ادب وشجاعة ومروءة منهم شيرويه الذي تولى الملك بعده فوشى رجل اسمه فيروز لشيرويه على اخوته السبعة عشر فامر بقتلهم جميعًا (١) فقتلوا صبرًا في ساحة الايوان وهو ينظر اليهم ولكن شيرويه لم يهدأ له بال بعد عمله هذا فان أختيه بوران وآزرميدخت وبخاه توبيخًا شديدًا فبكى بكاء مرًا ورمى بالتاج عن رأسه (٢) ولم يزل بقية ايامه مهمومًا دنفًا ولاقى المصائب الكبرى وفي جملتها طاعون فشا في بلاده فاباد من قدر عليه من اهل بيته (٣) واخيرًا مات هو كئيبًا حزينًا . فهل اشد وطأة من هذا الانتقام . وزارني ملاك النعمان بعد هذه الحوادث وهو يضحك وامارات البشر ظاهرة على وجهه فهممت بالوقوف للقائه فشعرت بنفسي ثقيلاً لا استطيع النهوض فابتدرني هو قائلاً « لقد انتقم لي الله من برويز المجوسي فطابت نفسي وارى وصيتي لولدي حملاً ثقيلاً على عاتقي فقد شعرت بضعف بني الانسان وعلمت الاصابة في قولك وانا في سجن خانقين » قال ذلك وتوارى عن بصري وانا راقد لا استطيع حراكًا ثم استيقظت وصورة النعمان امام عيني ويكاد النور ينبثق من وجهه

فلما بلغ الناسك الى هذا الحد من حكايته شعر كل من السامعين بانفراج الازمة وخصوصًا حماد فانه احس بحمل ثقيل زال عن ظهره

اما سلمان فكان الى ذلك الحين صامتًا لم يفه بكلمة فلما فرغ الناسك من كلامه وقف سلمان وهمَّ بيد الناسك فقبلها وقال لقد اوسعتنا فرجًا بحكايتك هذه ولكن قلوبنا

(١) الطبري (٢) ماكولم (٣) الطبري

لا تشتفي الاّ بعمل نعمله على قهر اولئك الكفرة الغاشمين

فنظر الناسك اليه وتبسم تبسماً قلّما تعوّده وقال تلك اعمال الله يا ولدي وسنسمع بذهاب دولة الفرس قريباً فلا يبقى ثم من تنتقمون منه

فلم يفهموا مغزى كلامه فقال عبدالله هل تعي شيئاً محدوداً أُوحي اليك مما في سابق علم الله فانكم معشر النساك ذوو كرامة يفتح عليكم ما لا يفتح على سواكم

قال الناسك اشير الى امر لا يحتاج الى وحي او كرامة بل هو ظاهر يفهمه كل عاقل . الا ترى حال الفرس واختلال شؤونهم واضطراب احوالهم حتى توالى على كرسي ملكهم خمسة ملوك في خمس سنين [1] وكل يعمل على الاستئثار بالسلطة وابادة الآخرين واضعفهم رأياً يزدجرد الذي يتولى الملك الآن وستزول دولة الفرس على يده فضلاً عن ظلمهم وجورهم . الا يدلكم ذلك على شيخوخة دولتهم وهرمها وقرب انقضاء اجلها وللدول آجال كآجال الناس تمرّ في ادوار تنتهي بالموت ودولة الفرس قد بلغت شيخوختها ولا تلبث ان تنقضي وكذلك دولة الروم الحاكمة على هذه البلاد

قال عبد الله ولكن لا تنقضي الاّ على يد دولة اخرى تقوم مقامها فمن سيخلف هاتين الدولتين . قال اما سمعتم برؤيا الراهب بحيراء الذي كان يقيم في ديره هنا

قالوا « كلاّ » الا حماد فانه تذكر ما سمعه من الراهب الشيخ في تلك الصومعة يوم جاءها للاهداء هند هناك . فقال بلى سمعت ذلك من الراهب الشيخ فقد احكى لي مرة ان بحيراء رأى في منامه في جبل المطر مولد برج الثور والزهرة مع قران المشتري وزحل وعلم منه انه هو الذي سيهدي ابناء جلدته بني اسماعيل (وهم العرب) الى معرفة الله وان به يقوى امرهم ويشتد ازرهم وتجتمع كلمتهم فيذلون ابناء عمهم بني اسحاق ويتسلطون عليهم مدة توافق ما اشار اليه دانيال في نبوته وانه يخرج من اولئك العرب اثنا عشرة دولة [2] أليس ذلك ما تعنيه

قال الناسك هذا ما عنيته وازيد عليه ان الرجل المنتظر قد ظهر في جزيرة العرب ودعا الناس الى عبادة الله وحده ونبذ الاوثان وقد فتح مكة وكسر اصنام الكعبة وانتشر سلطانه في الحجاز واليمن وسيفتح الشام والعراق ويزيل الدولتين ويخلف الفرس والروم في سلطتهما

(١) الطبري (٢) دائرة المعارف

فقال حماد لقد شاهدنا قوته وسلطانه باعيننا يوم فتح مكة وكان يومًا مشهودًا وبظاهر من رغبته في سبيل الله واستهلاك انصاره واصحابه في نصرته ان دولته ستغلب الدول كلها ان عاجلاً وان آجلاً

قال فلستم اذن في ما يدعو الى تكبد الخطر في الانتقام من اكاسرة الفرس وقد رأيتم ان قاتل حبيبنا النعمان قُتل هو واولاده شرّ قتلة وسينتقم العرب على دولتهم ان شاء الله

فوقع كلام الناسك على قلب حماد بردًا وسلامًا فارتاح باله من امر الانتقام المعجّل وانصرف فكرهُ الى هند وشعر بميل شديد الى رؤيتها وخاف ان تسيء الظن به اذا طال غيابه بعد يوم الشعانين وهم في اليوم الثاني منه فتظاهر بميله الى الانصراف فادرك عبدالله ذلك فقال للناسك اتأذن لنا بالذهاب على ان نغتنم الفرص في زيارتك حينًا بعد حين وهل تطلب منا امرًا نأتيه لك

قال لا اريد من هذا العالم شيئًا فقد رأيتم زهدي به ولم يكن في نفسي شيء غير رؤية ابن حبيبي النعمان لاقصّ عليهِ ما اؤتمنت عليهِ ما خاطبني به والده في الحلم واحمد الله على نيل بغيتي فاذا متُّ الآن فاني انوسد قرير العين ناعم البال

فقال عبدالله اطال الله بقاءك ونرجو ان نراك كثيرًا. قال ذلك ونهض فنهضوا جميعًا وودعوا الناسك وانصرفوا على افراسهم وكأن على رؤوسهم الطير

اما حماد فان ذهنه تفرغ للافتكار بهند واحسّ برغبته في اطلاعها على حقيقة نسبهِ فلما وصلوا الى الدير مروا بغرفة الراهب الشيخ فدخلوها ليطلعوه على ما دار بينهم وبين الناسك فلما انبأوهُ بما علموهُ من امره اطرق يفكر بغرائب الحدثان ثم قال لقد خيل لي منذ رأيت هذا الناسك انه لم يغادر خصب العراق ويقيم في هذه الجبال الجدبة الا لداعٍ دفعه الى ذلك وقد صدق ظني وسرّني انه اطلعكم على ما خفف قلقكم وهوّن عليكم ما انتم في عمل للقيام بالوصية وقد كفاكم الله مؤونة ذلك اما ما قاله عن قوة المسلمين وعظم دولتهم حتى يتغلبوا على الروم والفرس فهذا تنبئك بصحته الحوادث الجارية على ان اكثر العرب في الجاهلية لم يكونوا يقومون لدولتهم حتى ملأوا جزيرة العرب فتحًا وقتلاً ودانت لهم قبائل اليمن وعمان واليمامة ونجد وقد تمهد

حماد وسلمان فتح مكة ورأيا بطش هؤلاء العرب وقوة جامعتهم ولقد شهد من رأى حربهم في مؤتة هنا انهم كانحوا كفاح الاسود وصبروا على الحرب صبر الرجال ولكنها اول مرة لاقوا بها جند الروم ولم يكونوا في عدة كافية ولم يفوزوا والظاهر ان وقعة مؤتة كانت امثولة لهم علمتهم كيف تؤكل الكتف حتى اذا رأوا في جندهم الكفاءة اعادوا الكرة ليس على الشام فقط بل على العراق ايضًا

فقال عبدالله وهل علمت انهم حملوا على العراق

قال نعم انهم حملوا عليه حملة اذا لم يكن فوزهم بها تامًا فلا اقل من ان يؤذوا الفرس ويضيقوا عليهم

فقال حماد وكيف عرفت ذلك يا مولاي

قال اخبرني بذلك تاجرٌ من اهل مكة تعودنا لقاءهُ هنا كل عام او عامين ولي معهُ صداقة ودالة فقد مرَّ بي من بضعة ايام واطلعني على حوادث تلك الدولة بعد فتح مكة حتى الساعة فاذا هي ما يخيفنا على دولتي الروم والفرس وكنت اظنكم عالمين بها

قال عبدالله كلّا يا مولاي اننا غير عالمين بشيء من ذلك

قال الراهب اخبرني التاجر ان اولئك الحجازيين بعد ان فتحوا مكة عادوا الى المدينة وانفذوا جندًا منهم الى من بقي في جزيرة العرب لم يرضخ للاسلام فغزوا غزوات عدة فازوا بها كلها. ومن اكبر قوادهم رجل منهم يقال له خالد بن الوليد اتى بالمعجزات في حروبه حتى سماه النبي « سيف الله » ومنهم علي بن ابي طالب ابن عم النبي وهو بطل مجرب. وكذلك رجل شيخ من كبار مشيريهم اسمهُ عبدالله ابن ابي قحافة (١) لقبهُ بالصديق ويسمى ابا بكر وهو حمو النبي والد امرأته عائشة. ومنهم رجل آخر يندر مثالهُ في العالم بشدة البطش وصدق الغيرة على الحق اسمهُ عمر بن الخطاب وآخر اسمهُ عمرو بن العاص وغير هؤلاء جماعة كبيرة فتمكن بذلك من اذلال قبائل العرب حتى انهُ لم يعد يحتاج في اذلالهم الى ارسال الرجال بل كانوا يفدون عليه وفودًا يلتمسون الدخول في دينه عن رضى وطيبة خاطر (٢) فرأى الوقت اللازم لفتح الشام فعهد الى جند جندًا بقيادة رجل اسمهُ اسامة بن زيد وامره

(١) مروج الذهب (٢) السيرة الحلبية

أن يسير الى فتح الشام وفيما هو في ذلك وافاه القدر فتوفي قبل مسير الجند ولكنه خلف ابطالاً قاموا بنصرة دينه فتولى الخلافة بعد موته ابو بكر المتقدم ذكره وهو شيخ جليل القدر واخبرني التاجر ان المسلمين لما مات النبي اختلفوا في من يتولى الخلافة بعده لانهم قسمان قسم يقال لهم الانصار وقسم يقال لهم المهاجرون

فقال حماد وما معنى هذه الاحزاب هل هي مذاهب دينية كالتي عندنا

قال لا يا ولدي ان المهاجرين هم الذين هاجروا مع النبي من مكة الى المدينة يوم شدد أهله الكبير عليه هناك وتبعه من قريش اكثرهم غيرة عليه فسموا المهاجرين وأما الانصار فهم أهل المدينة الذين قاموا بنصرته لما جاءهم مهاجرًا فحاربوا معه فسموا الانصار . فكل من الانصار والمهاجرين يظن نفسه اولى بالخلافة فاختلفوا في من يتولاها حتى كادت تقوم بينهم فتنة . ويظهر من حديث صاحبنا التاجر المكي ان الفضل في فض هذا المشكل لأحد المهاجرين عمر بن الخطاب وقد ذكرته لكم الآن فهو الذي توسط في الأمر وبايع أبا بكر فبايعه الناس احترامًا له او خوفًا منه فصارت الخلافة في المهاجرين وهم من قبيلة النبي (قريش) فخليفة المسلمين الآن ابو بكر الصديق هذا (١)

ولما توفي النبي تغيرت قلوب بعض أهل جزيرة العرب ممن اعتنقوا الاسلام في حياته فارتد كثيرون منهم الى ما كانوا عليه من النصرانية أو اليهودية أو غيرهما فتهيب المسلمون لذلك واجتمعوا واوعزوا الى أبي بكر ان يعدل عن ارسال الجند الى الشام لاحتياجهم اليهم في اقماع المرتدين فأبى الا انفاذ ما أمر به النبي فارسل اسامة وجنده الى الشام . ومما أحكاه لي التاجر المكي حكاية وقعت لابي بكر هذا يستغربها كل من عاشر حكامنا من الروم أو الفرس

فقال عبدالله وما هي . قال الراهب أخبرني التاجر ان أبا بكر رافق ذلك الجند في خروجهم من المدينة وكان أسامة راكبًا وابو بكر ماشيًا فخجل اسامة من ذلك لأنه شاب وذاك شيخ فضلاً عن كونه رئيسه فطلب اليه ان يمشي هو ويركب ابو بكر فأبى الا ان يشيعهم ماشيًا ويدل ذلك على رغبة حكامهم في الخدمة لا الرئاسة وما أوصاهم به قبل عودته قوله « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا

(١) تولى الخلافة سنة ١١ للهجرة

شاة ولا بقرة ولا بعيرًا » هل سمعتم مثل ذلك من رؤسائنا لا انكر عليكم ان النصرانية تأمرنا بمثل ذلك ولكن حكامنا بدلوا الدين بعد النواة وسيعود ذلك عليهم وبالاً . قال الراهب ذلك وقد أخذت الحدة منه مأخذًا عظيماً حتى ارتجف صوته وارتعشت لحيته ثم سكت

وكان عبدالله وحماد وسلمان متطاولين باعناقهم يسمعون حديث الراهب وقد زادهم تأثرًا ما آنسوهُ من اهتمامه فقال عبدالله ان مثل هؤلاء لا بد من ان يغلبوا العالم ويفتحوا الامصار فعساهم ان يبدأوا بالعراق وينقذونا من دولة الفرس الظالمة

فقال الراهب وقد تمس الصعداء انك تتمنى أمرًا قد وقع فعلاً فان جيش اسامة هذا لم تطل غيبته لعلمه ان الخليفة احوج الى نصرته في قتال اهل الردة بعد فتح الشام فعاد بجنده وانضم الى المسلمين في حروب اهل الردة . ومما زاد الامر اشكالاً اناساً ادعوا النبوة منهم رجل اسمه اسود العنسي في اليمن فاتلف حوله حزب كبير ورجل آخر اسمه طليحة الاسدي من بني اسد في نجد وآخر اسمه مسيلمة في اليمامة وآخر اسمه ذو التاج لقيط بن مالك [1] وغيرهم من المدعين ودعاة الاحكام حتى لم تبق قبيلة من قبائل اليمن وحضرموت وعمان والبحرين واليمامة ومهرة الا ارتدت عن طاعة المسلمين وارتدوا عن الاسلام فخاف المسلمون الفشل ولكن ابا بكر تصرف بحكمة ودراية وساعده في ذلك قواده المحنكون وخصوصاً خالد بن الوليد فانه عمل أعمالاً غريبة وكذلك عمرو بن العاص وغيرهما فتصدوا في سنة كاملة حتى دانت الكذاب قبائل العرب واجتمعت كلمتهم واستقام امرهم

فقال حماد يا حبذا لو يسير خالد الذي ذكرته الى العراق

فضحك الراهب ضحكة تخللها عبوس وقال لقد اصبت يا ولدي فانه عمل ما اردته فسار خالد هذا الى العراق لفتح الحيرة وقتال الفرس [2]

فهبّ سلمان للحال وقال لحماد ألا تأذن لي يا مولاي بالمسير الى الحيرة فاني لا يهدأ لي بال ان لم أبل يدي بدم الفرس [illegible] اشفي نفسي [illegible] أو اخدم المسلمين خدمة تساعدهم في [illegible] ذلك [illegible] الفرس

فقال حماد [illegible]

(١) ابن الاثير [illegible] (٢) [illegible]

قال سلمان أما انت فقد طال غيابك عن امير غسان واميرته فسر اليها وعساي ان اعود اليكم قريباً بخبر النصر

فاغتنم حماد لامره مع هند فاغتنم وجوده عند الراهب فرصة لاستفتائه بامر الاقتران بعد حكاية الوصية ولكنه استحيى فخاطب عبدالله على انفراد قائلاً أظن انه يجوز لنا المخاطبة بأمر الزيجة أم نحن لا نزال مقيدين بالوصية

قال عبدالله دعني اسأل الراهب وآخذ رأيه فيما يشير به علينا . وتحوّل نحو الراهب فسأله فقال الراهب يظهر من خطاب الناسك انه يحلّكم من ذلك القيد وفي العدول عن الانتقام فضيلة مسيحية كما تعلمون لان ديانتنا توصينا بمحبة عدونا ومباركة لاعنينا وتحظر علينا الانتقام

فسرّ حماد لهذه الفتوى وسكت حتى اذا خرجوا من عند الراهب انفرد بعبدالله وقال له ألا ترى ان نذهب غداً الى البلقاء فاقابل جبلة وانت معي فقد فرغنا من حكاية النذر وآن لنا الاجتماع وخصوصاً بعد ان ظهر ما ظهر من رفيع نسبنا

فقال عبدالله ارى يا مولاي ان تبقي امر نسبك مكتوماً كما كان لنرى ماذا يحدث من حوادث الزمان

فاحتج حماد وقال ولماذا نكتمه وهو شرف يتسابق اليه الناس وخصوصاً انهم اعترضوا على زواجي بهند لغموض نسبي قبل [illegible] عاماً

ففكر عبدالله هنيهة ثم قال وارى مع ذلك ان لا تذكره وعلى كل حال والامر راجع اليك

وسكت حماد وكانا قد وصلا باب الغرفة وسلمان فيها [illegible] بشأن هند فتقهقر قليلاً فلما وصلا الغرفة التفت حماد ونادى سلمان فاسرع وهو يقول [illegible] الملك يا مولاي ان تأذن لي بالذهاب الى الحرب غداً [illegible] علي ان لا اشهد الاحتفال باقترانك [illegible] اعود اليكم [illegible] الله وارجو ان تذكروني في [illegible]

فقال عبدالله لحماد [illegible]

والاسرار ولا [illegible]

ووفينا النذر [illegible]

فقال حماد اذهب يا سلمان بحراسة الله ولا تقطع عنا اخبارك

فقضي سلمان ليلتة تلك يستعد للسير الى العراق وفي الصباح ودّع حماداً وعبد الله وبكى لوداعهما وسار الى الناسك يلتمس بركتهُ ودعاءه قبل المسير

فلما خلا حماد بعبدالله قال لهُ دعنا نسير الى جبلة أو هيَّا بنا الى صرح الغدير أم هناك سرٌّ يمنع ذهابنا واقترابنا ألم يأن لنا ان نخلص من العراقيل

قال لقد آن الوقت وعلم سيدي اني لم أؤخر اقترابهُ عبثاً ألم يكن في السرّ ما يدعو الى ذلك

قال بلى واني لا انسى جميلاً صنعتهُ معي يا عبدالله ولكنني اعترف لك اعترافاً صريحاً بان اطلاعي على نسبي قد قلل اسباب سعادتي واحسبني كنت اسعد حالاً يوم كنت حماد بن الامير عبدالله اما وأنا المنذر بن النعمان فاراني تعيساً يتيماً مظلوماً

قال عبدالله كنت اتوقع ذلك منك ولكني لم أرَ بدًّا من ان اقص عليك خبرًا عهد بهِ اليَّ امانة مقدسة

قال لم اقل انك اخطأت باطلاعي على حقيقة نسبي فقد فعلت الواجب على اني لما انصوّر هندًا ومصيبتي معها اسلو الدنيا ومتاعبها

قال عبد الله وزد على ذلك انك ستكون عمَّا قليل ملك غسان والغساسنة لا يقلون سطوة ونطشاً عن ملوك الحيرة فضلاً عن علاقتهم بالروم وهي دولة مسيحية وذلك خيرٌ من علاقة اجدادك المناذرة بالفرس والفرس مجوس يعبدون النار كما تعلم

فانبسط وجه حماد لذلك فقال اذهب معًا الى صرح الغدير . قال لو علمت ان جبلة هناك لذهبت معك لان من اللياقة ان ألاقيه فهي تعارونا جارلي الذهاب الى الصرح . فقال اذن اذهب انا فالتمس الك موعدًا تجتمع فيهِ بجبلة وتتم الاقتران قال حسنًا تفعل واخذ حماد يعد جواده للركوب

الفصل الحادي والسبعون

البرد والخاتم

أما هند فلم يأتِ يوم التعاهد حتى ملّت الانتظار وكانت تتوقع ان ترى

حمادًا في مساء ذلك اليوم او في صباح الغد فمضى اليوم والغد وهي تعد الساعات والدقائق وتحسب لتأخره غير حساب فلما كان اليوم الثالث أفاقت من رقادها قلقة البال فنهضت وسارت الى غرفة والدتها والتمست منها ان ترافقها الى دير بحيراء او تأذن لها بالذهاب اليه وحدها

فقالت سعدى لا أرى ان تفعلي ولا ان تعجلي فلو رأى حماد المجيء الينا لجاء فربما كان في سر والدك ما يمنعه من المجيء.

قالت ما تعنين يا أمّاه

قالت لا اعني شيئًا ولكنني لم يعجبني أمر والدك هذا فكم تدلّل وتعزّز فقد صاهرنا ولك على غموض نسبه وأكرمناه والتمسنا لقياه فلم يأتِ وها قد انقضى موعده من يوم الشعانين فلا أظن الاّ في الامر دخيلة

فانقبضت نفس هند عند ذلك وقالت لا تلومي الغائب قبل حضوره فربما منعه عن زيارتنا مرض او شاغل ذو بال واما ما اشرت اليه من تدلل والدي او كبريائه ولا أظنه في محله وليس ثمّ ما يسوغ له ذلك

وسكتتا هنيهة مطرقتين ثم قالت سعدى نعم يجب علينا ان نبحث عنه وعن سبب غيابه فلننتظر هذا اليوم ايضًا فاذا لم يأتِ انفذنا اليه رسولاً

فخرجت هند وهي هاجسة في امر حماد فلبست ثوبها وخرجت الى الحديقة تشغل نفسها بازهار الربيع وعيناها شاخصتان من بين الاشجار وقد هب عليها النسيم فتعاظم حفيف الاوراق وعلت اصوات الطيور مغردة وهند تود انقطاع النسيم وخرس الاطيار مخافة ان تحول تلك الضوضاء بينها وبين وقع اقدام حماد اذا جاءها ماشيًا بين الاشجار او تخفي صوت جواده اذا صهل عند استقبال الصرح . وفيما هي جالسة على حجر هناك تفكر في ذلك وتحدق بعينيها وتصيخ بسمعها وقد صارت الشمس في [illegible] رأت فارسًا قادمًا عن بعد عرفته من جواده وظاهر لباسه انه حماد [illegible] الى والدتها وانبأتها بقدومه ودخلتا الى قاعة الجلوس حتى جاءها خبر [illegible] سعدى للقائه ورحبت به [illegible] ودخلا الصرح وكانت هند [illegible] ودخلوا جميعًا الى قاعة الجلوس وقد [illegible] في وجه حماد [illegible] ولكنها عجبت لمجيئه وحده وارادت الاستفهام [illegible]

ابتدرته بالسؤال عن والده

فقال انه كان عازماً على المجيء معي ولكنه رأى من اللياقة ان يقابل ملك غسان قبلاً ولو كان سيدي الملك هنا لابتدأ الى والدي فيحضر حالاً

فقالت جعل الله نذركم مقبولاً هل قصصت شعرك يا والدي

قال نعم . قالت وهل سمعت الحكاية . قال نعم سمعتها . وحدثته نفسه ان يبيح بها فتذكر تحذير عبدالله فامسك ولكنه رأى سكوته عنها بالمرة تحقيرًا للسائل

اما سعدى فلم تزد على هذا السؤال تأدبًا فلما لم يجبها غيرت الحديث وسألته اذا كان يسره الخروج الى الحديقة وهو يود ذلك لعلهما قد يخلو هناك فيتعاتبان او يتغازلان

فخرجوا من باب خصوصي صغير وتخلفت سعدى في القصر توصي قيمة القصر باعداد مائدة الغداء

فمشى حماد وهند في طرقات الحديقة حتى انحدرا الى ضفة الغدير وماؤه يجري [illegible] نلألا كأنها الدرّ وقد فاحت روائح الازهار وعلت عليها رائحة زهر [illegible] الاشجار [illegible] لما هونوغراف [illegible] فاي [illegible] يتعاتبان ويتعاتبان

اما هند [illegible] حتى نظرت اليه شذرًا وهي تبتسم وعيناها [illegible] الآن [illegible] ما الذي دعاك الى التعجيل في زيارتنا اما كان الأدلّ على شوقك ان [illegible] زيارتك الى [illegible] الصبح !

[illegible] فقال تركته يوم الصبح لمقابلة والدك بشأن [illegible] الى الأحد الحديث

[illegible] وجهها وازداد اشراق وجهها وقالت لو عرفت [illegible]

[illegible] ذكر الاقتران [illegible]

[illegible]

[illegible]

فتبعها حماد وهو يقول ما بالك تفرين مني يا هند فاذا كنت تريدين التخلص من قرابتي قولي لي كما قال غيرك ان نسبي غامض فلا استحق بنت ملك غسان

فلم تجبه ولا على هذا وقد كان يتوقع ان يجرها الحديث الى حكاية السر ليخبرها بحقيقة نسبه و يرى ما يبدو منها وخاف ان تأتي والدتها فينقطع الحديث فدار نحوها حتى قابلها وجهاً لوجه وامسك يدها فاحس كلاهما بقشعريرة الحب فقال حماد لم تسأليني عن حكاية السر ما هي

فقالت له (وهي ممسكة يده تنظر اليها) يظهر ان حكاية السر عزيزة لديك لا نستحق سماعها

فادرك انها توبخه لسكوته عن سؤال والدتها فقال لا يعز عنكم شيء يا حبيبتي . قال ذلك ومد يده الى جيبه فاستخرج خاتماً دفعه اليها وقال هذا هو سرنا فانظري اليه

فتناولت الخاتم وتأملته فاذا هو مكتوب بحرف لا تعرفه فقالت انه لا يزال سرًّا اذ لا استطيع قراءته . فقال انا اقرأه لك ثم قرأ « النعمان ابن المنذر »

فلم تفهم المراد فقالت وما معنى ذلك

قال معناه ان نسبي الذي كان غامضاً عنك وعني كان مخبئاً في هذا الخاتم

فاعملت فكرها في مغزى كلامه فادركت انه ينتسب الى النعمان ولكنها استبعدت ذلك فقالت العلك تنتسب الى الملك النعمان

قال « بل هو ابي » . وجعل ينظر الى ما يبدو منها فرآها قد استغربت قوله ولا تزال في حال البغتة ولكن الاعجاب والسرور ظهرا على وجهها معاً على ان الانفة والرزانة منعتاها من اظهار البغتة فقالت ومن انبأك بهذا النسب وكيف خفي عنك الى الآن

قال لذلك حديث طويل سأقصه عليك في غير هذا المكان واذا كان الخاتم لا يكفيك فانظري الى يد ابي [illegible] وكتف [illegible] عن [illegible] العين وكن تحت [illegible]

فنظرت اليه فلما تحققت [illegible] في [illegible] ولكن الاستغراب [illegible] وبقي [illegible]

نفسها في حلم

ثم بعدها وقع اقدام من ناحية [illegible] [illegible] الى الخاتم

لخبأهُ وطلب الى هند كتمان الحديث الآن . اما هي فرغماً عن رزانتها وتعقلها ودَّت ان تطلع والدتها على ذلك الخبر

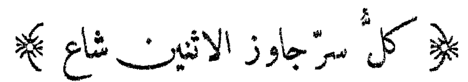
اما سعدى فانها جاءت مسرعة وفي وجهها خبر

فنظرا اليها وهما يتوقعان خبرًا فقالت لقد اطلت الغياب عليكما لاشتغالي برسول قدم من عند الملك جبلة ومعهُ هذا الكتاب ودفعت الكتاب الى هند مفضضة واذا هو من والدها يقول فيهِ « هل عرفتم شيئاً عن ولدنا حماد وهل وفى بنذرهِ فاني احب ان اراه قبل سفري الى الامبراطور فقد انفذ اليَّ رسالة بالذهاب اليهِ لمهمة ساقصها عليكم عند الاجتماع »

فقالت سعدى اكتبي اليهِ انهُ جاء وقد وفى النذر

فقال حماد ارى ان اسير الى والدي واجيء بهِ ليتشرَّف بمعرفة الملك جبلة ايضاً قالت حسنًا تفعل فعادوا الى القصر وكتبوا الى جبلة بذلك على ان يكون مجيئهُ في الغد

وكانت المائدة قد أُعدَّت فتناولوا الطعام وركب حماد الى دير بحيراء



الفصل الثاني والسبعون

كلُّ سرّ جاوز الاثنين شاع

واما هند فما زالت تفكر بما سمعتهُ من حماد عن نسبهِ وادركت والدتها فيها تغيرًا ظاهرًا على وجهها يدلُّ على شيء في نفسها تكتمهُ فلما كان المساء ذهبت هند الى فراشها فجاءتها سعدى واحدت تجاذبها اطراف الحديث حتى باحت لها بالسر فلم تكن سعدى اقل استغرابًا من هند وحسَّنت لها ان تطلعا والدها على ذلك

ولما جاء جبلة في ضحى الغد انبأتهُ بالخبر وكانت تتوقع منهُ ارتياحًا واستحسانًا ولكنها رأت انقباضاً فندمت هند على تصريحها بالسرّ وخافت ان يترتب على ذلك ما يسوءها وكان خوفها في محلهِ لان جبلة ما لبث منذ سمع ذلك الخبر منقبض النفس غارقًا في بحار التأمل لعلمهِ ان حمادًا اذا تزوج هندًا سيكون وريثهُ في الملك اذ

ليس له ذكور يرثونه فاذا كان حماد من عامة الناس بقي الملك باسم الغساسنة ولكنه رأى بعد ما علمه من انتسابه الى المناذرة ان الملك سيخرج به من الغساسنة الى المناذرة فيكون قد سعى الى زوال ملكه فارتبك في امره فلم يعد يعلم ماذا يعمل وود لو انه زوج هندًا لثعلبة ابقاء للحكم في عائلته ولكنه كتم ذلك كله وتظاهر باستغراب ما سمعه

اما هند فكانت تراعي والدها وتراقب حركاته وتنتظر ما يبدو منه وقد انقبضت نفسها واسفت اسفًا شديدًا لما فرط منها

وفيما هم في ذلك سمعوا قرقعة اللجم وصهيل الخيل عند باب الحديقة فاطلوا واذا بحماد وفارس آخر عرفوا انه والده فخرجوا لاستقبالهما فلما وقع نظر حماد على جبلة همّ بتقبيل يده فمنعه وتعانقا وتقدم عبدالله الى جبلة فصافحه وتعارفا ودخلوا جميعًا الى قاعة الجلوس واخذوا في الاحاديث المتنوعة الا حديث النذر فانه لم يدر بينهم ابدًا

فقالت سعدى لجبلة قلت لنا في كتابك ان الامبراطور هرقل انفذ يدعوك اليه فما الذي دعاه الى ذلك

قال دعاه اليه اضطراب في جو السياسة اوجب اهتمامه في التأهب للحرب عاجلاً فبغت الجميع واستعاذ حماد بالله وخاف ان يحول ذلك بينه وبين هند الى اجل بعيد فقال

وما هو ذلك الاضطراب يا عمّاه

قال لقد انبأنا الجواسيس ان العرب الذين حاربونا منذ بضع سنين على ما تعلم وعادوا عن مؤتة خاسرين قد استفحل امرهم واتسع سلطانهم وتوفي نبيهم وخلفه بعض اصحابه وجنَّد جندًا كبيرًا انفذه لقتالنا ولا يلبث ان يصل الينا قريبًا فبعثتُ الى هرقل بذلك وارسل يستقدمني اليه في حمص (١) للمحاورة بشان التجنيد وقد قيل لنا ان حملتهم هذه المرة ستكون اصعب مراسًا من الماضية وقد جاؤا فرقًا يقودهم اعاظم القواد

فقال عبدالله سمعنا انفاذ ذلك الجند الى العراق لحرب الفرس وليس للشام

قال ذلك جندٌ آخر بعثوه الى العراق في العام الماضي اما الآن فانهم عاملون

---

(١) ابن الاثير

على التجنيد الينا

فقال حماد هل يرى سيدي العم ان غيبته ستطول هناك

قال لا ادري مقدار طولها ولكني اظنها طويلة

قال نسير اذًا في خدمتك

قال لا ارى حاجة الى ذلك والاولى ان تبقيا في بصرى ربما اعود او ابعث اليكما . اما سعدى وهند وسائر اهل هذا القصر فيسيرون معي خوفًا عليهم من غائلة العدو وهم في هذا الخلاء

فلما سمعت هند ذلك خفق قلبها وكادت الدموع تتناثر من عينيها وقد ادركت ان والدها يضمر السوء لحماد

اما حماد فلم يكن اقل وجلاً وهو لا يعلم ما في نفس عمهِ وظنهُ لم يعلم بحقيقة نسبهِ ولا حدث ما يوجب نفوره ولكنهُ استعظم فراق هند بعد ان كاد يظفر بها على اثر ما قاساه من المشقة والبلاء في سبيلها

اما عبدالله فادرك ان في الامر شيئاً جديدًا اوجب هذا التباعد ولولا ذلك لم يكن ثمت ما يمنع مسيرهم معهُ حيثما سار فخامرهُ شك في كتمان حماد فنظر اليهِ بطرف خفي ففهم حماد مراده فانتبه انهُ اخطأ باطلاع هند على ذلك السر

وشاركتهم في ذلك الاحساس سعدى لانها اعلم الناس باخلاق زوجها فقالت لهُ ألا ترى ان نسير جميعاً معاً وما الفائدة من بقاء حماد هنا

قال بل ارى بقاءه هنا وساخبرك عما يمنع ذهابهُ معنا . قال ذلك وفي كلامهِ غنة الجفاء فسكتت وسكت الجميع

ثم آن الغداء فتغدوا والسكوت سائد عليهم جميعًا فلما نهضوا امر جبلة ان تعد الركائب لتسير زوجتهُ وابنتهُ معهُ في ذلك اليوم فشق ذلك على عبدالله ونفر من جبلة لما اتفق لهُ معهُ في المقابلة الاولى . وعوَّل على تحويل عزم حماد عن هند كانهُ لم يدر ما في قلبهِ من لواعج الغرام وقد فاتهُ ان الحب يتعاظم بنسبة ما يعترضهُ من العقبات

فاستشار عبدالله حمادًا في الانصراف فاجابهُ اليهِ رغماً عنهُ ووقفا فتقدم حماد الى عمهِ وودعهُ وهو يكاد يشرق بدموعهِ وودعهُ عبدالله . وسار حماد الى سعدى وهند

يودعها وكانتا قد خلتا وهند تبكي وتنحب ووالدتها تخفف عنها وتلتمس الاعذار لما ظهر من جفاء والدها فلما سمعت وقع اقدام حماد خرجت هي فودعته واعتذرت عن هند انها تشكو من صداع الم بها حتى ابكاها

فادرك حماد انها شعرت مثل شعوره وترجح لديه انها باحت بالسر ولم يلم الا نفسه لانه لم يوصها بكتمانه . فقال والدمع يتلألأ في عينيه دعيني ارى هنداً قبل ذهابي وان تكن باكية . وكانت هند قد استعدت للقائه فمسحت دموعها وحاولت اخفاء ما بها وخرجت الى حماد وهي تتجلد ومدت يدها وحماد هو ايضاً فودعها مبتسماً وتحت ابتسامه غيظ يكاد يبين ثم ودع سعدى وخرج فلقي عبدالله في الحديقة ينتظر قدومه فركبا وحماد يلتفت وراءه يودع القصر واهله وهو غارق في لجج الهواجس فسارا مدة صامتين لا يفوه احدهما بكلمة وكل منهما يفكر في امر وحماد يراجع في ذهنه حوادث ذلك اليوم ويتحرق ندماً لما باح به من امر نفسه ويشعر بخطائه نحو عبدالله لانه لم يطعه في كتمانه فظل صامتاً يتردد بين الخجل والفشل

اما عبدالله فلم يخف عنه تلك تغير حاله وفساد ما نوى وضياع ما امله ولكنه لم يذكر ذلك لحماد رفقاً بعواطفه وعول على ان يثنيه عن عزمه فيما بعد

الفصل الثالث والسبعون

ان الله مع الصابرين

فلما دنوا من الدير قال عبدالله أترى يا سيدي ان نقيم في الدير او نذهب الى بصرى

قال لك الامر ولكني ارى بصرى افضل لنا بعدما سمعناه من حملة العرب المجاورين

قال الامر اليك وعرجوا نحو الدير فباتوا تلك الليلة على نية الانتقال الى بصرى ولم ينم حماد الا قليلاً لكثرة ما تراكم عليه من الهواجس

فلما اصبحوا اخذوا يستعدون للركوب فذهب عبدالله لوداع الراهب وظل

حماد وحده يشتغل في بعض المهام وكان الوقت ضحى وفيما هو ينظر الى خارج الغرفة رأى امرأة تنظر اليه فعرفها انها الجارية التي رافقت هندًا الى الصومعة يوم التقى بها المرة الاولى هناك فبغت لرؤيتها وهرول اليها

فقالت له اتعرف بائع الحلي

فقال نعم وصلت

فدفعت اليه منديلاً كان في يدها وتحولت راجعة

فقلب المنديل بين يديه فاذا هو رسالة قد كتب فيها « لا يضعف عزمك ما رأيته البارحة من والدي واصبر ان الله مع الصابرين » فعلم انها رسالة من هند … اسرته وانفرجت كربته وطوى المنديل وخبأه ولكنه ود لو يعلم اين هي … ابيها مقيم بقربها يتنسم اخبارها فتذكر ان والدها سائر الى حمص لمقابلة … في نفسه لا اطيق … اهله معه الى هناك وربما خلفهم في اللقاء. وكان … ذلك وهو ينظر الاستعداد للمسير فجاء عبدالله فركبا وسارا الى بصرى … في منزل قرب السور عالٍ مشرف وتذكر عبدالله يوم ثعلبة وموقفه امام … بصرى وما كان من امر الخاتم ولكن ثعلبة ضعف امره … روما وهو ما زال حاكمًا هناك.

… حماد … وما زاد الحالة ثقلاً عليه لومه نفسه لانه … نصح عبدالله وتحقق ان الاختبار والمعاشرة تكسب المرء علمًا … بكلمته الى استشارة عبدالله في ذهابه … لانه كان في غنى عن تجشم تلك المشاق بنفسه … ترك هند وهو لا يستطيع ذلك … اصابه فسكت وسلم الامر لله

… ما يجول على حماد من القلق ويدعوه حينًا بعد … تلك الديار وكان حماد يسير معه … على حب هند او والدها ولم يكن … فتوحات الروم ونحو ذلك فاذا … وهو يتوقع ان يفتر ميل حماد من

تلقاء نفسهِ وكان حماد أكثر رغبة عن الخوض في ذلك الموضوع لئلاَّ يسمع نهيًا او نصحًا يبعده عن هند

فقضيا اشهرًا على تلك الحال وهم لا يسمعون الاَّ باستعداد الروم لدفع المسلمين وان جند المسلمين وصلوا ضواحي الشام واقام بعضهم في اليرموك وكان حماد كلما سمع خبرًا من هذا القبيل ازداد قلقًا حتى لم يعد يصبر على البقاء في بصرى ومال الى الخروج منها الى البلقاء لعله يعرف شيئًا عن هند وعبدالله يساعفهُ تارة بالصيد وطورًا بزيارة رومانوس صاحب بصرى وكان روماوس قد عرف منزلة عبدالله على اثر ما كان بينهما من امر تسيير عبدالله الى هرقل وما لاقاه من العنوهات . وكان يجتمع برومانوس وحماد معهُ ويخرج احيانًا الى الرَّاهب فيزوره ويدعوهُ الى زيارتهِ . اما الناسك فسار اليهِ مرة فلم يجداه

الفصل الرابع والسعون

﴿ حصون بصرى ﴾

فبينما هما ذات يوم في ضواحي بصرى [illegible] قال حماد أرى [illegible]
هذه الضواحي لو عرفها [illegible]
قال عبدالله ان [illegible]
البلقاء فالامر اليك
قال أرى [illegible] فقال خيرًا
وفيما هما يتحدثان رأيا [illegible]
فعنا فقال حماد ما هذه [illegible]
فقال عبدالله ان [illegible]
قال وماذا [illegible]
قال لا يجنيه [illegible]
[illegible]
[illegible]

فقال حماد اظنها جنود المسلمين قادمة لحصار بصرى فياليتنا خرجنا منها قبل الآن

قال عبدالله اذا لم يكن لنا بدّ من ملجاء في هذه الديار خوفًا من المسلمين فان بصرى احسن المدن واسمع الحصون واسمها يدل عليها فان لفظها في الكلدانية معناه الحصن المنيع (١) الم ترَ سورها من الحجر الصلد الذي لا تقطعه المعاول ولا تهدمه المجانيق (٢) وقد رأيت ابوابها فان منها يخرج اثنا عشر الف فارس دفعة واحدة عند الاقتضاء فالمسلمون اذا تحولوا نحو بصرى هان عليهم فتح سواها فتربصنا داخل اسوارها خير لنا من الخروج الى البلقاء او غيرها وزد على ذلك ان اهل بصرى اشداء وهم اكثر الناس حرصًا على دينهم واشدهم دفاعًا عن مدينتهم فانها اعظم مراكز التجارة بين الشرق والغرب لتوسطها بين الحجاز والعراق والشام ومصر (٣)

فبغت حماد وعظم عليه الامر وعلم ان امرهند لا بد من تأجيله ان طوعا وان كرهًا وحسب انه عزم الى البلقاء او دمشق فان جبلة وقبائل غسان وجنود الروم اصبحوا في شاغل يشغلهم عن كل شيء ولكنه اراد ان يتحقق قوة جند الروم ليرى قدرتهم على الدفاع فقال وهو يدير راس جواده نحو بصرى وعبدالله يتبعه وما هي قوات الروم في الشام وكم مدينة مثل بصرى عندهم

قال عبدالله اعلم ياسيدي ان ولاية سوريا او هي ولاية الشام تقسم الى ١٥ قسماً احدها بصرى (٤) وقوات الروم كبيرة وعددهم كثيرة ولكنهم شغلوا عن دينهم بدنياهم واستولى عليهم الانقسام. وما زالوا في هذا الحديث حتى وصلوا المدينة فرأوا اهلها في هرج والجند في حركة يستعدون للدفاع فدخلوا الاسواق فرأوا الناس مجتمعين مثنى وثلاث ورباع يتساءلون عن الجند القادم وامارات الاستخفاف ظاهرة على وجوههم

فقال عبدالله هلمّ بنا الى مرتفع عال يشرف على الاسوار وما وراءها

فساروا وقال حماد ما قولك برومانوس حاكم بصرى هل هو خائف ام مستخف

فقال عبدالله لا اظنه خائفًا وعنده مثل هذه الحصون وهذه القلاع فضلاً عن العدة والرجال ولكني اظن الولاية ستخرج من يده الى والٍ آخر جاء منذ ايام اسمه تراجان (ديرجان) [illegible] وقد سمعت الناس يتحدثون بخبر بينهما ولم ندر ما وقع بعد

(١) قاموس بوست (٢) حرب (٣) جبس جزء ٥ (٤) جبس جزء ٣

الفصل الخامس والسبعون

روماتوس وتراجان

وما زالا بالحديث حتى وصلا المنزل فاطلا من بعض نوافذه فاذا بالغبار قد بان عن جند كثيف تتقدمه الاعلام والفرسان

ولم يكد يظهر جند العرب حتى تسابق الناس الى الاسوار ينظرون اليهم وهم يهزأون بهم وبالسنتهم وسذاجة معداتهم وبعد قليل جاء روماتوس فوقف في بعض الابراج ونظر الى جند العرب وقال لمن حوله من الضباط لا ارى ان نقفل ابواب بصرى امام هذا الجند الضعيف ولكننا نخرج اليهم فنحاربهم في هذا السهل ونردهم على اعقابهم . وامر بالجند ان يعسكروا خارج الاسوار مقابل معسكر العرب (١)

ولما رأى عبدالله هذا التهور خاف العاقبة لما يعلمه من بطش العرب وصبرهم على القتال وكانت له على روماتوس دالة كما تقدم فلما علم بعزمه على الخروج بالجند حدثته نفسه ان ينصح له ان لا يفعل فسار اليه وحماد معه وقد علم انه توجه الى دار حكومته فلما وصل الدار رآها غاصة بالجماهير من رجال الحكومة وكلهم راضون عن رأي روماتوس ولكنه لم يرَ تراجان بينهم فلما رأى اجماعهم على ذلك علم انهم لن يصغوا الى كلامه فرأى ان يخاطب تراجان بالامر فسأل عنه فقيل له انه في منزله فسار اليه وكان قد عرفه واجتمع به مرارًا فاستأذن بالدخول عليه فأذن لهما فدخلا فاذا تراجان مقطب الوجه فلما دخل عبدالله رحب به تراجان وكان يعرف العربية فجلس وجلس حماد الى جانبه

فقال تراجان هل تعرفون هؤلاء التجار [illegible]

قال عبدالله [illegible] وحضرنا [illegible] غير مرة

فقال وكيف [illegible]

قال رأيتهم اشداء [illegible] ولا [illegible]

---

(١) الواقدي

قال ألا ترون الخروج اليهم خطأ

قال عبدالله بلى يا مولاي وهذا ما جئنا به اليك فكيف تخرجون اليهم فتعرضون جندكم للمالم وسبوفهم وقد كان لكم غنى عن ذلك بهذه الحصون المنيعة

فتنهد تراجان وقال هكذا اراد روماتوس ولقد نصحت له فلم ينتصح وكاني به ياتي بجند الروم الى التهلكة

وقال عبدالله اليس من سبيل الى اقناعه

قال كلّا لانه عنيد معتدّ بنفسه وسيكون مقتله عظيماً واذا قتل فانما يكون دمه على رأسه قال ذلك وهو يلاعب صليبًا من الذهب معلقًا بسلسلة في عنقه

فاآنس عبدالله في كلام تراجان لهجة الشماتة فسكت وودعه وخرج وحماد معه فلما خرجا قال حماد ما ترى من امر هؤلاء اني اخاف ان تعود العائلة على هذه المدينة فيصيبها ما يصيب اهلها

قال وما نعمل يا سيدي انخرج الى المسلمين

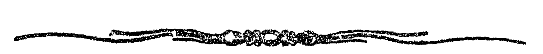
قال حماد كلّا ان خروجنا خيانة

قال ارى ان نتربص لنرى ما يكون من حربهم

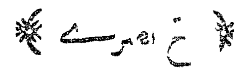
وسارا حتى اتيا المنزل وكان الليل قد سدل نقابه فاطلّا على معسكر العرب فاذا بهم قد نصبوا خيامهم واوقدوا الوقود ونصبوا الاعلام

فقال حماد ومن هو يا ترى امير هذه الحملة العالة خالد بن الوليد

قال ان خالداً في العراق على ما علمت ولكن الامراء غيره كثيرون



الفصل السادس والسبعون



... ان ... الليل ... خرج ... اقبلوا على دق الاجراس(1)

واذا ... من امامهم الصلبان ... (2)

(1) ... (2) ...

فسار عبدالله وحماد الى الاسواق فرأوا الناس يسرعون الى الكنائس يقيمون الصلاة باليونانية (١) ويدعون لجندهم بالنصر وصعد الكهنة على الاسوار بالصلبان والشموع ورشوا الجند بمياه المعمودية واخذوا يرتلون وينشدون الاناشيد المسيحية وفيهم الرجال والنساء والاولاد يدعون بصوت واحد بالنصر لجند الرُّوم

اما جند العرب فكان قائدهُ شرحبيل بن حسنة كاتب وحي النبي وجهّهُ عبيدة بن الجراح في اربعة آلاف فارس لفتح بصرى وكان عبيدة قائدًا عامًّا لجنود المسلمين في الشام ولاه القيادة العامة الخليفة ابو بكر الصديق

فوقعت بين الجيشين عدة وقائع ظهر فيها الرُّومانيون في بادىء الرأي ولم يعجب عبدالله انتصار الرُّوم لما يعلمهُ من كثرة عددهم

وفي ذات يوم التحم الجيشان وظهر الرومانيون واختل امر المسلمين حتى كادوا يعمدون الى الفرار وعبدالله يراقب حركاتهم وحماد الى جانبهِ واذا غبار يتصاعد من جهة الافق وبان من تحتهِ جند عرفوا من نوع نطاقهِ وشكل اعلامهِ انهُ جند المسلمين فعلموا انها نجدة جاءتهم ولم يلبثوا ان رأوا في مقدمة ذلك الجند رجل ضخم عريض اللحية طويل القامة تخفق فوق رأسهِ راية سوداء وهو خالد بن الوليد فاشتد ازر المسلمين واعادوا الكرة فتقهقر الروم حتى دخلوا الاسوار واقفلوا ابواب المدينة فلقي تراجان رومانوس راجعًا فذكرهُ بنصيحتهِ فغضب رومانوس لشماتتهِ بهِ

فلما علم عبدالله بما تمكن من النفور بين القائدين خاف سوء العاقبة

وفي صباح اليوم التالي برز خالد يطلب النزال فنزل اليهِ رومانوس والناس ينظرون اليهما وما يأولون اليهِ مآلهما وبعد برهة طويلة دخل منها الى معسكره ودخل رومانوس بصرى وعلى وجههِ ما يدل على تغير في مقاصدهِ وقد فترت همتهُ عن الدفاع فلحظ ذلك منهُ الذين يعرفون اخلاقهُ ولا سيما عبدالله فاجتمع بحماد وقال اني خائف من هذا الرومي فوالله لا يلبث ان يسلم المدينة لاني رأيت من نظراتهِ في النزال ما يوقع الشبهة فيهِ

فقال حماد [illegible]

(١) وكانت [illegible]

[illegible] وكانت الترتيبه [illegible]

ووحدة وشمت به لما آل اليه خروجه فشق ذلك على رومانوس وتوعد بشر ينويه له وقال له اذا كنت افرس مني فاطلبه لهم فاجابه تراجان وشتمه وعلا الخصام بينهما وتحزب رجال الروم بعضهم لرومانوس وبعضهم لتراجان وتوعدوا رومانوس بالقتل واتهموه بالخيانة وقالوا له لا نرضاك حاكماً علينا وقد ولينا تراجان فسكت ولم يجبهم وعلامات الغدر ظاهرة على وجهه ولكنه قال فلينازل هو ونرى بطشه

فلما اصبحوا نزل تراجان على جواده بعدته وسلاحه وطلب المبارزة فخرج اليه فارس عليما من لباسه وكبير جثته انه خالد بن الوليد فطال النزال بينهما والجيشان ينظران وكأن على رؤوسهم الطير فمضى معظم النهار ولم ينل احدهما الآخر بشر فرجع كل منهما الى معسكره (١)

فلما رجع تراجان الى المدينة اسرع الناس للقائه وسؤاله عما اتي من عدوه وكان اول من لاقاه رومانوس وقد نظر اليه مستهزئاً ضاحكاً كأنه ينتقم منه لشماتته به فعلاً فاتهمه وعيره بانه مخلوع فقال رومانوس سترى من هو المخلوع منا وتركه ومضى

وكان عبد الله وحماد ينظران الى ما دار بينهما فلما رأيا من رومانوس ما رأياه وسمعا تهديده خافا فقال عبد الله لقد زاد خوفي الآن من مقاصد هذا الرومي فلا اظنه الا فاعلاً شراً

فقال حماد وما شأننا في ذلك

قال عبد الله انما يعنينا من الامر المحافظة على حياتنا مخافة ان يدخل العرب المدينة فيصيبنا منهم سوء ولا ناقة لنا في الدفاع ولا جمل الا انني كنا آمن على حياتنا لو اقمنا في دير بحيرا

قال حماد وكيف نكون آمن هناك والدير لا حصن فيه ولا جند ونحن الآن في امنع مدن الشام (٢)

قال لم اقل ان الدير احصن من بصرى ولكنني علمت ان خليفة هؤلاء المسلمين لما خرج لوداعهم يوم تسييرهم الى الشام اوصاهم بالرهبان والاديرة خيراً فهم لا يسيئون راهباً ولا يجرون ديراً

(١) الواقدي (٢) جبس جزء ٢

فقال حماد لو ذكرت ذلك لفضلت البقاء في الدير ولكن السهم قد نفذ ونحن الآن في بصرى وهي في ما تراه من الحصار فما الرأي

ففكر عبد الله قليلاً ثم قال ان سر المسألة يا سيدي عند رومانوس هذا فلو استطعنا استطلاع شيء منه لعلمنا طريق النجاة فأرى ان اسير اليه الليلة لعلي اتنسم خبرًا

قال حسنًا تفعل

وقضيا بقية يومهما في المنزل وبعد العشاء سار عبد الله الى دار رومانوس وبقي حماد وحده ولم يمض الاَّ القليل حتى عاد عبدالله وعلى وجهه ملامح الدهشة

فقال حماد ما وراءك

قال لا اظن الامر الاَّ عظيماً فاني سألت عن رومانوس في منزله فقيل لي انه نائم فلم اصدق انه ينام الآن فخرجت استطلع خبره من بعض الحرس فعلمت انه خرج الى حيث لا يعلم احد وقال لي انه سار ليدبر مكيدة ويسلم بها المدينة و . .

فقطع حماد عليه الكلام قائلاً اجل انه سيفعل ذلك لان هذا القصد كان ظاهرًا على وجهه فما الحيلة

قال لا حيلة لنا ياسيدي الاَّ التربص الى الصباح فاذا تحققنا عزمه على ذلك دبرنا حيلة ننجو بها بانفسنا

وباتا تلك الليلة على مثل الجمر

وفيما هما نائمان بعد نصف الليل سمعا طارقًا يطرق الباب فهبّا من رقادهما مذعورين فسألا مَن الطارق فسمعا صوتًا يقول افتحا اني انا خادمكما سلمان

فنزل عبد الله للحال ففتح الباب واذا بيت مظلم فاذا برجل عليه لباس اهل الحجاز وفي يده مصباح وهمّا لنطلع ولكنه ناداهما اني عبدكما سلمان لا تخافا ورفع العمامة عن رأسه فبان وجهه [illegible] حماد ان كنت يا سلمان وما الخبر

قال جئت من معسكر خالد [illegible] ان [illegible] الاخبار فجئت لاعلمكم بالامر لتكونوا على بصيرة [illegible] باب منزلكم لتأمنوا من سيوفهم اذا دخلوا المدينة

فقال عبد الله بورك فيك ايها الصديق الامين فدخلوا جميعاً واوصدوا الباب وسأله حماد ان يقص عليهم الخبر فجلس وهو يلهث من التعب والبغتة وقال اخبركما بالاختصار ان رومانوس صاحب بصرى خرج الى معسكرنا في هذا المساء من مكان في السور خرقه غلمانه فاعتنق الاسلام وقال لخالد بن الوليد ارسل معي من تعتمد بتسليم المدينة فارسل معه عبد الرحمن بن ابي بكر ومئة من المسلمين فجئت انا معهم فادخلنا من خرق في السور واخذ الامير عبد الرحمن ورجاله الى قصره لسلاحهم ويسير بهم لقتل تراجان وقال انه مناظر له في الحكم وكنت لما جئت مع جيش خالد كما سأخبركم سألت الراهب الشيخ عنكما فاخبرني انكما مقيمان في بصرى ودلني على هذا المنزل فهرولت اليه لاعلمكما بحقيقة الخبر وانيت بهذا العلم انصبه فوق الباب حماية لكما وبعد قليل تسمعان تكبير المسلمين على اسوار المدينة من كل جهاتها وهي علامة بينهم وبين الجند خارجا فيهجم الجميع وتكون مذبحة هائلة

فانتبها على همته وتراى هو على يد حماد فقبلها وقال لقد وددت لو تكونون معي في معسكر هؤلاء الحجازيين لتروا ما رأيناه من شجاعتهم وصبرهم واتحاد كلمتهم واعلموا ان خالداً وحده لولم يصلوا بصرى الآن لذهب جند شرحبيل ايدي سبا وارتدوا عن المدينة خاسرين فقد كانوا في قلة وصلت لقلتهم وكثرة الروم

فقال عبد الله وهل خالد وحده من القواد العظام

قال سلمان وفيهم ايضاً عبد الرحمن بن خليفتهم ابي بكر وهو الذي جاء معنا لاستلام المدينة وغيره جماعة كبيرة من الامراء والقواد

ولقد رأيت من حربهم وبطشهم في العراق ما سأقصه عليكما ان شاء الله

فهمَّ حماد ان يسأله عن عملة خالد في العراق فسمعوا الضوضاء والصجيج وبين الاصوات صوت التكبير

فقال سلمان ان المسلمين الآن على الاسوار وعما قليل تفتح اولاد رومانوس ابواب المدينة فيدخلها المسلمون عنوة ولا ادري ماذا يكون فما لبثوا ان سمعوا صجيج الناس وبكاء النساء والاولاد ثم تحركت النخوة في قلوبهم وثارت الحمية في رؤوسهم ولكنهم لا يستطيعون الخروج خوفاً على حماد فما طال الانتظار حتى فتح المسلمون بصرى واعملوا بها السيف ثم سكت صوت السيف بعد قتل تراجان وتسليم اهل بصرى

فقتح سلمان الباب وخرجوا الى شرفة من شرفات المنزل تطل على الشارع فرأوا جثث بعض القتلى هناك بين ميت ومنازع وقد تلطخت الاثواب بالدماء المسلمون قد توغلوا في المدينة وامتلكوها ولكنهم لم يقربوا منزل عبدالله لوجود العلم على بابه

وفيما هم في الغرفة ينتظرون ما تنتهي اليه حال بصرى وقد اطمأن بالهم سأل سلمان حمادًا عما تم من امر هند فاخبره بحكاية الحبر وكيف شغلتهم الحرب عن الاقتران وعبدالله يسمع ويتجاهل حتى انتهى الى عودهم من صرح الغدير بخفي حنين وحاول حماد اذ ذاك ان يبين لسلمان ان عمه جبلة اصاب بذلك وانه لا يزال على حبه واعتباره وعبد الله لا يجيب ولا يعترض

اما سلمان فتكدر لهذا التغيير وقال وما هو موعد الاقتران يا مولاي

قال حماد لما تنتهي الحرب ويرجع جبلة واهله الى البلقاء

قال ومن يعلم متى يكون ذلك

قال الله يعلم

قال اتعلم اين هم الآن

قال اظنهم في البلقاء

قال سلمان لا اظنهم هناك فقد أنبأنا جواسيس العرب ان جبلة سار برجاله الى اليرموك لنصرة جند الروم في حرب المسلمين ولا بأس جند خالد بعد قليل ان يذهب الى هناك لنصرة المسلمين فاذا كان جبلة في اليرموك لا اظنه يترك اهل منزله في البلقاء وهي عرضة لغزوات العرب

فقال سلمان وما ظنك يا ادًا

قال اظنه يرحلهم الى دمشق ومع ذلك فاني ارى ان اسير مع خالد حتى آتي اليرموك وابحث عن جبلة واهله واعود اليكم بالخبر ولعلي اعود اليك برسالة من هند قال ذلك ونهض كأنه [illegible] يبحث بجواد فاجابه حماد بمثل اهتمامه [illegible] ما يبدو من عبدالله [illegible] الغرفة [illegible] ظاهر على وجهه [illegible] [illegible] على راية سوداء [illegible]

مقدمتهم فارس كبير الجثة عريض اللحية طويل القامة بعيد ما بين المنكبين واسع الهيكل كبير الهامة واسع العينين كثيف الحاجبين على وجهه اثر الجدري (١) وقد ركب على جواد أشهب خفيف العضل ينتقل بفارسه كالعروس ويكاد الشرر يتطاير من حدقتيه ووراءه فرسان حولهم الأعلام وهم فرحون بما اوتوه من النصر فالتفت سلمان الى عبدالله قائلاً اعرفت من هو هذا الفارس يا سيدي

قال عبدالله قد عرفته من يوم كان في وقعة مؤتة وكنت انا اسيرًا عندهم أليس هو خالد بن الوليد

قال بلى هو هو بعينه انظر الى هذه القامة وتلك الطلعة ان خالدًا يا مولاي من معجزات خالق الله لم ارَ ولم اسمع بمثل شجاعته وشدة بطشه فلا غرو اذا سموه سيف الله لقد رأيت منه اعمالاً تعجز عن فعلها الابطال في حروبه بالعراق وسمعت من اخباره ما تشيب لهوله الاطفال وقد كان قبل اسلامه هو المقدم على خيل قريش في الجاهلية واسلم في السنة الثامنة للهجرة مع عمرو بن العاص ولم يزل منذ اسلم يوليه الرسول اعنة الخيل في مقدمتها (٢) وقد علمت ان في عمامته خصلة من شعر النبي يتبرك بها · وقد شهد وقعة مؤتة بالشام وعلى اثر ما اظهره من البسالة هناك سماه الرسول سيف الله (٣) ثم كان عونًا عظيماً للمسلمين في كل حروبهم حتى تولى ابو بكر فانفذه الى فتح العراق كما علمت

فقال عبدالله وما هذه الراية السوداء

قال سلمان هذه راية ذات شأن عظيم عندهم ويقال لها راية العقاب

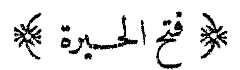
قال عبدالله اخبرنا بما فعله المسلمون في العراق هل فتحوا المداين ودوخوا الفرس

فقال سلمان لو شاءوا ذلك لفعلوا ذلك ولكن خليفتهم استقدمهم لنجدة جند الشام ولولا قدوم خالد الى بصرى لما استطاع شرحبيل فتحها فقد وصلنا اليهم وهم في شدة وجهد وضيق

---

(١) الواقدي (٢) [illegible] (٣) [illegible]

الفصل السابع والسبعون



فتح الحيرة

فقال حماد اخبرنا يا سلمان عما فتحه خالد من العراق وكيف رأيت حال الفرس

قال أما خالد فانه من اعظم القواد وخيرتهم وقد لقيته في الحيرة يوم فتحها وكان قبل ذلك قد استولى على بلاد كثيرة بلا حرب لان العراقيين قد ملوا من حكومة الفرس وظلمهم وعتوهم واحتقروهم لاختلال امورهم . فاول مكان وصل اليه خالد بلاد بانقيا وباروسما والليس فصالحه اهلها على عشرة آلاف دينار سوى حرزة كسرى وهي فريضة كان يقتضيها الفرس عن كل رأس اربعة دراهم . ثم ساروا الى الحيرة وعليها اياس ابن قبيصة كما تعلمون (قال ذلك وتنهد) فانه تولاها بعد ما قضى الله من امر مولانا رحمه الله (فتنهد حماد وعبدالله وهما صامتان يسمعان حديث الحيرة) فقال سلمان لم يكد يصل خالد الحيرة حتى خرج اليه اياس وسائر اشراف حكومته كأنهم كانوا منه على موعد واستقبلهم كما يستقبل الغالب المغلوب ودعاهم الى الاسلام او الجزية او الحرب فاختاروا البقاء على النصرانية ودفع الجزية فبلغت جزيتهم تسعين الف درهم وقد اخبرني بعض رجال خالد ممن يقرأون له القرآن انها اول جزية اخذها المسلمون من الفرس . ثم تحولوا عن الحيرة وحاربوا الفرس في عدة مواضع وفازوا في اكثرها ومما فازوا فيه وقعة الثني ووقعة الولجة ووقعة الليس[1] كل ذلك قبل وصولي

أما انا فلما ودعتكم سافرت الى الحيرة فوصلتها والناس يتحدثون بما تم من صلحها واهلها بين راض بالصلح وناقم على اياس وخصوصاً الفرس منهم فقد سمعتهم يتذمرون وكانوا بذلك كسرى أمورهم وكان يتولى عرش الاكاسرة اذ ذاك وشكوا ما كان من ضعف ابن قبيصة فبعث جنداً بقيادة رجل من [illegible] الارادة لمحاربة العرب فوصل الجند وانا في الحيرة وكان خالد قد رحل [illegible] الاخرى فهمس

(١) ابن الاثير

الفتح ثم سمع الازاذبه بقدومه فخرج اليه وعسكر عند الغريين وخرجت انا معهم وعلم ان خالدًا ورجاله قادمون بالسفن في الفرات فارسل ابنه ليقطع الماء عنهم فوقفت السفن على اليبس فتركها خالد وخرج برجاله على الخيل حتى قتل ابن الازاذبه وتقدم خالد نحو الحيرة

ومن غريب الاتفاق اننا بينا نحن في الغريين وصل ساعي البريد من المدائن يحمل كتابًا الى المرزبان فلم يكد يفتحه ويقرأ ما به الا وقد تغير لونه واستولى عليه الجزع فخاف كل من رآه ولم نعلم ما دعاه الى ذلك الا في اليوم التالي اذ شاع في المعسكر ان كسرى ابرويز قد مات فوقع الاضطراب في الجند واشتغل الازاذبه واضطرب ثم جاءه الخبر بقتل ابنه وتقدم العرب نحوه فنهض نحو الحيرة وعسكر العرب عند الغريين

أما انا فلما رأيت اختلال احوال الفرس قلت في نفسي لقد آن الوقت الذي فيه استطيع القيام بالمهمة التي جئت لاجلها فخرجت من الحيرة في ليلة ليلاء حتى اتيت معسكر العرب فالتمست الامان وان ارى الامير خالدًا فاخذوني اليه فطلبت الخلوة به فخلونا فقلت اعلم ايها الامير ان حال الفرس في اختلال لموت ملكهم واشتغالهم فيما بينهم فقد صالحك ابن قبيصة وهو على صلحك مع سائر العرب واما الفرس فهم في شاغل عن الحرب بارتباك داخليتهم واطلعته على خفايا كنت عالمًا بها فسرّ بي كثيرًا واثنى عليّ فقلت في نفسي هذه فرصة اغتنمها لحفظ ما لمولاي هناك من الاموال والعقار وكنت قد تفقدت المزارع فرأيت الجميع في انتظار عود الامير عبد الله فطيبت خاطرهم وقلت لهم اني انما اتيت الحيرة لتفقد حالهم واوصيتهم بالعناية في استغلال الارض فلما آنست من خالد ارتياحًا الى خدمتي التمست منه حماية تلك المزارع فوعدني . وقبل هجومهم على الحيرة اخذت علمًا مثل الذي تشاهده على هذا البيت ونصبته هناك وبعد قليل هجم المسلمون على المدينة ففتحوها فظللت في حماية خالد حيثما ذهب

ويسرني ان اخبركم بان سقوط الحيرة كاد يقضي على دولة الفرس كما لان الدهاقين وهم زعماء الفرس كانوا ينتظرون ما يكون من حرب الحيرة فلما علموا بسقوطها وهنت عزائمهم فخافوا وصالحوه وسألوا اليه ان يأخذ الجزية منهم وكتب الى اهل فارس يدعوهم الى الاسلام ويهددهم بالقتال ثم لم يلبث ان خرج من الحيرة قاصدًا ... زرافات ووحدانًا وخصوصًا عرب العراق وهم النصارى وبعد قليل سار خالد والينا

معهُ ففتح الانبار ثم عين التمر وغيرها وقد لحظت منهُ انهُ لم يتجرأ على المسير الى المدائن قبل الاستعداد الكافي

وبينا هو في ذلك ورد عليهِ كتاب من الخليفة ابي بكر يأمرهُ بالذهاب الى الشام لنصرة جند العرب على فتحها فخفت انا معهُ حتى اتينا بصرى وهي محاصرة وانا لا اعلم مقركما فخطر لي ان اسأل راهبنا الشيخ فاخبرني بمقامكما هنا فتربصت حتى تمَّ الفتح كما قدمت

وكان عبدالله وحماد صامتين يصغيان لما يقصهُ عليهما سلمان فلما انتهى الى هناك قال حماد وما طلك بنتيجة فتح العراق فان خالدًا لم يفتح منها شيئًا كثيرًا والمدائن لا تزال على ما هي والفرس لا يزالون حاكمين

قال رويدك يا سيدي ان العرب لا يلبثون ان يعيدوا الكرة واظنها تكون القاضية وخالد لم يأت بصرى الا مددًا لجند الشام فطب نفسًا ان الله سينتقم من اولئك الطغام

فقال عبدالله وما العمل الآن

قال سلمان ارى يا سيدي ان ابقى انا مع خالد كما كنت فاسير معهُ الى اليرموك فقد سمعت ان العرب معسكرون هناك يتوقعون قتالاً شديدًا وسيسير خالد لنجدتهم

فقال حماد واين اليرموك

قال هي على مقربة منا غربًا على نهر يقال لهُ نهر اليرموك يصب في نهر الاردن وقد عسكر العرب عند مائهِ

فتنهد حماد وفي نفسهِ شيء يكتمهُ

وادرك سلمان انهُ يفكر بهند وحيلة فقال ولا بد من ان نكون جملة مع جند الروم اذا جاء اليرموك ولا اعدم وسيلة استطلع بها مقر هند فابعث اليكم بخبرها

فقال حماد الا ترى ان نسير جميعًا مع خالد

قال سلمان لا ارى حاجة لذلك عندي ان اوعز اليك حملة بالاقامة هنا ربما ابعث اليكم فلعلهُ ان يزل ذلك وانتم بعيدون عنها فتفوت الفرصة واما اذا سرت انا وبقيتما انتما هنا فنكون قد امسكنا الحبل من الطرفين

اما عبدالله فظل صامتًا وحماد ينظر اليهِ فادرك انهُ غير راضٍ عن كلام حماد

فقال ما رأيك يا والداه

فقال عبدالله الرأي رأيك يا سيدي ولكني ارى جبلة واهل منزله لا يهمهم شيء من امرنا اقمنا في بصرى ام رحلنا عنها يدلك على ذلك سكوتهم عنا وقد اصاب بصرى ما اصابها من الحرب ولولا ذلك لبعثوا يفتقدوننا

فقال حماد ولا نظنهم علموا بما آلت اليه حالتنا وهب انهم علموا فكيف يستطيعون الوصول الينا والمدينة محاطة بالعدو . فلما رأى حمادًا يدافع عن جبلة قال لعل لهم عذرًا وسكت

ثم خرج سلمان الى معسكر خالد ليرى ما تمّ عليه الامر فرأى العرب قد ولوا روماس بصرى [1] واخذوا يستعدون للمسير فعاد فاخبر عبدالله وحمادًا بذلك وهمّ بوداعهما فقال له حماد لا ارى ان اوصيك بانفاذ خبر جبلة الينا على عجل واطلاعنا على ما تمّ لاهل بيته واين هم

قال سمعًا وطاعة وسيأتيك الخبر سريعًا ثم ودعهما وخرج

ولم يكن سلمان اقل من حماد قلقًا على هند وقد شارك عبدالله في ارتيابه من جبلة فعوّل على استطلاع كنه الامر وعاد ذلك الى سيده وفي اليوم التالي اقلع خالد وشرحبيل وجندهما الى اليرموك

الفصل الثامن والسبعون

وقعة اليرموك

ولما تكامل جمع المسلمين في اليرموك بلغ عددهم ٣٦ الفًا منهم تسعة آلاف بقيادة خالد فيهم الف من الصحابة من جملتهم مئة ممن شهدوا وقعة بدر الكبرى [2] ومن قوّادهم ابو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وشرحبيل وابو سفيان بن حرب وكانت الحرب بينهم وبين الروم قبل قدوم خالد متساندًا اي كل امير على اصحابه لا يجمعهم احد [3] وكان ابو بكر قد ولى خالدًا القيادة العامة على جند الشام كافة والناس يحسبون

(١) الواقدي (٢) ابن الاثير (٣) الواقدي

ابا عبيدة بن الجراح اولى منه بتلك القيادة فوقع بين المسلمين اختلاف من هذا القبيل فلما جاءهم خالد حاول جمع كلمتهم وقد ادرك ما في نفوس بعضهم فوقف في الجماهير وقد اجتمع الامراء حوله وقال « ان هذا يوم من ايام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي اخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم فان هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وانتم متساندون فان ذلك لا يحل ولا ينبغي وان من ورائكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما تؤمروا به بالذي ترون انه رأي من واليكم ومحبته » قالوا « هات فما الرأي » قال ان ابا بكر لم يبعثنا الا وهو يرى انا سنتياسر ولو علم بالذي كان ويكون لما جمعكم ان الذي انتم فيه اشد على المسلمين مما قد غشيهم وانفع للمشركين من امدادهم ولقد علمت ان الدنيا فرقت بينكم فالله الله فقد افرد كل رجل منكم ببلد لا ينتقصه منه ان دان لاحد من الامراء ولا يزيده عليه ان دانوا له . ان تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم هلموا وان هؤلاء قد تهيأوا وان هذا يوم له ما بعده ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها فهلموا فلنتعاور الامارة فليكن بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى تتأمروا كلكم ودعوني اتأمر اليوم » فأمروه وهم يرون انها كخرجاتهم وان الامر لا يطول (1)

وعجب سلمان لجسارة خالد وحزمه ولكنه اخذ منذ وصوله يحاول الخروج الى معسكر الروم ليرى جبلة او يسمع خبراً عن هند فصعد الى ربوة على ضفة ذلك النهر ونظر الى معسكر الروم فرآه قد ملأ الفضاء وفيه الرايات والصلبان فامعن نظره فيه فرأى معسكر الغساسنة منفصلاً الى جانب وشاهد راية جبلة وفسطاطه في وسطه فحدثته نفسه ان يسير اليه ولكنه خاف ان يستغربه المسلمون اذا رأوه فيوقعوا به شراً ورأى ان يذهب اليهم بحيلة الجاسوسية فعوّل على ان يخاطب خالداً في ذلك فسار الى فسطاطه فرأى الامراء يتزاحمون فيه وقد اجتمعوا للمفاوضة في امر الحرب فهاب الدخول مخافة ان يسمع اسراراً فصبر حتى انفض الجمع وبقي خالد وحده فاستأذن بالدخول عليه فاذن له فدخل وقبل يده فقال خالد ما حاجتك يا سلمان قال هل تأذن لي يا مولاي بكلمة تقال فيما بيننا

(1) ابن الاثير

قال قل

قال هل بينكم من يستطيع اخبار العدو ويعرف قواتهم ومواقعهم وعدد جندهم

قال لقد علمنا ولكني ارى انك اجدرهم بذلك

قال اني عبد مطيع فاذا رأيت ان اسير في الامر فعلت

قال سر وافعل

فقبل يده وخرج متزيا بزي الغسانيين وسار حتى اختلط بالغسانية فالتقى بأناس عرفهم في البلقاء فظنوه كان معهم من ذي قبل فاستطلعهم خبر هند فعلم انها مع والديها في دمشق ثم استخبر عن قوات الروم فعلم انهم في كثرة وفيهم عشرون راية بعضها لاهل الدولة وبعضها للنجدات من الارمن (١) والسريان والمصريين وان حملة الجند ٢٤٠ الفا ما عدا العرب المتنصرة من الغساسنة وغيرهم (٢) فوقعت في نفسه من ذلك رهبة وخاف انتصار الروم وتردد في الرجوع الى خالد ولكنه قال في نفسه اذهب الآن الى المسلمين فاذا رأيت منهم تضعضعا عدت الى الغساسنة

فلما سدل الليل نقابه عاد الى معسكر المسلمين واطلع خالدا على حال الروم

فقال خالد لا يهمنا امر كثرتهم وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله

فقال سلمان ليست القوة في الكثرة يا مولاي ولكنها في الاتحاد فقد علمت ان هؤلاء الجند منقسمون فيما بينهم لاختلاف اغراضهم ومشاربهم ثم ودعه وخرج وهو يفكر في طريقة يوصل بها خبر هند الى حماد

فلما أصبح الصباح سمع التكبير والاذان في معسكر المسلمين وقد قام الناس وقعدوا واخذوا يتأهبون للقتال فوقف يطل الى كتائب نظامهم فرأى خالدا قد وقف في وسط الامراء والفرسان ينظم الجيوش كراديس فقسم الجند ٣٦ كردوسا وجعل قلب الجند كراديس واقام فيه ابا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن ابي سفيان وجعل على كل كردوس رجلا من الشجعان وفيما خالد يعبي الجند على هذه الصورة سمع بعضهم يقول ما اكثر الروم واقل المسلمين فقال خالد بل قل ما اقل الروم واكثر المسلمين انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان فوالله لوددت ان الاشقر (يعني فرسه) براء من توجيه

(١) الواقدي (٢) ابن الاثير

وانهم اضعفوا في العدد وكان الاشتر قد حمي في مسيره ثم امر ان يبدأوا القتال فحاذر سلمان ان تصيبه نبلة فتنحى وهو خائف ان تعود الغائلة على المسلمين لقلتهم وكثرة الروم فوقف في منعطف يؤدي الى جند الغساسنة فرأى على مقربة منه رجالاً من جند المسلمين وقوفاً فتأملهم فرأى بينهم ابا سفيان وكان قد عرفه في بعض اسفاره مع سيده عبد الله الى الحجاز وتذكر ما كان من حديثه في بيت المقدس وكان قد رآه يوم اعتناقه الاسلام عند فتح مكة فاستغرب وقوفه هناك والحرب متشبة فدنا منه وابو سفيان لا يراه فسمعه يخاطب رفقاءه فيقول « يا مشيخة قريش ومهاجري الفتح (وهم الذين هاجروا يوم فتح مكة واسلموا) لا يهمنا من هذه الحرب الا الانحياز الى الغالب فاذا غلبت الروم كنا معهم واذا انتصر المسلمون فانا معهم » فعجب سلمان لكلامه وعلم انه انما اسلم خوفاً على حياته لا رغبة في الاسلام ولكنه ظلّ في ريب من هذا الامر فاصاخ بسمعه لما يقوله بعد ذلك فرآه اذا تقهقرت العرب وتقدم الروم قال « ايه بني الاصفر » (يعني الروم) واذا مالت الروم وتقدمت العرب قال « ويح بني الاصفر » (1) ولم يكد ابو سفيان يتم كلامه حتى صاح باعلى صوته آه فنظر واذا بنبلة اصابت احدى عينيه ففقأتها فقال سلمان في نفسه لقد نال هذا الرجل جزاءه . وخاف سلمان البقاء هناك لئلا يصاب بنبلة فسار الى ناحية اخرى والحرب قد حمي وطيسها فرأى بريداً قادماً من جهة البلقاء فعرف صاحبه وكان قد عرفه في الحجاز وعلم انه بريد قادم من المدينة بخبر جديد فتفرس سلمان في صاحب البريد فرآه مسرعاً وعلى وجهه امارات الغمة فناداه فوقف فقال سلمان هل تريد الامير خالداً قال نعم اين هو قال في الميمنة ولكني اوصلك الى فسطاطه فسارا معاً وفيما صاحب البريد على جمله ومحركاً له اذ رأى جند العرب ظافراً لم يتمالك ان قال « ألم يكن مقدوراً لابي بكر ان يتمتع بهذا النصر قبل موته » فقال سلمان وهل مات ابو بكر

قال نعم وقد مات وانا قد جئت بخبره

فقال سلمان ومن خلفه

قال ولي الامر عمر بن الخطاب وهو رجل ذو بطش وقوة وحزم

(1) ابن الاثير

فبغت سلمان لذلك الخبر وقال الا تظن وفاته تؤثر شيئًا في مجرى الاحوال

قال كلاّ ولكن عمر يفضّل ابا عبيدة على خالد وقد اقلقني عزل خالد عن قيادة هذا الجند وتولية ابي عبيدة على اني لا ارى ان اعلمهم الخبر قبل انقضاء الواقعة لئلاّ يفشلوا او يختلفوا فيما بينهم . فقال سلمان حسنًا تفعل وقل لي ما الذي حمل الخليفة عمر على نقل القيادة الى ابي عبيدة العلة اشجع من خالد

قال كلاّ ولكن ابا عبيدة رجلٌ كريم الاخلاق لينٌ سهلٌ حليمٌ رؤوف وهو اقدم في الاسلام من خالد والقيادة تحتاج الى حكمة وتأنٍ اكثر من حاجتها الى الشجاعة

قال سلمان نعم ولكني علمت ان النبي سمى خالدًا « سيف الله » أفليس هو احق بالقيادة . قال ولكنه (صلعم) سمى ابا عبيدة « امين الامة » وكان يحبّ صحبته والالتصاق به (١) والحق يقال ان كليهما اهل ولكن للخليفة رأيًا في ذلك فانه ساخط على خالد بسبب حكاية وقعت منه في ايام ابي بكر

فقال سلمان هلمّ بنا نجلس في مأمن ريثما تنقضي الحرب لانهم اذا رأوك لا يفكون من حولك حتى تقص عليهم موت ابي بكر وعزل خالد

فاستحسن صاحب البريد الرأي وخرج مع سلمان الى شجرة وارفة وراء جذعها واحد سلمان يستفهمه عن كيفية موت ابي بكر وولاية عمر

فقال صاحب البريد لما احس ولاة الخلافة ابو بكر بدنو الاجل وأسماؤه عليه دعا كاتبه عثمان بن عفان وقال له اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد ابو بكر بن ابي قحافة الى المسلمين اما بعد . . . » ثم اغمي عليه وكان عثمان وسائر الصحابة لا يرون احق في هذه الخلافة من عمر بن الخطاب لاشتهاره بالعدل والحزم فاتمّ الوصاية عثمان من عند نفسه وكتب « اما بعد فاني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرًا » ثم افاق ابو بكر من غشيته فقال لعثمان اقرأ فقرأ ما كتبه فكبّر ابو بكر وقال « اراك خفت ان يختلف الناس ان مت في غشيتي هذه » قال « نعم » قال [illegible] ولما قضي

[illegible]

وفيما هما في الحديث واعينهما شائعة نحو المعركة رأيا جند الروم قد تقهقروا وعبر العرب خندقهم واستولوا على اسلابهم وفرّ الروم ومن نصرهم من العرب المتنصرة وغيرهم وتمّ النصر للمسلمين ولم يمض الا القليل حتى عاد المسلمون بالغنائم من الاثاث والحلى والاسلحة وغيرها . فمشى سلمان وصاحبه نحو فسطاط خالد فرأياه عائدًا وحوله الامراء على غير نظام لما دار بينهم من احاديث النصر

فحالما وقع نظر خالد على صاحب البريد عرفه فبعث اليه فتبعه الى الفسطاط فاذن بدخوله فدخل وانبأ خالدًا بموت ابي بكر وخلافة عمر وعزله وولاية ابي عبيدة فاوصاه خالد بكتمان الخبر عن كل انسان (١)

اما سلمان فانه عاد الى مشاغله بامر هند وشق عليه انهزام جبلة وخاف ان يكون قد قتل ثم علم ببقائه حيًا فمال بكليته للذهاب الى حماد يطلعه على ما علمه عن هند ولكنه اراد استطلاع نية المسلمين ووجهة سيرهم قبل ذهابه فقضى ايامًا يبحث عن ذلك فعلم انهم عازمون على دمشق فخاف على هند لعلمه انها فيها وودّ لو يعلم اين والدها وما هو عازم عليه بعد شخوص العرب الى الشام فعوّل على استطلاع ذلك من جبلة وقد علم بانهزامه فخرج من معسكر العرب يبحث عن جهة مسيره فقيل له انه سار في جملة منهزمي الروم الى حمص والامبراطور هرقل فيها فقصد حمص

فصل الثامن والسبعون

خبر مفاجئ

تركنا حمادًا وعبد الله في بصرى ينتظران عود سلمان بخبر اليرموك ومقام هند . وحماد كثير القلق لا يرتاح له بال [illegible] من اصلها او يقتل يهدده على [illegible] وفهم له انها خرجت من بيته وذهبت [illegible] الامراء [illegible] في نفسه

(١) ابن الاثير وابن خلدون

ميلاً الى المسير اليها واستطلاع ما في نفسها من قبلهِ ولكنهُ لم يكن يعرف مقرها فلبث ينتظر رجوع سلمان بالخبر اليقين

وكان يتلاهى بالخروج للصيد ونحوهِ وهو لا يهدأ لهُ بال وادرك عبدالله فيهِ ذلك وهو يتجاهل وينتظران يسر حماد من هند ويلتمس العدول عنها من تلقاء نفسهِ وقد فاتهُ قول القائل

واذا تألفت القلوب على الهوى ❋ فالناس تضرب في حديد باردِ

فكان يصاحبهُ الى الصيد ويكثر من محادثتهِ في شؤون مختلفة الاَّ مسألة هند فانهُ لم يكن يفقهها قط . ولم تمض ايام حتى سمعا بانهزام الروم في اليرموك فصارا يتوقعان سرعة رجوع سلمان

ففي ذات يوم نهض حماد صباحاً واخذ يتأهب للخروج الى الصيد وفيما هو يفتش بين اثاثهِ وسلاحهِ عثر على الدرع التي البستهُ اياها هند يوم السباق ولم يكد ينظر اليها حتى اختلج قلبهُ لما مرَّ في ذاكرتهِ من حوادث الحب فعظم عليهِ احتباسهُ في بصرى لا يعلم مقرّ حبيبتهِ مع ما ظهر لهُ من جفاء والدها ونفور والدهِ (عبدالله) وما قام من الحروب مما زاد الامر اشكالاً . فوقف برهةً ينظر الى الدرع ويقلبها بين يديهِ وهو غارق في بحار الهواجس حتى غلب عليهِ اليأس وكادت الدموع تتناثر من عينيهِ وكان عبد الله غافلاً او متغافلاً عن ذلك وقد خرج لقضاء حاجة لهُ وترك حماداً في الغرفة وحده

ولم يكد حماد يخلو بنفسهِ حتى سمع صهيل جواد غير جوادهِ وغير جواد عبد الله فانتبه بغتةً واطلَّ من النافذة فاذا براكب ترجَّل ودنا من الباب وهو في ريب من امر اهلهِ فامعن حماد نظرهُ فيهِ فلم يعرفهُ فلاقاهُ الرجل بالباب وقال هل هنا منزل الامير عبدالله العراقي

قال حماد نعم هو هنا

قال واين ابنهُ الامير حماد

قال هو انا ماذا تريد

قال ان بعض الناس في حاجة اليك ينتظرونك في سفح الجبل

فلما سمع حماد ذكر الامير خفق قلبهُ واستبشر بقدوم القادم وتاق للوصول الى سائر

الى هناك على عجل فودعه وركب وعاد حالاً

فاسرع حماد في لباسو قبل ان يأتي عبدالله ولكنه لم يكد يخرج حتى لقيهُ عبدالله فاستغرب ركوبهُ قبلهُ فاعتذر بانهُ يود الخروج لزيارة الدير وحده فاذعن لهُ وهو في ريب من الامر

فهمز حماد جواده ولم يقف الاَّ امام باب الدير فرأى هناك فرساً عرف انهُ من افراس اهل صرح الغدير فاستبشر ودخل الدير يطاول بعنقهِ ويحدق بعينيهِ فرأى امرأة عرفها لاول وهلة انها من خادمات هند وهي التي حملت اليهِ الرسالة الاولى قبل ذهابهِ الى بصرى

فحيتهُ وهمت بتقبيل يدهِ فرد السلام ولسان حالهِ يقول قولي ما عندك فمشت امامهُ الى غرفة هناك فتبعها فلما وصلا الغرفة مدت يدها الى اثوابها واستخرجت منديلاً دفعتهُ اليهِ وهي تقول ان سيدتي هنداً تسلم عليك وقد ارسلت اليك هذا المنديل . فقلب المنديل بين يديهِ واذا فيهِ كتابة كتبت بالدم بالاحرف السطية وهي قولها « لم نكد نفرح بنجاتنا من ذلك الثعلب حتى عاد الى مصاحبة والدي وعاد الى مطلبهِ الاول وانت تعلم ان الموت اهون مراساً عليَّ من ذلك فادركني قبل فوات الفرصة فاني مقيمة في دمشق ولعل حامل كتابي ان يزيدك ايضاحاً » ولم يفرغ من قراءة هذه الكلمات حتى ارتعدت فرائصهُ والتفت الى المرأة يستطلعها الخبر فقالت ان مولاتي هنداً مقيمة في دمشق في منزلٍ قرب كنيسة مريم وقد بعثتني بهذا الكتاب واوصتني بان اسلمهُ اليك يداً بيد في هذا الدير فشددتُ الرحل حتى اتيت اليك من بصرى وهذا هو الكتاب

قال نعم قد قرأتهُ ولكني لم افهم حقيقة المراد فهل تعلمهُ الآن في دمشق

قالت كلاَّ بل هو مع سيدي جبلة في جند الروم بحمص

قال وما الذي جمعهُ بالامير جبلة وقد كنت اعلم انهما متخاصمان

قالت نعم انهما كانا متخاصمين ولكنهما تصافيا بعد انكسار جنودهما في واقعة اليرموك

فقال حماد وكذلك يتصافى العدوَّان اذا اصابهما نصيرٌ معاً . وماذا جرى بعد ذلك

قالت وكنا مقيمين في دمشق مع سيدتي هند ووالدتها وسائر الخدم كما ذكرت لك فلم ندرِ الا وكتاب وارد من سيدي الامير جبلة الى سيدتي الاميرة سعدى ينبئها

بقرب قدومهِ مع ثعلبة الى الشام لعقد اقترانهِ على هند في اثناء مهادنة العرب فلم تتمالك سيدتي عند تلاوة الكتاب عن ان تخبر هندًا بهِ فاسرّت سيدتي هند اليّ واقعة الحال وبعثتني في هذه المهمة واوصتني ان القي اليك الامر كما وقع لتتدبر في انقاذها فانها تفضل الموت على الاقتران بهِ

ولما سمع حماد ذلك الحديث ثارت الحمية في رأسهِ واتقدت نيران الغيرة في قلبهِ وودّ لو ان لهُ اجنحة ليطير الى دمشق حالاً ولكنهُ لبث برهة يفكر ثم قال للمرأة واين ثعلبة الآن

قالت هو مع سيدي جبلة بجوار حمص ولكنني اظنهُ اقلع قاصدًا دمشق

فازداد قلقًا واخذ يخطر في الغرفة ذهابًا وإيابًا ثم قال لها ارجعي الى سيدتكِ واخبريها اني قادم اليها على عجل وربما وصلت دمشق قبلكِ

قالت وماذا تؤكد لها اني لقيتك وقصصت عليك الخبر ألا تذكر لها علامة تبين لها ذلك

ففكر قليلاً ثم قال قولي لها ان صاحب البُرد والخاتم قادم اليكِ وهذا يكفي

فودعتهُ وركبت وركب الخادم ورحلا

اما هو فوقف يفكر في حالهِ مع عبد الله وتردد بين ان يعود الى بصرى فيخبره بحقيقة الخبر او ان يسير توًّا الى دمشق فلبث برهة في حيرة حتى خاف ان تفوتهُ الفرصة فذهب الى غرفة الراهب الشيخ واذا هو متكئ بجواره فرحب بهِ وسألهُ عن امره فقال لقد جئتك بوصية ارجو ان تبلغها الى الامير عبد الله

قال وما ذلك

قال اذا اتيتهُ قل لهُ اني سرت الى دمشق لامر هامّ وساعود اليهِ واذا استبطأني فليدركني هناك

قال سافعل ذلك ان شاء الله

وودّعهُ حماد وخرج على جواده قاصدًا دمشق

الفصل الثمانون

هند في دمشق

فلنترك حمادًا سائقًا فرسهُ الى دمشق ولنذكر ما تمَّ لهند بعد سفرها من صرح الغدير فقد تركناها بعد وداع حماد حائرة منقبضة النفس وقد خافت ذهاب آمالها ادراج الرياح لما آنستهُ من جفاء والدها على اثر ما سمعهُ عن نسب حماد . فلم يكد يتوارى حماد عن عينيها حتى احست بانخلاع قلبها فانزوت في غرفتها وعادت الى البكاء وكان والدها في شاغل بأمر اهل القصر بالاستعداد للمسير في صباح الغد فجاءت سعدى الى غرفة هند وقد ادركت حالها وتوقعت بكاءها فاخذت تطيب قلبها وتؤَسيها بالوعود وهند لا تزداد الاَّ بكاءٍ فقالت سعدى لا يفيدنا البكاء يا ولداه وانما نحن في موقف حرج لا بد لنا فيهِ من الحكمة فاصبري وتبصري عسى ان تكون العاقبة خيرًا

فتنهدت هند وصاحت بها « دعيني يا اماه لقد كفاني ما قاسيتهُ من انواع الشقاء وما سمعتهُ من الوعود فقد كان عذركم في رفضهِ جهلكم نسبهُ ثم قلتموهُ على غموض نسبهِ فما بالكم وقد علمتم بشرف اصلهِ تترددون أليس ذلك لسوء حظي وللشقاء الذي كتبهُ الله عليَّ » قالت ذلك واوغلت في البكاء فبكت سعدى لبكائها ولكنها تجلدت وطيبت خاطرها وقالت لها اسكتي لئلاَّ يسمع والدك صوت البكاء فيزيد الخرق اتساعًا اما انا فاني ضامنة لك ما تريدين فان حمادًا لك وانت لهُ فلا تجزعي واخذتْ تخفف عنها حتى سكن روعها ومسحت آماقها ولبثت صامتة وقد ذبلت عيناها وتعكرتا وتكسرت اهدابها واخذت تراجع في ذاكرتها ما مرَّ بها من الاهوال بسبب الحب وكيف كانت قبل ذلك السباق خالية الذهن ساذجة لا تعرف متاعب الهوى وكانت تتعزَّى بما ترجوهُ من لقيا الحبيب ولكنها تذكرت انهُ خرج من الصرح منقبض النفس منكسر القلب فكتبت اليهِ ذلك الكتاب الى دير بحيراء تلتمس صبره

وفي اليوم التالي سافر اهل الصرح جميعًا الى البلقاء فاقاموا هناك الاَّ جبلة فانهُ سار الى الامبراطور هرقل في حمص فامرهُ باعداد الرجال من غسان وغيرهم وكان

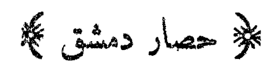
ثعلبة قد ضعف امره واهملة جبلة لما قام بينهما من الضغائن بعد وفاة الحارث ولكنه اصبح بعد ما عرفه عن نسب حماد ميالاً الى مصافاة ثعلبة لعلة يتزوج هندًا فينجي ملكه من الخروج الى المناذرة . فلما احتاج الى الرجال من غسان اضطر الى استقدام ثعلبة فكتب اليه فجاء برجاله وانضم الى رجال جبلة وهما على ظاهر الفتور ثم علم جبلة بقدوم المسلمين الى اليرموك وبصرى فخاف على اهله في البلقاء فاستقدمهم الى دمشق واسكنهم بيتًا مع نساء بعض اصدقائه من رجال الروم هناك بقرب كنيسة مريم . واشتغل هو في حرب اليرموك وغيرها فلما قضي على جنده الانهزام في وقعة اليرموك شعر بزيادة الميل الى مصافاة ابن عمه ثعلبة وذلك طبيعي في جسم العمران بل هو جارٍ في سائر انواع الحيوان فاذا رأيت ديوكًا في معرك تتخاصم وتتضارب وقد عسر عليك مصافاتها اجمعها في قفص وامنع الطعام والماء عنها فلا تلبث ان تراها قد اصطلحت وتصافت . كذلك الناس فانهم لا يزالون في خصام وتعارك حتى يصيبهم شر ويقعوا جميعًا في مصيبة واحدة فتراهم قد تآلفت قلوبهم واصطلحوا عن الموافق . فلما اصيب الغساسنة في اليرموك اجتمع جبلة وثعلبة للنظر في احوال الجند وكان ثعلبة قد ذاق مرارة الجفاء وصغرت نفسه فلما رأى من ابن عمه مؤانسة وتقربًا زاده رقة واستئناسًا فاجتمع قلباهما . ولم تطل المصافاة قبل ان جرتهما الى حديث الاقتران فعاتبا وتشاكيا لما مرّ من الجفاء بينهما واعتذر كل منهما ذاكرًا اخلها لعدوه وكان ثعلبة اكثرهما سرورًا بذلك لانه اصبح بعد موت والده ضعيفًا مرذولاً وقد علم انه اذا تزوج هندًا كان الوارث الوحيد لرئاسة غسان جميعًا وكان قد درس اخلاق عمه جبلة وعرف اميال قلبه فتظاهر بما يطبق على ميله حتى حبب اليه مصاهرته ووعده بها

اما جبلة فانما حمله على مصاهرة ثعلبة استبقاء الحكومة في بني غسان وانقاذها من المناذرة ولولا ذلك لما رأى في ثعلبة ما يقربه منه او يفضل به حمادًا

فلما تحقق ثعلبة رضاء عمه عنه سأله عن يوم الاقتران فقال جبلة ارى ان يكون بعد انقضاء الحروب بيننا وبين المسلمين

فقال ثعلبة ولكن تلك الحرب لا حدّ لها يعرف وما ادرانا متى تنقضي وكيف يرتاح بالنا واهل البيت منفيون في دمشق ونحن لا نستقر على حال فاذا رأى عمي ان نستعجل الامر ان كان ذلك اقرب الى جمع الشمل

فاجابة جبلة الى مرامها وكانا بجوار حمص بعد وقعة اليرموك فكتب جبلة الى سعدى يبلغها نتيجة ما دار بينه وبين ثعلبة وبين الوجه الذي حمله على اختياره دون حماد فقال « وفي زواج هند بثعلبة نستبقي الملك في الغساسنة ونخلصه من خطر الوقوع بين ايدي المناذرة » واوصاها بالذهاب لعقد الاقتران قريبًا ولم تتم سعدى قراءة ذلك الخبر حتى تناثرت الدموع من عينيها لما تخشاه على هند اذا علمت بما نواه والدها واعادت تلاوة الكتاب بتمعن فادركت سبب تغير زوجها على حماد وندمت على ما فرط منها من اطلاعه على حقيقة نسب حماد وشعرت انها هي السبب في كل هذه المتاعب فرأت انها مطالبة شرعًا بانقاذ ابنتها من مخالب ثعلبة فضلاً عما في نفسها من الاحتقار له فاخذت تفكر في طريقة تصل بها الى ذلك والوقت ضيق لا يأذن بالصبر والتؤدة وكانت هند تلاحظ فيها ارتباكًا وتسألها عن السبب فتتجاهل وما زالت سعدى في مثل ذلك يومين كاملين حتى حانت فرصة فرأت اخيرًا ان تستقدم حمادًا على عجل وهند لا تعلم فاذا حضر شاورته في الامر . فكتبت الى حماد الكتاب الذي تقدم ذكره بحبر من الدم استحثاثًا له على القدوم وبعثت الكتاب مع خادمة يعرفها حماد كما تقدم



الفصل الحادي والثمانون

﴿ حصار دمشق ﴾

ولم يبعد حماد عن بصرى حتى ادرك صعوبة المسير الى الشام وحده وهو لم يطرق تلك البلاد الا قليلاً . واقرب الطرق بين هاتين المدينتين تمر في حوران والجيدور وكلا الصقعين وعر خطر وهناك طرق اخرى تختلف بعدًا ووعورة فلم ير بدًا من استصحاب الدليل فاختار دليلاً من سكان بصرى فسار متمهلاً يقطع الجبال [illegible] والسهول والغابات لا ينام الا قليلاً [illegible] الطريق فبعد بضعة ايام [illegible] على غوطة دمشق [illegible] من ورائه فظهرت له [illegible]

المشمش والرمان واللوز والبرتقان والخوخ والسفرجل والكرم وسائر اصناف الفاكهة تجري بينها الانهار وتناغي فوقها الاطيار وظهر لهُ من وراء تلك الغوطة ابنية تتوارث وراء الغبار . فوقف ينظر الى ما حولهُ وقد تعب جواده فسأَل دليلهُ عن تلك الابنية وهذه الغيطان فقال انك يا مولاي في غوطة دمشق المشهورة بغياضها وبساتينها ومياهها وما تلك الابنية التي تتبدى لك من وراء الغوطة الا دمشق الفيحاء مقر والي الرُّوم فقال حماد وما هذا الغبار الذي يكاد يحجب المدينة عنا

قال لا ادري ما هو ولعلهُ غبار جنود الروم وقد خرجوا للسباق او هو غبار جنود المسلمين فقد بلغني بالامس من بعض القادمين من جهات اليرموك ان المسلمين لما غلبوا الرُّوم هناك عزموا على دمشق ولا يبعد انهم جاؤُوها وحاصروها

فاستعاذ حماد بالله وخاف ان يكون كلام الدليل صوابًا فيمتنع عليهِ الدخول الى المدينة وربما وقع بين ايدي المسلمين اسيرًا ولا يدري ما يجيبهُ منهم فتذكر سلمان لاحتياجه اليهِ في تلك الحال وندم لمجيئهِ منفردًا ولم يرَ لديهِ من يستشيره ويعتمد عليهِ غير ذلك الدليل وكان الدليل شابًا من عرب الغساسنة المقيمين في بصرى في العشرين من عمره يتكلم العربية واليونانية فقال لهُ حماد أتعرف دمشق وهل دخلتها قبل الآن قال اعرفها جيدًا وقد اقمت فيهـا ايامًا وكثيرًا ما جئتها مع والديَّ لوفاء النذور او الصلاة في كنيسة ماري يوحنا المعمدان

فقال حماد وهل تعرف كنيسة مريم

قال نعم اعرفها فانها في شارع مستقيم طويل يقطع المدينة من طرفها الشرقي الى الطرف الغربي اي من الباب الشرقي الذي يستقبلنا عند اول وصولنا المدينة الى الباب المقابل لهُ في الطرف الآخر منها في الغرب و يقال لهُ باب الجابية

فاستبشر حماد باصطحاب هذا الدليل ليستعين بهِ في الوصول الى منزل هند فاخذ يتلطف في معاملتهِ و يسترضيهِ بالاكرام والهدايا وهو يزداد رغبة في خدمتهِ و بعد ان وقفا برهة ركب حماد وسار الدليل في ركابهِ وسارا في الغوطة والاشجار تظللها ولم يسيرا قليلاً حتى غابت المدينة عنهما ثم اشرفا على مرتفع اطلاَّ منهُ على سهل امام دمشق فرأَيا بالخيام والاعلام والخيول والرجال قد ملأَت ذلك الفضاء

فامعن حماد نظره فاذا هي اعلام المسلمين وخيامهم وتحقق ذلك ما شاهده وراءها من مرابض الجمال ومساكن النساء فايقن بعرقلة مساعيه وعلم انه لن يستطيع الدخول الى دمشق وخاف المسير الى معسكر العرب لئلا يستنفشوه فيلحقوا به ضررًا فوقف حائرًا لا يدري ماذا يعمل وفيما هو يهم باستفهام الدليل عن سبيل يدخل به المدينة سمع قرقعة لجم ووقع حوافر خيول على الحصى في جدول جف ماؤه بين الاشجار فاوجس خيفة وحوّل عنان جواده نحو الصوت وتهيّأ للدفاع وامر الدليل فانحدر بين الاشجار يتشوف من خلالها وحماد يصيخ بسمعه فلم يكد يقف هنيهة حتى سمع صوتًا يناديه باسمه فخفق قلبه لاستماعه ذلك الصوت واجابه للحال « من انت » ثم ادرك انه صوت الامير عبدالله ولكنه استبعد ان يراه هناك وعهده به مقيم في بصرى ثم ما لبث ان رآه قادمًا على جواده ووراءه فارسان عربيان فتحقق انه هو بعينه واحس بانفراج الازمة واستغرب مجيئه فاذا بعبدالله قد ترجل وضمّ حمادًا وقبله

فقال حماد ما الذي جاء بك يا أبتاه

قال جئت لحراستك يا مولاي وقد علمت من الراهب الشيخ انك شخصت الى الشام فاسرعتُ اليك لعلمي بما قد تلقاه من العراقيل في سبيل الدخول اليها وقد صادف ظني محله وشكرت الله لمجيئي لاني رأيت العرب محدقين بالمدينة وقد حاصروها حصارًا شديدًا ولولا سابق معرفتي بخالد بن الوليد لما تمكنت من خدمتك وقد مضى عليّ يومان اطوف هذه البقاع ومعي هذان الفارسان اتوقع وصولك لاسير بك الى خالد وقد امنّا ووعد بحمايتنا

فشكر له حماد واثنى على غيرته وسأله عن حال المدينة فقال انها في حصار شديد لا يدخلها ولا يخرج منها احد . وانت ما الذي جرّك الى هذه المخاطرة . فقص عليه حكايته واطلعه على كتاب هند والخجل ظاهرٌ على وجهه

فحدثته نفسه ان يسير عوضه عن هند ولكنه علم انه لن يصادف منه اصغاء فصلا عما قد يلحقه او دون انتهائه [illegible] فقال له لا بأس علمت يا ولدي فان نعلمه [illegible]

[illegible] يستطيع دخول المدينة [illegible]

فقال وما الذي اباك [illegible]

قال لم يبعثني احد ولكني عرفت ان الغساسنة كلهم وفيهم جبلة وثعلبة مقيمون في حمص خوفاً من هجمات المسلمين وكان هرقل قد انفذهم مع جند الروم لنجدة دمشق فلم يستطيعوا دخولها فعادوا على الاعقاب (١)

قال وما العمل الآن

قال هلمَّ بنا الى معسكر خالد فانهم يتوقعون عودتنا لنقيم بينهم ونكون في ذمتهم الّا اذا احببت الرجوع الى بصرى فان ذلك آمن لنا وأوفق

فصمت حماد ولسان حاله يقول «كيف اعود عن دمشق وهند محصورة فيها»

فابتدرهُ عبدالله قائلاً لا بل ارى ان نقيم مع المسلمين لعلنا نستطيع امرًا ننقذ به هندًا من الخطر. فارتفعت اسرة حماد لما آنسهُ من مجاراة عبدالله فقال. نعمَّ الرأي رأيك فهلمَّ بنا. وهمُّوا بالمسير نحو دمشق فقال الدليل هل ترى حاجة اليَّ بعد الآن يا سيدي

قال حماد نعم ارى ان تبقى معنا لعلنا نحتاج اليك في شيء ونحن في مأمن ولك علينا خير مكافأة

فاذعن وسار معهم وفيما هم سائرون بين الغياض خاطب حماد عبدالله بلسان اهل العراق لئلاّ يفهم الفارسان. هل ترى جند العرب كثيرين حول دمشق

قال هم عديدون وقد تفرقوا فرقًا احداها فرقة خالد عند الباب الشرقي في الشرق والاخرى فرقة ابي عبيدة عند باب الجابية في الغرب والثالثة فرقة عمرو بن العاص عند باب الفراديس وفرقة شرحبيل بن حسنة عند باب آخر وفرق اخرى عند الابواب الاخرى وهناك فرقة يقودها جبار عنيد يقال له ضرار بن الازور تطوف حول الاسوار (٢) ويخال لي ان الروم لا يستطيعون الصبر على الحصار

وما زالوا سائرين حتى اشرفوا على معسكر العرب عند الباب الشرقي فرأوا الخيول والجمال ترعى في البساتين ومعها الفرسان والخدم ورأى النساء في اخبيتهن يتحدثن بامر الجهاد وهنَّ متشوقات اليه اشتياق الابطال الى ساحة القتال

فلما وصلوا المعسكر انزلوا فسطاط خالد فدخله عبدالله وحماد بلا معارض وكان خالد جالسًا في صدر المكان [illegible] ودعانا للجلوس فنظر حماد الى [illegible] ثم الفسطاط فرأى رؤساء [illegible] [illegible] حول خالد وقد تعمم بالعمامة وتزمل

(١) ابن الاثير (٢) الواقدي

بالرداء العربي وغادر القلنسوة والطيلسان وكان خالد قد استقدمهُ معهُ ليترجم بينهُ وبين الروم فتهيب حماد من مجلس خالد ومن احدق بهِ من الامراء وفيهم جماعة كبيرة لم يعرفهم ولكنهُ رأى الشجاعة والاقدام تلوحان على وجوههم

فتقدم عبدالله الى خالد فعرَّفه بحماد فاثنى خالد عليهِ وقال ان غلامك سيزداد زينةً بالاسلام ٠ فسكت عبدالله ولم يجب

اما حماد فلم يكن همهُ الاَّ هند وحالها في دمشق ولولم يطمئنهُ عبدالله ببعد ثعلبة عنها لما صبر على البقاء هناك ولكنهُ ما فتيءَ يفكر بحيلة يدخل بها المدينة ليرى هندًا ويطمئنها ويسعى في انقاذها

وبعد قليل استأذن عبدالله خالدًا بالخروج الى خيمة اعدت لهُ فخرج وخرج حماد معهُ حتى اتيا الخيمة فقال حماد وما الرأي الآن اني ارى هندًا في خطر ونحن في مأمن فلا بد من حيلة ندخل بها المدينة

قال تمهل يا سيدي لعلنا نتوفق الى ذلك في الغد ٠ وباتوا تلك الليلة وافاقوا في الصباح على اصوات الأذان والصلاة فقال عبدالله لا ارانا نستطيع شيئًا طالما كنا في هذا المعسكر هلم بنا الى معسكر ابي عبيدة عند باب الجابية لعلنا نؤانس خيرًا فمشيا كانهما من الجند وتركا الدليل في الخيمة حتى اتيا معسكر ابي عبيدة فدعاهما الى خيمتهِ وكان عبد الله قد عرفهُ وسمع بسهولة اخلاقهِ وطول اناتهِ ورغبتهِ عن سفك الدماء فبعد السلام والترحاب قال عبدالله الا يرى مولاي مخابرة هؤُلاءِ الروم بامر الصلح عسى انهم يسلمون ويكفونكم مؤُونة الحرب

قال ابو عبيدة اني ارغب الناس في ذلك ولكن خالدًا يطرب لمقارعة السيوف ومصادمة النبال

فقال عبدالله وما ضرَّ لو انفذتَ اليهم احدًا يستطلع رأيهم واستر رئيس هذه الجنود والمتصرف بهم

فقال لا ارى بأسًا في ذلك الاَّ انهم يحسبونا خائفين

قال ارسلوا من يستطلع رأيهم اذا كانوا راغبين في الصلح وهم يحسبوكم لا ترضون بهِ واذا سار اليهم احد فليكن كلامهُ من عنده نفسهِ

قال ومن لنا بمن يعرف لسانهم

قال لا اظننا نعدم وسيلة . وكان حماد قد تعلم شيئاً من اليونانية في اثناء اقامته في بصرى وهمّ عبدالله بان يشير بارسال حماد ولكنه جزع عليه فلبث صامتاً فابتدره حماد قائلاً اني اقدم نفسي لهذه المهمة

فقال ابو عبيدة ولكنك تسير اليهم سرًّا فاذا فزت بمهمتك انحقنت الدماء على يدك والاّ فانا باقون على حالنا من الحرب . واعلم ان قائد جند الروم هناك رجل اسمه توما هو صهر الامبراطور هرقل (١) فسر اليه واستطلع رأيه من قِبلك فاذا رأيت فيه ميلاً الى التسليم ائتني

وسرّ حماد بمهمته وخرج من فسطاط ابي عبيدة وعبدالله معه فناداهما ابو عبيدة فعادا فقال لحماد اذا سرت انت فبقي والدك عندنا رهناً فان النفس امارة بالسوء . فرضيا وخرج حماد وحده وبقي عبدالله هناك وقد ندم لما جرّه على حماد وعلى نفسه من الخطر وضاق صدره وخاف العاقبة

اما حماد فانه حمل علماً ابيض وركب جواداً واسرع نحو المدينة فلم يتبين الاسوار حتى رأى جماهير الناس عليها وفيهم القسس بصلبانهم والجند باعلامهم ورأى بعضهم يهمّ ان يرميه بالنبال فاشار اليهم عن بعد انه انما جاء مسالماً فكفوا عن اذاه حتى اذا دنا من الباب هاله عظمه وقد كان عبارة عن ثلاثة ابواب صفّاً واحداً المتوسط منها كبير ذو قنطرة واسعة والى جانبيه بابان صغيران وفي اعلى الباب صورة النسر الروماني تحته كتابة باليونانية وفوق النسر جدار السور وفيه مرامي النبال والناس يتزاحمون فوقها تتلألأ اسنتهم والوانها الحمراء والزرقاء ما يدل على البذخ والترف وفوق رؤوسهم الخوذ من الفولاذ فناداهم بلسانهم انه يريد الوصول الى رئيسهم

الفصل الثاني والثمانون

داخلية دمشق وحال الروم فيها

ونزل ابو حمادة فحول له احد البابين الصغيرين فدخل بجواده ولاحظ باحداق الرجال فتهيب لذلك الموقف ولكنه تجلد وطلب ان يرشد الطريق فنودوا الى الفتى قدم

(١) الواقدي

بالقرب من كنيسة ماري يوحنا فترجل ومشى في شارع عريض قد استطال على استقامة واحدة يبتدئ بالباب الاوسط ولا يكاد يرى آخره وارضه مرصعة بالحجارة الصوانية الضخمة والى كل من جانبيه رصيف عريض اوله عند احد البابين الصغيرين وعلى الرصيف عمد ضخمة من الرخام متراصة على طول الطريق . ولم يكن حماد دخل الشام قبل ذلك الحين فرأى فيها من العظمة ودلائل المدنية مالم يرَ مثله في بصرى

فما زال سائرًا وحوله الحرس واهل المدينة يطلون من الغرفات والنوافذ ينظرون اليه ويتحدثون بامره وهو يلتفت يمنة ويسرة لعله يرى هندًا بينهم وكلما وقع نظره على انثى ظنها هي وكان يخترق الصفوف بلحظه لعله يرى قبة او كنيسة على امل ان تكون كنيسة مريم حيث تقيم هند حتى مرَّ بكنيسة علم من بعض حديث القوم انها الكنيسة المشار اليها فخفق قلبه وشاعت عيناه وهو يلتفت الى ما حولها من النوافذ فرأى جموعًا ولكنه لم ير هندًا بينهم فسار والناس حوله يتحادثون بلسانهم وقد علت الضوضاء يتخللها قرقعة حوافر الخيل على البلاط

وبعد ان ساروا برهة انعطفوا الى شارع آخر فآخر حتى وصلوا الى باب كبير يحف به الخدم والاعوان فوقفوا عنده فعلم انه باب القصر فانفذوا بعض الحرس ينبئ البطريق بقدوم الرسول فاستأذنوه فامر بادخاله عليه فجردوه من سلاحه فدخل وركبتاه ترتعشان لهول ما يتوقعه بملاقاة ذلك الرجل فدخلوا به الى صحن الدار فاعجبه ما رآه في ارضها من النقوش الجميلة وفيها صور وقائع وهيئات آدميين وحيوانات بالفسيفساء بالوان بديعة متراصة قطعًا صغيرة بصناعة فائقة . وفي وسط الدار بركة من الرخام يتدفق الماء منها . ثم دخلوا به قاعة مفروشة بالرياش الثمين ما يبهر النظر وعلى جدرانها وسقفها صُور بعض القديسين وصورة الامبراطور هرقل بتاجه وصولجانه وصور اخرى دينية ورأى على النوافذ الاستار من الديباج والحرير المزركش بالقصب والارض مكسوة بالسجاد والطنافس عليها رسوم الاسود والفهود والخيول في أبدع ما يكون . فدعوهُ الى الجلوس هناك ريثما يخرج اليه البطريق فجلس يتوقع قدومه وهو يهوّن على نفسه ويتجلد حتى سمع وقع اقدام كثيرة ورأى اهل القصر في هرج وتزاحم فعلم ان الرجل قادم ثم رآه وقد دخل القاعة واذا هو طويل [illegible] كثير الهيبة وطيلسانه يكاد يجر وراءه [illegible] وهو في [illegible] قصير [illegible]

كثير الالوان مزركش بالذهب . وعلى رأسهِ قلنسوة اشبه بالتاج مرصعة بالحجارة الكريمة فحالما رآه حماد وقف اجلالاً لهُ وتقدم نحوهُ متأدباً فنظر توما اليهِ بعينين حادتين يكاد النور يشق منهما فهاب حماد منظره ولكنهُ تظاهر بالتجلد وحيّاه بتحية الملوك وصبر حتى جاس وامرلهُ بالجلوس فجلس حماد وهو يفكر في ما يبدأ بهِ من الحديث

فابتدرهُ البطريق قائلاً العلك من هؤلاء العرب المغتربن

قال كلا يامولاي اني غريب الديار وقد وقعت بين ايديهم بالاتفاق

قال لقد لاح لي ذلك من شكل لباسك فاني اراك حسن البزة وهؤلاء على ما اعلم حفاة عراة ولم يصلهم الينا الاّ قرب آجالهم . هل انت على دينهم الجديد

قال كلاّ يامولاي اني على دين النصرانية قال ذلك واستخرج من بين اثوابهِ صليباً من الذهب معلقاً بسلسلة في عنقهِ

قال العلك من الغساسنة

فتحير حماد في الجواب مخافة ان يكون في تصريحهِ بالصدق ما يوغر صدر البطريق عليهِ فقال اني غريب الديار ولكني مقيم في بصرى الآن

فقال ومن اي البلاد انت

فتذكر حماد الصلح الذي ابرم بين الفرس والروم على اثر الحروب الاخيرة فقال اني من اهل العراق ولما تمّ الصلح بين ملكنا وجلالة الامبراطور هرقل قدمت الى البلقاء

فقال توما وما الذي جاء بك الينا . قال ذلك ودلائل الاهتمام ظاهرة على وجههِ باقطاب حاجبيهِ وتفرسهِ

فهاب حماد منظرهُ ولكنهُ تذكر انهُ ملك ابن ملك فعادت اليهِ انفة الملوك فقال اذا اذن مولاي بخلوة بسطت لهُ بها رأيي وكان في مجلس البطريق بعض الحاشية فاشار اليهم فخرجوا وجلس البطريق الى جانبهِ . فقال حماد اقسم لمولاي بحرمة الصليب والمعمودية اني انما جئت انوي لهُ ولدولة الروم خيراً

قال لقد صدقت قل ما في نفسك

قال اني رأيت معسكر هؤلاء العرب وخبرت صبرهم في ساحة القتال واستهلاكهم في سبيل الجهاد فخشيت ان يطول الحصار فيصيب هذه المدينة جهداً وقد عرفت قائد جند العرب الاكبر وهو رجل لا يبالي او الظفر بسفك الدماء فقلت في نفسي لعلي اذا

توسطت في امر الصلح بينكما ان افعل خيرًا فاحتلت في دخول المدينة لاعرض هذا الامر عليك

فلم يكد حماد يتم حديثهُ حتى بدت ظواهر الغضب على وجه توما وقد اقطب حاجبيهِ وتململ في مقعدهِ ونظر الى حماد بعينين براقتين يكاد الشرر يتطاير منهما وقال وحرمة الصليب وصاحب هذه الكنيسة (واشار الى كنيسة مار يوحنا بالقرب من القصر) وراس الامبراطور هرقل لو لم تسبق الى اقناعي بنصرانيتك لارتبتُ بحقيقة مقاصدك كيف تدعونا الى الصلح قوم ساقهم الفقر الينا وغرهم الجهل في منازلتنا أتحالم بحسبوننا مثل حامية بصرى التي خانت ملكها وسلمت اليهم ألم تكن لهم عبرة برجوعهم عن اسوار هذه المدينة خاسرين منذ بضعة اسابيع [1] (ثم نهض وهو يقول) اني ساعلمهم كيف حرب الروم منذ اليوم . قال ذلك ويدهُ على قبضة حسامهِ وهو يخطر في الغرفة غضبًا

فكبر ذلك الانتهار على حماد وجرت دماء الملوك في عروقهِ وحدثتهُ نفسهُ ان يغلظ لهُ بالمقال ولكنهُ علم اذا فعل ذلك انهُ مائتٌ لا محالة فصبر نفسهُ وكظم غيظهُ وقال ان الصلح لا يحط من قدر رجال الحرب ولا اخال سيدي يحسبني اجهل بطش الروم وشدة بأسهم ولكنني ظننت في الصلح حقنًا للدماء فاذا كنتم ترون الحرب فانتم اصحاب الامر

وكان توما لا يزال واقفًا ولما سمع مقالة حماد جلس الى مقعد آخر ويدهُ لا تزال على قبضة حسامهِ وقال لولا حلمي لحصن بينك لما اقمت عليك ولكنك مع ذلك [illegible] في حاشيتي حتى ترى عاقبة الغرور وترى حال هؤلاء العرب في حربنا

فاستعاذ حماد بالله من هذا السجن وكان في حسابه [illegible] هذا وندم على مجيئهِ وظل صامتًا فسمع الطارق [illegible] بعض رجالهِ ولما حضر اوصاه ان يحتفظ بالرسول ويستبقيهِ في حاشيتهِ ريثما يأمر فيهِ بامرٍ آخر . قال ذلك وخرج مسرعًا غضبًا وسيفهُ يقرع على البلاط وراءه وطيلسانه [illegible] يكاد يتطاير من كتفيهِ وبقي حماد وحده في الغرفة [illegible]
منهم لا يؤذن لهُ بالخروج [illegible]

وفي مساء ذلك اليوم [illegible]

(١) الواقدي

يوحنا في صباح الغد وهو صباح الاحد وانهُ دعا رجال حكومتهِ واعيان المدينة للاجتماع فيها فأمّل حماد ان يتنسم خبرًا عن هند هناك

الفصل الثالث والثمانون

كنيسة ماري يوحنا

ولم يكد يفيق في صباح اليوم التالي حتى سمع دق النواقيس في سائر كنائس المدينة ورأى اهل القصر يتهيأُ ون للذهاب الى الكنيسة فسأل خنيرهُ عن ذهابهِ فقال تعالَ معنا ان الصلاة لا تمنع عن طالبها ولم تمض برهة حتى خرج توما باحسن ما يكون من اللباس فمشى وحولهُ الاعيان والوجهاء ورجال الدولة بافخر الالبسة من الحرير المزركش على اجمل الوانهِ وازهاها

وكانت الكنيسة على مقربة من القصر فلم يكن الاّ القليل حتى وصلوها فاذا هي محاطة بسور عظيم الارتفاع يوقع في النفس رهبة فدخلوا منهُ الى باب الكنيسة الجنوبي وهو كبير مرتفع الاعتاب فدخلوا منهُ الى صحن الكنيسة وهو فسيح مبلط بالرخام الملوَّن طولهُ نحو ٣٠٠ حطوة وعرضهُ ١٥٠ (١) ويحيط بهِ الاروقة وفيها الاعمدة الهائلة من الرخام الابيض النقي او الغرانيت الملوَّن باحسن ما يكون من الدقة تعلوها تيجان جميلة الصنعة على النمط الروماني اكثرها محلى بالذهب. حتى اذا اشرف على الهيكل حيث تقام الصلاة بهرهُ ما على جدرانهِ من الصور البديعة بالالوان الطبيعية وفيها الذهب فضلاً عن النقوش الجميلة من الفسيفساء الملونة بالالوان البديعة. وكان حماد كلما التفت تمثلت لهُ عظمة الروم في ابان مجدهم فبهت لانهُ لم يشاهد مثل هذه الكنيسة قط

فادرك خنيرهُ ذلك منهُ فقال لهُ ما بالي اراك مندهلاً. قال اني لم ارَ مثل هذه الكنيسة في الشرق الا بانطاكية من هو الذي بناها من الملوك قال انهُ سابق اقدم من النصرانية عهدًا فقد كان هيكلاً وثنيًا من ايام الآراميين الذين ورد ذكرهم في توراة اليهود باسم اله من آلهتهم اسمهُ رامون وكان لهُ مذبح جميل امر آحاز ملك يهوذا ان يبني مثلهُ في هيكل سليمان باورشليم

(١) الروضة الغناء للمعلوف

فلما استولت دولتنا الرومانية على الشام قبل النصرانية اتخذوه معبداً لاوثانهم حتى اذا تنصرت قياصرتنا جعله احدهم اركاديوس قيصر كنيسة على اسم يوحنا المعمدان وكان قد تخرّب بعضه فرممه ونقش فيه صور القديسين ومن جملة ما نقشوه آيات من الكتاب المقدس ترى كثيراً منها على الجدران والسقف واظنك قرأت ما هو منقوش على الباب عند دخولنا فقد كتبت عليه هذه العبارة (باليونانية) « ملكوتك ايها المسيح ملكوت ابدي وسلطانك يمتد مدى الادوار » (١)

ولم يكد ينتهي الرجل من حكايته حتى انتظم عقد الصلاة وقام الاساقفة بمباخرهم وصلبانهم وعلت اصوات الترتيل والترنيم والجدران تردد الصدى حتى صمت الآذان وتخشع الناس ونظر حماد الى الجماهير وراءهم وقوفاً وقد ولوا وجوههم المشرق وفي مقدمتهم توما في كرسي من العاج المرصع بالفسيفساء فوقه قبة من العاج بديعة النقش . ولما انقضت الصلاة حوّل توما وجهه نحو الجماهير وبيده صليبٌ من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة وامامه طاولة عالية فوقها كتاب مغشى بالذهب عرف حماد انه الانجيل الشريف والتفت توما وقد تغير منظرهُ وهو يهيئ كلاما يقوله فاصغى الناس ففتح الانجيل ووضع يدهُ اليسرى عليه وفي يده اليمنى الصليب يشير به وهو يتكلم وقال ما معناه « اعلموا يا معشر النصرانية ان عمي ومولاي جلالة الامبراطور هرقل قد كتب الينا يستحثنا على دفع هؤلاء الاعراب عن اسوار دمشق واخراجهم من بلاد الشام فقد انقول المتن فيها وماهم بالحقيقة الا قوم جياع عراة ساقهم فقر بلادهم وجدب ارضهم الى التماس الغزو من غياض الشام وخيراتها وقد اطمعهم فيها ما لاقوهُ من ضعف حامية بصرى وقائدها روماس اللعين الذي قادهُ الانتقام الى التسليم . اما انتم فانكم رجال اشداء قائمون على الولاء فلا يهمكم من امر هؤلاء شيء . ولا احرضكم الا على الاتحاد ونبذ الاختلافات المذهبية فقد آن لنا ان نلقيه جانباً ونعمل بما صار اليه الناس قبلنا وما هؤلاء العرب بشيء يذكر اذا نحن اتحدنا والا فان العاقبة وخيمة فاذا رأيتم الخروج اليهم خرجنا واذقناهم مرّ العذاب »

---

(١) الرومية نسبة [illegible] الكنيسة جامعاً ثم ستقلوا بها جميعاً وعرفت بجامع الاموي .

فقال رجل واقف بالقرب منه « ما لنا وللخروج اليهم ونحن آمنون في اسوارنا فلنهملهم حتى يملّوا الاقامة فينقلبوا على اعقابهم »

فتأمل حماد في حال ذلك الجمع وفيهم خيرة رجال الدولة فرأى التردد والخمول مستوليين عليهم وكان يحسب كلام توما يثير فيهم حمية فاذا هو لم يسمع منهم الاّ تمتمة ولم يرَ الاّ تقاعداً وقد فقدوا الحمية بما انغمسوا فيه من الترف والبذخ والرخاء وفسدت اخلاقهم وساءت آدابهم فقابل ذلك بما آنسهُ في جند العرب من الانفة وعزة النفس والنشاط ووحدة الكلمة فتمثلت له عاقبة الامر جليًّا وايقن انها عائدة على الروم اذا هم لم يصالحوا العرب فلبث ينتظر ما يأتي به القدر

وعادوا من الكنيسة وهم يتحدثون بما سمعوه وحماد مشتغل بهند وقد حاول الخروج منفرداً الى كنيسة مريم فلم يستطع لما ضيّقهُ عليه توما من الحجر فان خفيره لم يكن يفارقهُ لحظة وخاف اذا خرج خلسة ان يرتكب ذنباً يستوجب عليه القتل فصبر نفسهُ رغماً عنهُ . وفي صباح الغد خرج توما ومعهُ رجالهُ الاّ الخفير فانهُ بقي في القصر وحماد معهُ وآنس في خروجهم حركة غير اعتيادية واستطلع الخبر فقال الخفير ان البطريق سار الى الاسوار يرمي العرب منها بالنبال ولم يأتِ المساء حتى عاد الروم وفيهم توما وبه على عينه وقد جاءهُ الاطباء فسأل حماد عن حاله فقيل انهُ اصيب بنبلة من نبال العرب ففقأت عينهُ (۱) وانهُ تشاءم من ذلك كثيراً فقال حماد في نفسه عسى ان يرجع الى صوابه ويرغب في الصلح

الفصل الرابع والثمانون

باب الفرج

ومضت بضعة اسابيع والحرب سجال بين الجانبين والروم ينتظرون نجدة من هرقل والنجدة تبطئ عنهم حتى اذا كان ذات صباح وحماد جالس في بعض غرف القصر يائساً اسيفاً اذ جاءه رسول يستدعيه الى توما فسار اليه وقلبهُ يخفق مخافة ان يكون في الدعوة ما يدعو الى الخطر

---

(۱) الواقدي

فلما دخل عليهِ رآهُ جالسًا على سريرهِ مقطب الوجه فحياه فاجلسهُ توما الى جانبهِ وهو يبش لهُ فآنس حماد منهُ رقة لم يعهدها فيهِ . ثم اشار توما فخرج كل من في الغرفة ولم يبق غيرهما فقال توما دعني اقص عليك خبرًا اقلقني وهو حلم رأتهُ امرأتي في منامها البارحة وهي حامل اما الحلم فانها رأت الدماء تتدفق عن اسوار دمشق والاسواق مزدحمة بالقتلى فأفاقت من نومها مرعوبة فقصت عليَّ الحلم وهي ترتعد وتقدمت اليَّ ان اقبل بصلح هؤلاء العرب حقنًا للدماء ولقد ساءني اقتراحها لاني راغب في الحرب الى آخر نسمة من الحياة ولكنها ابنة الامبراطور صاحب الامر والنهي فضلاً عن منزلتها عندي وهي حامل . واذكر انك اخبرتني عن ابي عبيدة قائد فرقة باب الجابية انهُ ميال الى السلم فهل تظن اذا خابرناه بهِ يفعل ويحفظ عهدهُ

فاستبشر حماد بذلك وانفرجت كربتهُ وقال لا ريب عندي بحفظهِ العهد اذا عاهد

قال اتذهب اليهِ وتستطلع رأيهُ في ذلك سرًّا وتعود بالخبر

قال افعل ذلك مأمورًا طائعًا فأْذن لمن يرشدني الى الطريق ويخرج بي من الباب واما اسير الى الرجل واخاطبهُ

قال قد اذنّا لك بذلك ولكنني اشترط في امر الصلح شرطًا لا بدَّ منهُ

قال وما هو

قال اريد من هؤلاء العرب اذا دخلوا المدينة ان يحفظوا الارواح ويحقنوا الدماء وان يتركوا لنا كنائسنا ولا يغتصبوا علينا منها كنيسة

فقال حماد لا اظنهم يخالفونا في ذلك وعلى كل فاني اسير اليهم بالامر واعود اليك بالجواب . وكان حماد يكلم توما وهو معجب بتساهله الى هذا الحد على ان خيال هند ما زال نصب عينيهِ فخطر لهُ ان يغتنم تلك الفرصة للاستعانة بهِ على تسهيل زواجهِ بها وقال في نفسهِ لا اخالني ارى رجلاً اقدر على مساعدتي من صهر الامبراطور وهو الآن في حاجة اليَّ فاذا استعنتهُ ووعدني فقولهُ نافذ على جبلة وغيره

فتوسم توما في حماد توقفًا وترددًا فقال لهُ ما بالك تتردد العلك خفت الذهاب الى العرب . قال كلاَّ يا مولاي فاني اقتحم المخاطر في سبيل انفاذ اوامرك ولكن لي امرًا يهمني ليس هنا محل الكلام عليهِ على اني لا ارى بدًّا من استعانتك فيهِ وهو من اسهل الامور عليك فاجعل مساعدتي في اتمامهِ مكافأة لي اذا فزتُ في عقد الصلح على ما تريدون

فقال توما وماذا عسى ان يكون طلبك

قال اخاف اذا ذكرته ان تضحك مني وتظنني مشتغلاً بعبث الغلمان ولكن الامر يا مولاي قد اقلقني ولا ارى بدًّا من استعانتك فيه فاعذرني

قال قل ما هو

قال أتعرفون الامير جبلة الغساني

قال أليس هو ملك الغساسنة حليفنا

قال بلى يا مولاي هو هو بعينه

قال وما خبره

قال حماد اقول بالاختصار اني خطبت ابنته هندًا ثم ان ابن عمٍّ لها يقال له ثعلبة يسعى في الحصول عليها وقد قبل والدها به ولكن الفتاة لا تريده. ونظرًا لما اعهده من نفوذكم على جبلة ارجوان توعزوا اليه ان يعطيني الفتاة

فابتسم توما وقد تذكر ايام شبابه وزمن عشقه فعذر حمادًا وطيب خاطره وقال انه امر سهل لك علينا قضاؤه. فانبسطت نفس حماد ومال الى مشاهدة هند وتبشيرها بذلك الوعد وهمّ بالاستئذان توما ان يمرّ بكنيسة مريم اثناء ذهابه فاذا هو قد ابتدره قائلاً « فانقدم اليك ان تسرع في مهمتك وتسير حالاً الى محاربة ابي عبيدة فاذا عقد الصلح وهدأت الاحوال زففنا اليك هندًا رضي والدها او لم يرض »

فشكر له حماد شكرًا جزيلاً وقد عوّل في باطن سره على ان يحتال في المرور خلسة ثم سمع توما ينادي اثنين من حاشيته فاتيا فقال لهما اعدا مركبة من مركبات القصر احملا بها هذا الشاب العراقي الى باب الجابية حالاً وافتحا له الباب وليركب جواده هناك واما انتما فانتظرا رجوعه حتى اذا ارجعتما به الى هنا

فقالا سمعاً وطاعة وخرجا مسرعين وحماد آسف لبقائه في المركبة اذ لا يتأتى له الوقوف عند الكنيسة

وبعد برهة اعدت المركبة فركبوها فجرت مسرعة وقد تعالت قرقعتها على بلاط الشوارع وخصوصاً الشارع المستقيم حتى اذا دنت من كنيسة مريم خفق قلب حماد وشاخصت عيناه [illegible] النوافذ والابواب لعله يرى هندًا او احدًا من اهلها فخاب رجاؤه وتجاوزت المركبة الكنيسة [illegible] ان [illegible] احد وتحول

فرفعت المركبة دون سماع النداء ولكنه ما لبث ان وصل الى باب الجابية فوقفت المركبة وكان جواده هناك فركبه وخرج والعلج معه حتى اتى معسكر ابي عبيدة فلم يستغشه احد من العرب فسار توًّا الى خيمة عبدالله وهي في الطريق فرآه جالسًا حزينًا لاشتغال باله بحماد وقع نظره عليه نهض مسرعًا وضمه الى صدره وسأله عن سبب غيابه فقص عليه الخبر فحمد الله على سلامته . ثم سأله حماد هل سمع شيئًا عن سلمان فقال لا لم اسمع عنه شيئًا ولكنني ارسلت دليلنا الى بصرى لعله يراه هناك فيخبره بمقرّنا ولم يعد الدليل بعد . واشتغل بال حماد ولبثا برهة يتحادثان في امر رحلته وجنده فقال عبدالله اظننا اذا تمّ الصلح بين العرب والروم لا نعدم وسيلة في العثور على سلمان فهيا بنا الآن الى ابي عبيدة ثم نهضا معًا حتى اتيا فسطاطه فرحب بهما فقص حماد ما اشترطه توما من امر الكنائس والاموال فقال ابو عبيدة لقد قبلنا بذلك فليرسل من يعتمده من رجاله لعقد الشروط

فودعهم حماد وعاد الى دمشق وقد مضى معظم النهار فوصل القصر فرأى اهله في هرج وضجة فسال عن السبب فقيل له ان امرأة البطريق توما تمخض والبطريق عندها ينتظر ساعة الولادة (١) فقال انتظر اليه من ينبئه برجوعي فأتاه فخرج اليه وامارات الغبطة ظاهرة على وجهه فقال ما خبرك فقال ان الامير ابا عبيدة قبل بالصلح وارسل من تعقده لعقده . فامر مئة من كبار القصران يخرجوا في صباح الغد ومعهم حماد وقال لهم اني مشتغل في ما تقاسيه امرأة الامبراطور من آلام المخاض وعسى ان يأتي الفرج قريبًا



الفصل الخامس والثمانون

﴿ صلح الشام ﴾

وكان النبل قد [illegible]

الرسمية وحماة الاعلام [illegible]
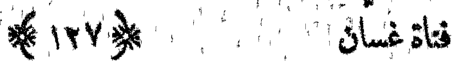
(١) [illegible] الاتي

الناس رغبة في ذلك الصلح املاً بقرب الوصول الى هند

فلما وصلوا الباب كان بعض العرب هناك وعليهم ابو هريرة قد قاموا ينتظرون وفد الروم فأنبأهم حماد بما اتوا من اجله ففتحوا الابواب وخرج الوفد باعلامهم وصلبانهم وقد تكسرت اشعة الشمس عن خوذهم وقلانسهم وارديتهم المختلفة الالوان وصلبانهم المرصعة بالحجارة الكريمة مما يبهر الابصار ومشى ابو هريرة ورجالة في مقدمتهم حتى اتوا معسكر ابي عبيدة فلما اشرفوا على المضارب اوعز اليهم ابو هريرة ان ينزعوا الصلبان (١) فنزعوها حتى وصلوا الى فسطاط ابي عبيدة فاستقبلهم بالحفاوة وعقد مجلساً امضوا فيه الشروط وفي جملتها ان يتركوا الكنائس على ما هي . وكان في دمشق عدة كنائس منها كنيسة مريم وكنيسة يوحنا المعمدان المتقدم ذكرها وكنيسة سوق الليل وكنيسة المذار (٢) فكتب لهم ابو عبيدة كتاب الصلح والامان ولم يسمّ فيه احمة ولا اشتشهوداً فتناولوا الكتاب ودعوه لصحبتهم ليدخلوا المدينة معاً فقام ابو عبيدة ومعهُ ٣٥ من اعيان الصحابة وسار الجميع وفيهم عبد الله وحماد . فلما وصلوا باب المدينة وقف ابو عبيدة وقد تذكر امراً هاماً وذلك انهُ اسلامة بنو رضي بالصلح وقبل بدخول المدينة مع عدوه ولم يخامره ريب من غدر او نحوه ولكنهُ لما وصل الابواب ورأى الاسوار وفوقها الجند بالاسلحة تخوف وتحذر فقال لمن معهُ من الروم انا نطلب منكم الرهائن قبل الدخول فيبقى منكم اناس رهناً عندنا حتى اذا حدث غدر ذهبوا ضحية الغدر . فتركوا بعضاً منهم وسار الباقون حتى دخلوا الابواب واقبلوا على الشارع المستقيم وقد تزاحم فيهِ الناس وفي مقدمتهم الاقسة والرهبان فلما دخل ابو عبيدة استقبلوه بالاناشيد واعتذروا عن تخلف البطريق توما لانشغاله باهل بيته ثم مشوا بين يديه على مسرح الشعر وقد رفعوا الاناجيل والمباخر وفيها البخور يتصاعد دخانهُ حتى حجب عنهم اواخر الشارع فساروا يهنئون شكراً لله على حجب الدماء والاعلام تخفق فوق رؤوسهم وبينها اعلام المسلمين والروم معاً

وكان الدمشقيون يطلون من النوافذ وعن الاسطحة والشرفات رجالاً ونساء واولاداً وكلهم فرحون بنجاة انفسهم واموالهم لان اهل البلد اكثر الناس نفوراً من الحرب لانها عائدة عليهم بالخسارة في اي حال

(١) الواقدي (٢) الواقدي



واما حماد فكان مشتغلاً عن تلك الضوضاء يعلل نفسه بقرب اللقاء وعبد الله الى جانبه وكان الموكب سائراً ببطء فنفد صبر حماد وهو يتشوف من خلال الاعلام والصلبان الى كنيسة مريم عن بعد وقد عوّل على ترك الموكب ودخول الكنيسة خلسة ليرى هنداً ويبشرها بانفراج الازمة

الفصل السادس والثمانون

خصام ابي عبيدة وخالد

وفيما هو في ذلك تراءى له في آخر الشارع جموع قادمون نحو الموكب فراراً من اناس يطاردونهم فامعن نظره فرأى مع المطاردين اعلاماً اسلامية ورجالاً من المسلمين في ايديهم السيوف والرماح وقد امعنوا في الناس قتلاً ونهباً ورأى في مقدمة الاعلام علماً اسود عرف انه راية العقاب لخالد بن الوليد ثم ما لبث ان رأى الفارين يتقدمون حتى التقوا بالموكب عند كنيسة مريم ثم دنا خالد فلما رآه ابو عبيدة عجب لامره وناداه قائلاً « كف يا ابا سليمان قد فتح الله على يدي المدينة صلحاً وكفى الله المؤمنين القتال »

فصاح فيه خالد « وما الصلح لا اصلح الله بالهم واين لهم الصلح وقد فتحتها بالسيف وخضبت سيوف المسلمين من دمائهم واخذت الاولاد عبيداً ونهبت الاموال »

فقال ابو عبيدة « اعلم ايها الامير اني ما دخلتها الاّ بالصلح »

فقال خالد « انك لم تزل مغفلاً واني ما دخلتها الاّ بالسيف عنوة وما بقي لهم حماية فكيف صالحتهم »

فقال ابو عبيدة « اتقِ الله ايها الامير والله قد صالحت القوم وعقد السهم ... فيه وكتبت لهم الكتاب »

فاعترضه خالد وارتفع الصياح بينهما وقد شخص الناس اليهما واصحاب ... لا يزالون يقتلون وينهبون. وكانوا قد دخلوا المدينة من الباب الشرقي ثم ... بصلح ابي عبيدة ولكنهم اغتنموا الفرصة لاشتغال توما ورجاله بالنصر ... (١)

(١) ابن الاثير

فقالوا ابو عبيدة « واتكلاه حفرت والله ونقض عهدي » وجعل يقسم على المسلمين ان لا يمدوا ايديهم نحو الطريق الذي جاء هو منه حتى يرى ما يتفق هو وخالد عليه فسكنوا عن النهب واجتمع رجال المسلمين هناك وتفاوضوا في الامر ثم الرأي على القبول بالصلح على ان يخرج توما وهربيس (وهو وال على بعض الشام من قبل توما) وفيما هم في الجدال جاء توما وهربيس وذكّرا ابا عبيدة بالعهد وقالا اذا ابيتم صلحنا فاننا نخرج من المدينة ونكون في ذمتكم نحن واهلنا واموالنا وبعد جدال طويل قبل خالد بذلك (١)

فاخذ توما يتأهب للخروج وكان حماد في جملة الوقوف يسمع مادار من الحديث فلما علم بخروج توما على هذه الصورة ارتبك في امره وعلم انه لن يرجو منه نفعًا ولكنه عوّل على دخول الكنيسة ومقابلة هند فاستأذن عبدالله فقال هلم ندخل معًا

وتركا الناس في تزاحمهم وعرجا نحو الكنيسة فاذا هي مقفلة وتلمسا مفتاحها فظن البواب انهما يريدان بها اذية فذكرهما بالعهد فقالا اننا لا نريد امرًا غير الزيارة ونحن مستجيرون بكم ففتح لهما الباب وسأل حماد عن قيّم الكنيسة فقدم اليه قسيس شيخ وكان مختبئًا في الهيكل وهو يخاف الهلك فلما رأى الرجلين يرسمان علامة الصليب اطمأن باله فسألهما عن مرادهما فتقدم اليه حماد وقبل يده وقال هل يقيم في هذه الكنيسة احد من العذارى . قال القسيس لم تجر العادة ان يقيم الناس في الكنائس

قال وانما اريد هل يقيم احد في بعض الغرف التابعة للكنيسة

قال لا يا سيدي ولكن اهل ملك غسان وكلهم من النساء كنّ مقيمات عندنا ومعهم الخدم ولكنهم خرجوا جميعًا منذ اصبحة اسابيع

فاضطرب قلب حماد وقال وقد ظهرت البغتة على وجهه والى اين خرجوا

قال لا ادري ولكن رجلًا [illegible] الامير جبلة اقاموا هنا ساعات قليلة وخرجوا جميعًا . [illegible] مرقفة [illegible] ابو الناس وجعل [illegible] فلم يفهم شيئًا آخر

[illegible] حصار المدينة او [illegible]

قال [illegible]

فبغت حماد وقد اسقط بيده ونظر الى عبدالله كأنه يستطلع رأيه فقال عبدالله اظن الملك جبلة ابعد في طلبهم لما سمع بقرب الحصار فسار اليه

فتعاظم اليأس على حماد وفكر في الامر يسيرًا ولاح له ان هندًا لا تخرج على هذه الصورة ما لم تترك له خبرًا او اشارة وخصوصًا بعد ان كتبت اليه تستعجل قدومه اليها فقال للقسيس الا ترشدنا الى المنزل الذي كان يقيم به اهل جبلة

الفصل السابع والثمانون

الاستطلاع

قال القسيس سمعًا وطاعة وخرج بهما من بعض ابواب الكنيسة الى زقاق ضيق لكنه مرصوف بحجارة عظيمة شأن ازقة دمشق على اختلاف عرضها واستطرقوا من الزقاق الى منزل لا يظهر من بابه وسوره انه يليق بسكنى الملوك على انهم ما لبثوا ان دخلوا داره حتى تمثلت لهم منازل من الاتقان والزخرفة ولكنهم لم يسمعوا غير خرير الماء في بركة تتدلى فوقها اغصان الصفصاف وفاحت رائحة الازهار [illegible] جوانب المكان من الغراس [illegible] حماد وهو يتوقع ان يرى احدًا او يسمع صوتًا [illegible] غير السكوت حتى [illegible] في صدر الدار [illegible] وصعد في سلم ومعه عبدالله فانتهى الى [illegible] مفتوحة تطل على غرفة مقفلة الابواب [illegible] رأى شبحًا [illegible] في بعض جوانبها عليه لباس النساء [illegible] وصوتها يرتجف [illegible] في هذا المكان احد من الرجال فماذا كم تريدون [illegible]

واختلج قلب حماد [illegible] ذلك [illegible] فقال لا تخافي يا خالة [illegible] من الاعداء [illegible] عن اهل ملك غسان

فلما سمعت المرأة صوت حماد [illegible] خادمة هند التي حملت اليه الكتاب في [illegible] قالت الملك مهدي حماد

فقد كدت القى حتفي في انتظارك

فقال افتحي الباب ولا تخافي واخبريني خبرك

ففتحت الباب وهمت بيده فقبلتها وقالت والبغتة لا تزال ظاهرة على وجهها وقد امتقع لونها « لقد خرج اهل الملك من دمشق منذ اسابيع وتركوني هنا في انتظار قدومك لاطلعك على خبرهم فطال غيابك حتى يئست من لقياك ثم حوصرت المدينة ووقع ما وقع فيها من القتل والنهب · ولما سمعت وقع اقدامكم الآن حسبتكم من العرب الفاتحين فخفت واختبأت في هذه الغرفة فنشكر الله على ما حصل »

فقال حماد اخبريني يا خالة اين سيدتك هند

قالت لقد خرجت من دمشق مع والدتها وسائر الخدم بامر والدها قبل الحصار

قال واين هي الآن

قالت اظنها في بيت المقدس لان سيدي الملك بعد ان انفذ اليها ان تتأهب للاقتران بالامير ثعلبة عاد فكتب الى سيدتي سعدى ان تأتي سريعاً الى بيت المقدس لانها ابعد عن الخطر من دمشق والظاهر انه سمع بعزم العرب على حصارها · فشق ذلك على سيدتي وخافت ان تأتي انت ولا تعلم بمصيرها فاستبقتني هنا لاقص عليك الخبر

فنظر حماد الى عبد الله وقال ما الرأي يا امير

فقال لا حيلة في الواقع يا مولاي فان مقامنا في دمشق لا يجدينا نفعاً وارى ان نغتنم اول فرصة للخروج الى بيت المقدس

فالتفت حماد الى المرأة وقال لها وانت ماذا تعملين

قالت اذا بقيت حية سأذهب الى بيت المقدس

قال ان الحرب قد انقضت وتمّ الصلح فلا بأس عليك ولكني لا اظنك تستطيعين الذهاب وحدك وانت امرأة

قالت انما استطيع ذلك لاني امرأة لان هؤلاء العرب شديدو المحافظة على الاعراض فاذا لقيني احد منهم كان لي عوناً في ايصالي الى حيث اريد

فقال اوصيك اذا اتيت بيت المقدس وكانت هند لا تزال هناك ان تقريها مني السلام وتخبريها اني قادم اليها على عجل ان شاء الله

قال ذلك وتحوّل مسرعاً وعبدالله معه ثم قال علينا بالاسراع الى بيت المقدس

قال عبدالله علينا قبل الذهاب ان نحمل امتعتنا فانها في معسكر ابي عبيدة

قال لا بد لنا من الانتظار ريثما يهدأ البال وتسكن الاحوال فودع ابا عبيدة ونشكره على حسن وفادته وننصرف ولعله يصحبنا بمن يدفع عنا خطر الطريق

فخرجا من المنزل فلقيا القسيس فودعاه وخرجا الى الشارع وكان الناس قد استأنسوا وهدأت الاحوال فسارا تواً الى قصر الحاكم فرأيا المسلمين قد تخللوه ووضعوا أيديهم على ما فيه وأهل توما يحملون الاحمال ويخرجون مهرولين وفيهم النساء والرجال فأسفا لما انتهت اليه حال هؤلاء وتذكر حماد انفة توما يوم لقيه في ذلك القصر فاعتبر وتأمل

وقضيا بقية ذلك اليوم والناس في هرج بين مهاجر ومستسلم ولم يستطيعا مقابلة ابي عبيدة ليخاطباه بشأن الذهاب

وفي اليوم التالي دخلا عليه فاذا هو قد ازداد رفعة بعز النصر وكان جالساً يملي على كاتبه وهو يكتب الى الامام عمر يخبره الفتح فتنحيا حتى انتهى من الكتاب فدخلا عليه فرحب بهما وبش لهما وخاطب حماداً قائلاً انك خدمت هذه المدينة خدمة تستوجب الثناء عليها لانك كنت الواسطة في حجب الدماء

فخجل حماد لذلك الاطراء وقال اني لم افعل شيئاً استوجب عليه ثناء وان ما حصل من الصلح انما كان من رغبة الامير في السلام . ثم همّ حماد ان يذكر له عزمه على الخروج الى بيت المقدس ولكنه لم يرَ سبيلاً الى ذلك فصمت فادرك عبدالله ذلك فيه فخاطب ابا عبيدة قائلاً لقد اتينا يامولاي نهنئك بالفتح الذي تمّ على يدك ونستأذنك بالانصراف

فقال ابو عبيدة والى اين تنصرفون

قال ان لنا في بيت المقدس اهلاً نريد الرجوع اليهم

ففكر ابو عبيدة مدة ثم قال لم يأن زمن الانصراف بعد فالبثوا في ضيافتنا اياماً نحسن وفادتكم بعدما ظهر بلاؤكم معنا في زمن الحرب ثم تنصرفون ومعكم رجال منا حتى تبلغوا مأمنكم

ولم يجرأ عبدالله على مراجعة ابي عبيدة وبات صامتاً على نية العود الى الاستئذان في فرصة اخرى ولكنه استأذنه في الخروج الى المعسكر ليستولي على الامتعة

فقال ابو عبيدة ان امتعكم وخيولكم في ما من مع امتعتنا في المعسكر ونحن خارجون اليها لانا لا نحب الاقامة في القصور خوفًا من الانغماس في الترف

الفصل الثامن والثمانون

مهمّة خطرة

وفي الغد خرج الجميع الى المعسكر وقد اقتسموا الغنائم ونزل كل في خيمته وكان عبد الله يتوقع عود الدليل من مهمته التي سار فيها الى بصرى فلم يعد فعلم انه اما رغب في الذهاب فرارًا من غائلة ذلك الحصار واما ثار وهما قلقان على سلمان وهمد يحاولا مخاطبة ابي عبيدة مرة ثانية في المسير الى بيت المقدس فلم يريا فرصة لانشغاله في تسيير الجند لفتح سواحل الشام وغيرها من البلاد. فصبرا ريثما تسنح الفرصة فمضت ايام وهما على ذلك حتى اصبحا ذات يوم وهما على مثل الجمر في انتظار الخروج الى بيت المقدس يتوقعان حيلة يخرجان بها فرأيا بعض الجند في هرج ومسارعة نحو خرجا فاذا هما بهجان قد دخل المعسكر وعليه غبار الاسفار فعرفا انه رسول من الامام عمر الى ابي عبيدة ثم رأياه ترجل ودخل فسطاطه فلبثا ينتظران ما جاء به

وبعد هنيهة خرج الرسول وجاء بعض القائمين في خدمة ابي عبيدة والتمسوا من عبد الله وحماد الذهاب الى فسطاط الامير حالاً فاوجسا خيفة لئلا يكون في تلك الدعوة ما يدعو الى التأجيل

فلما دخلا رأيا ابا عبيدة في صدر الفسطاط والى جانبه خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص وغيرهما من الامراء فحياهم فامرهما بالجلوس

ثم قال لهما مخاطبًا عبد الله «قد نبأني اخي» واشار الى خالد «انكما من اهل العراق ولم اكن اجهل ذلك. ولكنني علمت منه انكم من امراء العراق العارفين باحوال تلك البلاد وقد شاهدنا من اخلاصكم في خدمتنا ما دعانا الى تكليفكم امرًا تستوجبون عليه الاجر بالثواب

فازداد عبد الله خوفًا من تلك الدعوة ولكنه تظاهر بالارتياح وقال انا في

خدمة الامير طوع ارادتو

فقال لقد جاءنا رسول مولانا امير المؤمنين الآن يدعونا الى نصرة اخواننا في العراق وان نمد اليهم جندًا من خيرة تلك الارض[1] فاريد ان تسيرا مع تلك النجدة و في ذهابكما خير لكما وخدمة لجند الجهاد

فقال عبد الله ان امر مولاي الامير مطاع ولو امدني الى حيث اراد لفعلت ولكنني خرجت من العراق منذ اعوام ولا ادري ما طرأ عليها من التغيير والتبديل فاخشى ان لا يكون في ذهابي فائدة لكم . وزد على ذلك اننا مشتغلو البال على بعض اهلنا في بيت المقدس

وكان خالد مصغيًا لما يبدو من عبد الله وكان يتوهم ذلك الجواب منه فقال له لقد سمعت من خادمك سلمان يوم صلح الحرق [illegible] صاحب عقار وكلمة نافذة وقد حببا لك مالك واهلك في ذلك [illegible] تعتذر عن الذهاب . قال خالد ذلك وعلامات الغضب تكاد تظهر على وجهه [illegible] عبد الله عاقبة اعتذاره فبادره قائلاً اني لا اعتذر عن الذهاب فان ذلك فرض عليَّ [illegible] اود ان اتفقد الذين في بيت المقدس ايضًا

فقال ابو عبيدة فليذهب ابنك حماد الى بيت المقدس ونحن نضمن [illegible] بوصلة اليها وسر انت الى العراق [illegible] على اهلنا لانك في ذمتنا واعلم ان [illegible]

فاذعن عبد الله صاغرًا لعلمه ان تردده [illegible] يعلم من شدته وتسارعه

اما حماد فشق عليه فراق عبد الله و [illegible]

فقال عبد الله هل يأمر مولاي [illegible]

قال نعم ستسيرون في الغد [illegible] ذهب الجند للذهاب

ثم خرج عبد الله وحماد [illegible] لهم الا حديث تلك [illegible]

---

(١) [illegible]

حسباه من تجسس العيون وما قد تكون عاقبة الفرار لو قبض عليهما. ولو كان حديثها مع ابي عبيدة لهان الخلاص لما يعلمانهِ من سهولة اخلاقهِ اما خالد فانهُ سريع الانتقام

وفي الغد ركب حماد وودع عبدالله وتواعدا على اللقاء في بيت المقدس واذا اضطر حماد للخروج قبل مجيء عبدالله فليترك لهُ خبرًا في كنيسة القيامة هناك. ثم سار حماد الى ابي عبيدة فودعهُ فقال ابو عبيدة وهو يبتسم سر بحراسة المولى ونرجو ان نلاقيك قريبًا في بيت المقدس وقد نحتاج الى خدمتك هناك مثل حاجتنا اليها في دمشق. وادرك حماد انهُ يشير الى قرب ذهابهم لحصارها فتجاهل ولم يجب فامرا وعبيدة بعض الرجال يسيرون معهُ لحمايتهِ اثناء الطريق فسار وعينا عبدالله تراعيانهِ حتى توارى

اما هو فلما ابتعد عن دمشق تذكر هندًا وحالها وخيل لهُ انها تزوجت بثعلبة فارتعدت فرائصهُ ولكنهُ قال في نفسهِ انها لو كانت تقبل بهِ لما انفذت في طلبي الى دمشق ثم استنفدت خادمتها لاستقدامي الى بيت المقدس ثم فكر في طول مدة غيابهِ فخيل لهُ انها يئست من قدومهِ فاضطرت لمجاراة والديها والقبول بثعلبة فقضى معظم الطريق في مثل هذه الهواجس

الفصل التاسع والثمانون

خيبة المسعى

وصل حماد بيت المقدس ونزل في دير بالقرب من كنيسة القيامة حتى اذا استراح قليلاً خرج للبحث عن هند في دير القيامة نفسهِ واخذ يفتش ويستطلع لعلهُ يتنسم خبرًا فلم يرَ احدًا يعرف حمية ولا امامة ولم يكن حديث القوم الا الحرب وعواقبها وكلهم خائفون مما عسى ان يصيبهم بعد سقوط دمشق فقال في نفسهِ لأذهبنَّ الى قيّم ذلك الدير لعلهُ يعلم شيئًا فلما ركب اليهِ سأله عن ابي الوفاء فقال لهُ القيّم ان اهل الملك جبلة نزلوا هنا اياماً ولكنهم خرجوا منذ اسبوع

فسأل حماد وقال هل رأيت معهم نساءً ورجالاً

قال لقد كان النساء وسيداتهن ولكن رجالهم اتوا منذ اسبوع واقاموا هنا ساعات قليلة ثم انقلعوا جميعًا الى حيث لا يعلم احد

فقال حماد ألم يتركوا شيئاً من امتعتهم هنا . قال تركوا منها ما لا قيمة له من ثقيل الاحمال هبة للدير ولم يأخذوا الّا ما خف حمله وغلا ثمنه

فبهت حماد لذلك الخبر وقال في نفسه وهل ثعلبة معهم ثم لم يرَ بدّاً من اعادة السوال فالتفت الى القيم وقال له اتقدم اليك ان تعيرني سمعك ولا يثقل عليك سؤالي لان هؤلاء القوم يهمني امرهم وقد كنت في دمشق اقاسي عذاب الحصار فلما تم صلحها اتيت لافتش عنهم فهل عرفتَ اشخاصهم جيداً

فاهتم القيم لحديث حماد عن حصار دمشق وكان شديد الرغبة في سماعهِ

فقال له وهل عاينت الحصار بنفسك ورأيت جند العرب رأي العين

قال نعم رأيتهم واختلطت بهم وسمعت احاديثهم

قال الا قصصت عليّ حديث الحصار

فاضطر حماد ان يقص عليهِ الخبر مختصراً استجلاباً لرضاه لعله يصبر على اسئلتهِ ولما انقضى الحديث امتقع لون القيم وهو راهب طاعن في السن فقال وما ظنك بهم هل يأتون الينا

قال اظنهم يأتون اذا لم يجدد الامبراطور هرقل الهمة في التجنيد والترميم فان هؤلاء العرب اشداء صبورون على القتال ولكن الله يحمي عباده . فاخبرني الآن عما تعرفهُ من امر اهل الملك جبلة

قال اما وقد افصحت لي عن رأيك بعد ان خبرت الامور فاخبرك يا والدي ان سقوط دمشق اوقع الرعب في قلوب رجالنا فاصبح كل منهم خائفاً لا يأمن على نفسه ولا اهلهِ وكذلك جبلة فانه اسكن اهله في هذا الدير وفي عزمهِ ان يعقد لابنتهِ الوحيدة على ابن عمها ... فهل بينك وبينهم قرابة

قال ليست بيننا قرابة ولكن لي مع الامير جبلة شغلاً هاماً قال ذلك وهو ينتظر بقية الخبر ليرى ماذا تمّ من امر الاميرة

فقال الراهب ولكنني لحظت من ابنته نفوراً شديداً من ابن عمها هذا وكان والدها قد كلفني باقناعها

فثارت الغيرة في قلب حماد واصبح كله آذاناً يسمع نهاية الحديث فقال وهل اقنعتها

قال كلَّا يا ولدي لانها كانت شديدة النفور وكنت اذا سألتها اجابتني والدموع ملءُ عينيها تعتذر ووالدها لا تلومها

ولم يتم الراهب كلامه حتى تناثر الدمع من عيني حماد فتشاغل باصلاح كوفيته اخفاء لعواطفه وقال لقد همني امر هذه الفتاة وارى من الظلم ان تجبروها على الاقتران برجل لا تريده

قال الراهب لقد صدقت يا ولدي ولذلك فان العناية الصمدانية حلت هذا المشكل على اهون سبيل

فقال حماد وكيف ذلك

قال الراهب ان ابن عمها المشار اليه قتل في بعض المواقع الاخيرة

فاجفل حماد اجفال المبغوت وقال هل تحققت ذلك يا مولاي لعل الذي قتل هو غير الخاطب

قال بل تحققت انه هو لاني سمعتهم يتحدثون بحكايته وكأنهم يهنئون هنداً بذلك

فقال حماد الا تذكر اسمه

قال اذكر ان اسمه ثعلبة

فأيقن حماد انه هو دون شك ولكنه ما زال في ريب من امر هند ووالدها فقال وماذا جرى بعد ذلك

قال الراهب [illegible] ذلك اياماً حتى شاع سقوط دمشق وبصرى [illegible] الامر رجاله حملة ومنهم بعض الحاشية من رجاله [illegible] وبرحوا هرب الهارب من الموت ولا ادري الى اين

ووقف حماد [illegible] فأشار الى عبد الله وسلمان [illegible] في عينيه وضاق صدره فنهض للحال وودع الراهب وانصرف [illegible] وهو غارق في لجج الهواجس لا يعرف جهة مسيره

الفصل التسعون

سلمان

وكان حماد في اثناء مسيره الى الدير تائهاً في بحار الهواجس يفكر تارة في هند وطوراً في سلمان وآونة في عبدالله حتى عظم عليه الامر وخيل له ان المسالك سدت دونه فضلاً عما كان يعترض سبيله من اهوال الحرب وقد اصبح اهل الشام في هرج على اثر سقوط دمشق واخذوا في المهاجرة زرافات ووحداناً الى مصر او بلاد الروم او غيرها

فوصل الدير وهو لا يدري انه وصل حتى اذا كان على مقربة من غرفته رأى عند بابها رجلاً كان جالساً ثم هم مسرعاً لملاقاته وحالما وقع نظره عليه علم انه سلمان فناداه باسمه فترامى سلمان على يده يقبلها ويشكر الله على لقياه فقال حماد اهلاً بك ايها الصديق لقد اطلت الغياب علينا فاذقتنا من الوحدة مالم يبق لنا صبراً عليه

فخجل سلمان لذلك الاطراء وقال لقد غمرتني ايها الملك بفضلك فدعوتني صديقاً لك وما انا الا من بعض خدمك

فلما سمع حماد لفظ الملك تمثلت له حالته وتذكر حكاية النذر والانتقام وما شغله عن ذلك من شواغل الغرام وما انتهت اليه حالة من اليأس حتى كأن الايام قد كتبت عليه الشقاء. ولا يكاد يقترب من قصده حتى يفاجئه عارض يحول دون مرامه وأفضت به الحوادث الى ضياع كل آماله وفرار جبلة واهله الى حيث لا يدري احد. ولكن ظلمات تلك المخاوف كان يتخللها بعض النور مما يتوقعه من مساعدة سلمان ومشورته فزاد استئناسه به ولما رآه يشكو عليه ذلك الاطراء مال اليه وصافحه وقال له لا بل انك صديق واعز من الصديق وما نحن في معرض الانساب واذا يتصل احدنا بالآخر بما طبع عليه من مكارم الاخلاق والشهامة وصدق المودة ولقد رأيت فيك من ذلك ما يعز مثاله

فاطرق سلمان خجلاً ومشيا حتى دخلا الغرفة وكل منهما يتوقع سماع حديث الآخر فلما استتب بهما المقام قال حماد اين كانت مقامتك كل هذه المدة وما الذي جاء بك

الى هنا حتى التقينا على هذه الصورة

قال سلمان ان لقاءنا يا سيدي لم يكن على سبيل الصدفة ولكني قطعت القفار وأطلتُ البحث حتى علمت بمقرك وجئت على ما ترى . وقبل سرد حديثي الطويل ابشرك بموت ثعلبة

فتنهد حماد وقال لقد عرفت ذلك ياسلمان ولكنهُ جاءنا متأخرًا وقد كادت تنقطع منا الآمال

فقال سلمان وكيف ذلك

قال لاني سمعت بقتل ثعلبة وفرار جبلة في وقت واحد في هذا اليوم

قال سلمان واي فرار

قال لقد تحققت فرار الامير جبلة من بيت المقدس بأهلهِ الى حيث لا يعلم احد وقصَّ عليهِ مختصر الحديث من يوم مجيئهِ الى دمشق وسقوطها وسماعهِ بمقام هند في بيت المقدس وما سمعهُ من تيم الدير

وكان سلمان شاخصًا ببصرهِ مصغيًا بسمعهِ حتى اتى على آخر الحديث فامتقع لونهُ وظهرت عليهِ مظاهر الاسف والفشل ولبث صامتًا كأنهُ اصيب بصدمة وكاد الدمع يتناثر من عينيهِ ثم تنهد وقال الم تعلم الى اين سافر جبلة ياسيدي

قال كلاَّ ولولا ذلك لهان الامر

قال سلمان لا تيأس يا مولاي اني غير تارك وسيلة لا استخدمها في سبيل البحث عنهُ وبكنها الآن انما نخصها من [illegible]

فقال حماد وكيف عرفت مقامنا ومن هداك الى مكاني

قال ستعلم ذلك من سياق حديثي عن سبب تغيبي عنك

قال اقصص علينا خبرك

قال تركتكم في حوارين وسمعت اخبارك [illegible] حرها وكان جبلة في الامير جبلة الحارس [illegible] . علمت ان [illegible] دمشق حميت بالمسير اليكم ثم [illegible] انتصار [illegible] وكان [illegible] من رجاله وفيهم ثعلبة [illegible] حتى امرت بالمسير ملاقاة المسلمين في [illegible] فسرت اليها وشهدت [illegible] هائلة وقعت [illegible] الروم والعرب هناك [illegible] الولدان وفي

تلك الواقعة قتل ثعلبة وفشل جند الروم وفر الغساسنة · وكنت قد سمعت بحصار دمشق فآن لي ان اسير اليكم بالخبر فاسرعت الى بصرى فلم اجد احدًا منكم فظننت الراهب الشيخ ينبئني بخبركم فسرت اليه فاذا هو قد مات فاسفت لوفاته لعلمي انه لو كان حيًّا لهداني الى مقركم فمكثت في بصرى مدة ابحث عنكم واسأل كل من عرفته فلم يرشدني مرشد فظننت انكم في دمشق ولكنني استبعدت ذلك لما علمت من حصارها ثم ما لبثت ان سمعت بسقوطها فهممت بالمسير اليها لعلي ارى احدًا استطلع منه خبركم وفيما انا اهم بذلك رأيت جندًا من المسلمين قادماً الى بصرى فقلت لعلي التمس منه خبرًا فلقيت اميره مالك بن الحارث بن هشام وقد وجهه ابو عبيدة اميرًا على حوران بعد سقوط دمشق (١) وكان الحارث بن هشام والد الامير مالك قد جاء مع ابي عبيدة اميرًا في بني مخزوم لحصار دمشق (٢) فقتل في بعض الوقائع فلما سقطت دمشق تعين ابنه مالك اميرًا على حوران ليتخذ الجند الذي يقوم من الحجاز مددًا لابي عبيدة في حروبه بالشام (٣)

فلما وصل هذا الجند الى بصرى تمكنت بطرق مختلفة من الاجتماع بالامير مالك فاخبرني عما كان من نزولكم على ابي عبيدة في الجابية والمهمة التي انفذك بها هذا الامير الى حاكم دمشق الى ان اسرت في بحر وحملك الى بيت المقدس وخروج الامير عبد الله الى العراق فهرولت حتى انيت هذه المدينة وما زلت ابحث عن مقرك حتى علمت اليوم انك مقيم في هذا الدير وانك خرجت منذ الصباح فقعدت هنا في انتظارك حتى اتيت واحمد الله على سلامتك وارجو ان نلتقي بسيدتي والامير عبد الله قريبًا

فقال حماد لقد نفد الصبر يا سلمان واحتملت من غدر الزمان ما تعلم واراني قد مللت هذه الحياة المحفوفة بالمكاره الممزوجة بالمشاق ويخال لي ان الله لم يكتب لي نصيبًا بهند مع ما تعلمه من تعاقد قلبينا · قال ذلك وترقرقت الدموع في عينيه · وثارت الحمية في رأس سلمان حتى كاد يفقد رشده فنظر الى حماد وقال دع ذلك اليّ يا مولاي واتكل على الله واذا كانت هند مع ابي عبيدة فلنذهب اليه لعلنا

(١) تاريخ الاسلام [illegible] (٢) [illegible] (٣) وحارث بن هشام هو جد الامراء الشهابيين من عشائر [illegible] بين سنة [illegible] قرية [illegible] حوران اقام بها مالك بعد ذلك (ذكره تاريخ الاعيان نقلا عن سجلات محكمة صيدا الشرعية)

نستطلع منهُ خبرًا

فقال حماد ان لي عليهِ دالة عظمى ولقد اصبح بعد ما تمّ على يدي من صلح الشام كثير الوثوق بي حتى اشار يوم قدومي الى بيت المقدس الى انهُ ربما يحتاج اليّ فيها مثل حاجتهِ في دمشق فلا اظنني اذا استعنتهُ في البحث عن حملة الأ فاعلاً ما اريد

قال سلمان واين هو الآن

قال تركتهُ في دمشق يبعث البعوث لفتح ما بقي من بلاد الشام

قال اذا اذنت ان نذهب اليهِ غدًا فعلنا

قال حسنًا

فقال سلمان والاهتمام ظاهر على وجههِ اتقدم اليك يا مولاي في امر ارجو ان تطيعني فيهِ

قال وما هو

قال ارجو اذا نحن ظفرنا بحملة هذه المرة ورأينا منهُ ترددًا او سمعنا منهُ وعودًا ان لا نضيع الوقت في الانتظار والمماطلة عبثًا

قال حماد وما معنى ذلك

قال معنى ذلك يا سيدي ان تأخذ هندًا من بين يديهِ اراد هو او لم يرد

فضحك حماد وكان قد قضى زمنًا لا يضحك وقال سنرى في ذلك يا سلمان .

وقضيا بقية ذلك اليوم في الاحاديث المتنوعة وباتا على نية الاهتمام في الركوب الى دمشق في الصباح



الفصل الحادي والتسعون

حصار بيت المقدس

ولما اصبحا أخذا يتأهبان في الخروج وكان ذلك اليوم من الآحاد فقال حماد هلمّ بنا ندخل كنيسة القيامة ندرك سماع الصلاة قبل ذهابنا فخرجا حتى اتيا الكنيسة فرأيا جماهير الناس في صحنها ينتظرون قدوم البطريرك لاقامة الصلاة فوقفا بينهم فلم يسمعا

من احاديثهم الا ما يتوقعونهُ من قدوم العرب لفتح بيت المقدس ثم ماج الناس وتزاحموا يسابق بعضهم بعضاً فعلموا ان البطريرك قادم ولم تمض برهة حتى اطلّ بموكبهِ يتوكأ على عكازه يحف بهِ الاساقفة والقسيسون وقد اوقدت الشموع وفتح الناس طريقاً في وسطهم مرّ بها البطريرك وهم يتبركون بلمس ردائهِ حتى دخل الكنيسة فتبعوهُ حتى وقف عند الهيكل فبدل ثيابهُ بما يلبسهُ البطاركة اثناء الصلاة وعلى رأسهِ تاج مرصع بالحجارة الكريمة وعلى كتفيهِ قباء مزركش بالذهب والفضة وفي عنقهِ صليب مرصع يتدلى على صدره بسلسلة من الذهب وقد اوقدت الشموع واحرق البخور وعلت اصوات المرنمين والمصلين . ثم وقف البطريرك على عرشهِ وهو كرسي من العاج مزين بالفسيفساء الجميلة والتفت نحو الجماهير فعلموا انهُ يهمّ بالكلام فاصغوا اليهِ فقال بعد البركة

« اعلموا معاشر النصرانية ان رجال العرب الحجازيين الذين قد سمعتم بقدومهم هذه البلاد واستيلائهم على بصرى ودمشق قد استفحل امرهم حتى فتحوا حلب وحمص وبعلبك وقيسارية وقنسرين وانطاكية [1] وغيرها وقد بلغني في هذا الصباح انهم قادمون الى هذه المدينة المقدسة بجند كبير . وقد بلغكم على ما اظن خروج مولانا الامبراطور هرقل من بلاد الشام الى القسطنطينية لأحوال اقتضت ذلك وقد فوض الينا التصرف في امر هذه الحرب بالتي هي احسن ففاوضنا حاكم هذه المدينة فرأينا من الحكمة ان لا ندع لاولئك العرب سبيلاً لتخريب شيء من ابنيتها المقدسة فان فيها كنوز النصرانية بل ندافعهم بالامر الممكن فاذا رأينا خطرًا في مقاومتهم عقدنا معهم صلحًا نحفظ بهِ الارواح والاموال ونستبقي كرامتنا لا كما فعل اهل دمشق . فما علينا الا ان نصلي الى الله ان يؤيدنا بالنصر في الدفاع عن قبر ابنهِ المخلص وهذه حصوننا متينة وعندنا العدة والرجال فاسدوا الشقاق واطيعوا اولي الامر واعلموا ان الله لم يمكن هؤلاء العرب من بلادنا الا لما ارداه من الانغماس في دنيانا والانشغال عن طاعة الله بالشقاق والانقسام فلنجمع قلوبكم ولندافع جهد طاقتنا والله يفعل ما يشاء »

فلما انتهى البطريرك من خطابهِ ضج الناس وهم بين مصوّب ومخطّئ اما حماد فلما انقضت الصلاة خرج وهو يقول لسلمان لم تعد ثمت حاجة بنا الى دمشق فانا لا ألبث ان ارى انا عينيهِ هنا وبلوح لي اني ساخدمهُ في هذه المدينة خدمة اعظم

(١) ابن الاثير

شأناً من خدمتي في دمشق لان اهلها على ما يظهر اقرب الى الصلح من الدمشقيين ·
وسارا الى مرتفع من المدينة يطلُّ على ضواحيها وقضيا بقية ذلك اليوم يتشوفان لعلهما
يريان جند العرب قادمين واهل المدينة يتأهبون للدفاع و في صباح اليوم التالي رأيا
الغبار يتصاعد في الافق و بانت من تحته اعلام المسلمين وفي مقدمتها راية العقاب
فعلم حماد انهم رجال خالد بن الوليد وفي اليوم التالي جاءت فرقة اخرى نزلت في
جانب آخر من المدينة وما زالوا يرون كل يوم فرقة تأتي باعلامها وخيامها وتنزل
في ناحية من المدينة حتى صارت عدة الفرق سبعاً كل واحدة منها خمسة آلاف وجملة
الجند ٣٥ الفاً عليهم سبعة قوّاد عرف حماد بعد ذلك انهم خالد بن الوليد وشرحبيل
والمرقال ويزيد والمسيب وقيس المرادي وعروة بن مهلهل [1] ولما تحقق حماد
وسلمان انحصار المدينة على هذه الصورة جعلا يبحثان عن ابي عبيدة لعلة جاء معهم فلم
يريا رايته هناك ولكن حماداً كان يظن ان لا بد من حضوره فتح تلك المدينة

وقضيا اياماً يترددان بين اسوار بيت المقدس والدير يستطلعان مقاصد الروم
فرأيا الخوف مستولياً على الخاصة أما العامة فكانوا لا يزالون مصرّين على الدفاع فرموا
المسلمين بالنشاب عن الاسوار فاجابهم المسلمون بمثلها ومضت ايام والحرب سجال بين
الجانبين حتى ملَّ حماد الانتظار وعوّل على الخروج الى الشام لملاقاة ابي عبيدة وسؤاله
عن حملة فقال له سلمان ان الطريق لا يخلو من الخطر يامولاي واخشى اذا خرجنا
من المدينة ان يستغشنا اهلها فيريدوا بنا سوءا والاَّ فليكن خروجنا بحيلة فتربصا
بضعة ايام وهم في كل يوم يقفان في مشارف المدينة يطلان على ما وراء الاسوار من
السهول والمسالك فرأيا يوماً جيشاً جديداً قادماً من جهة دمشق عرفا انهُ جند ابي
عبيدة وفيهم رايته فاستبشر حماد وقال قد آن الوقت يا سلمان فلنسعَ في سبيل الى
الخروج فما الرأي

قال الرأي ان نحرض حاكم المدينة على محاربة العرب بشأن الصلح فلعله ان
يأذن بخروجنا او يخرج احدنا للمحاربة

قال حماد ومن يوصلنا اليهِ وانا لا اعرفهُ ولا هو يعرفنا ولا يثق بنا

(١) الواقدي وذكر ابن الاثير عمرو بن العاص وبين روايته ورواية الواقدي تباين
وكان ذلك في السنة الخامسة عشرة للهجرة

قال سلمان دع ذلك اليَّ فاني ادبره باذن الله . واطلعه على ما ينوي اجراءه

الفصل الثاني والتسعون

صلح بيت المقدس

ورجعا الى الدير ولبس سلمان احسن لباس عنده وسار يلتمس الحاكم فقيل له انه عند البطريرك في الكنيسة فسار اليه فرأى الخدم والحاشية وقوفاً امام غرفة الاستقبال لا يأذنون لاحد بالدخول فتقدم الى كبيرهم وقال له اني آت بمهمة ذات بال الى حضرة الحاكم فاستأذنه بالدخول عليه . واستأذنه فأذن له فدخل سلمان فاذا هو في غرفة قد خلا فيها البطريرك والحاكم وعلى وجهيهما دلائل الغضب وكأنهما كانا في جدال فسجد لدخوله امام البطريرك فقبل يديه ثم قبل يدي الحاكم ووقف متأدباً فاذن له بالجلوس فجلس فقال له الحاكم وهو مقطب الوجه ما غرضك

قال ان غرضي يا مولاي سلامة هذه المدينة من سلاح الاعداء وصيانة قبر السيد المسيح من الاهانة والاحتقار

قال ومن انت

قال اني تابع لامير من امراء العراق كان في حملة من شهد فتح دمشق وتوسط في صلحها بين الروم والعرب ولولا توسطه لاهرقت الدماء وخبرت بذلك بنفسه ولي مع امراء جند المسلمين معرفة ودالة

فقال الحاكم اتريد ان نلتمس الصلح من عند انفسنا ونحن لم نبد دفاعاً بعد

فقال سلمان كلا يا سيدي انما انا اعرض عليكم الامر عرضاً ولا غرض لي فيه سوى حقن الدماء

فقال البطريرك بورك فيك يا بني ولكننا لا نرضى ما رضي به اهل دمشق لان بيت المقدس قبر سيدنا ومخلصنا وما تسليمه بالامر الهين

فقال سلمان اتأذن يا مولاي بسماع رأيي لا [illegible]

قال قل

قال ارى انكم اذا حاربتم هؤلاء العرب بعد الصلح ان لا ترتبطوا معهم على يد احد

منهم اجلالاً لمقام هذه المدينة المقدسة وحفظاً لمنزلتكم ولكنكم تطلبون ان يتم ذلك على يد امير المسلمين الاكبر وهو سلطانهم وخليفتهم ومقامه في يثرب بالحجاز فاطلبوا ان يكون الصلح على يده فاذا رضوا به وأتى الخليفة بنفسه من كرسي ملكه الى هنا كان في ذلك حفظ لكرامة هذه المدينة وامتيازها عن كل ما فتح من مدن الشام قبلها

فامعن البطريرك بفكرته قليلاً ثم قال اين هو مولاك الامير

قال هو في منزله هنا فاذا امرتم باستقدامه فعلت

فامره باستقدامه فذهب سلمان وقد سرَّ بنجاح مهمته حتى اتى حماداً وكان في انتظاره فلما قص عليه ما دار من الحديث نهض فلبس لباس الامراء وسار مع سلمان حتى دخل على البطريرك والحاكم فلما رأياه استأنسا بطلعته وما يتجلى في وجهه من المهابة والجلال فاذنا بجلوسه ثم قال البطريرك هل تعرف قائد جند هؤلاء العرب

قال نعم اعرفه جيداً ولي معه صداقة

قال هل انبأك تابعك بما استقدمناك بشأنه

قال نعم وهو الامر الذي اراه انا ايضاً وقد شهدت حرب هؤلاء في دمشق وبصرى وغيرهما ورأيت من ثباتهم وصبرهم ما لا اقول ان الروم يعجزون عن مثله ولكنهم قد يقلقون راحة الناس فتقف حركات الاعمال بلا فائدة وخصوصاً بعد ان رسخت أقدامهم في كثير من البلدان وزد على ذلك ان السبيل الذي تطلبون محاربتهم به يحفظ مقام هذه المدينة وكرامتها الى الابد اذ لا يخفى على حضرتكم ان امير المسلمين المقيم في يثرب رجل عظيم جداً قد افرنقطيه القريب والبعيد وهو عندهم في ارفع منزلة بعد نبيهم لانه خليفته والقائم بأمره ولم يسبق انه قدم هذه البلاد لمثل هذا الشأن فقدومه بنفسه على ما ذكرت امتياز خاص ونظراً لما لي من الصداقة لدى الامير ابي عبيدة كبير امراء هذا الجند سأحبب اليه ان يجيب طلبكم ولا اظنه الا فاعلاً

فالتفت البطريرك الى الحاكم كأنه يستشيره فقال الحاكم لا بأس من ذلك غير اني لا ارضى ان يتهم هؤلاء انا خائفون او انا نطلب الصلح لعجزنا عن القتال

فابتدره حماد قائلاً لا تخف يا مولاي فاني اذا خاطبتهم انما احمل ذلك من عند نفسي على اسلوب ليس عليكم منه بأس غير اني التمس ان يحميني من يخرجني من الاسوار لئلا يستوقفني احد من رجالكم

فقال الحاكم لك علينا ذلك ونحن نطلب ان يبقى تابعك هذا هنا ريثما تعود

قال لا بأس بذلك وخرج حماد حالاً فركب جواده ومعهُ بعض اهل القصر حتى اوصلوه الى باب المدينة فخرج الى معسكر ابي عبيدة فلما رآه ابو عبيدة استقبله باسماً ورحب بهِ وقال لهُ ألعلك جئت بمهمة اخرى

قال اني لا آلو جهدًا يا مولاي في كل ما يؤول الى حقن الدماء

فقال ابو عبيدة هل جنح اهل بيت المقدس الى السلم

قال نعم يا سيدي اظنهم يريدون الصلح ولكني فهمت انهم رفعةً لمقام هذه المدينة المقدسة يريدون ان يكون صلحها على يد خليفتكم الامام عمر بن الخطاب ألا ترى انهُ يقدم اليها بنفسهِ وهي مدينة مقدسة يحترمها كل طوائف الناس

قال لا اظنهُ الاَّ قابلاً بذلك . وما بعد قولهِ

قال اذا آكدت لي قبولهُ جعلت المخابرة في ذلك رأساً بينكم وبين حاكم المدينة او بطريركها على مشهد من الناس واني انما جئت توطئة للامر بمهمة خصوصية

فأثنى ابو عبيدة عليهِ وقال لهُ لقد سعيت سعيًا حسنًا بورك فيك واذا تمَّ الصلح وقدم امير المؤمنين الى هنا سأقدمك اليهِ واذكر لهُ شهامتك

قال ان ذلك شرف كبير احسبني سعيدًا اذا حصلت عليهِ وانقدم الى مولاي الامير بسؤال ارجو ان لا يثقل عليهِ

قال قل وما هو

قال اتعرف جبلة بن الايهم امير الغساسنة الذي كان يحاربكم مع الروم

قال نعم اعرفهُ وما حديثهُ

قال ان لي معهُ امرًا يهمني وكنت احسبهُ في بيت المقدس فبحثت كما علمت فلم اجدهُ ولا احدًا من اهلهِ وقيل لي انهم كانوا هناك وخرجوا خروج الهاربين لا يعلم احد بمقرّهم فهل يعلم مولاي شيئاً عن هؤلاء الغساسنة

قال ابو عبيدة ان الذي اعرفهُ من امر هذا الامير انهُ خرج من بلاد الشام حملة هو واهلهُ وقد بعثت العيون عليهِ فاذا عرفت مقرّه انبأتك بهِ او ربما سمعت بقتلهِ بسيفنا الاَّ اذا سلَّم صاغرًا

قال وكيف نقتلونهُ وهو انما يحارب بسيف مولاه الامبراطور ولعلهُ اذا خيّر لا يختار غير التسليم

قال اما اذا سلم فهو في ذمتنا لهُ ما لنا وعليهِ ما علينا والاَّ فان السيف بيننا وبينهُ واخشى مع ذلك ان يكون قد قتل في بعض الاماكن ولم يعلم بهِ احد

فاضطرب قلب حماد وخاف ان يفتك المحاربون بحملة واهلهِ اذا التقوا بهم في مكان فوقع في حيرة ونظر الى ابي عبيدة وهو يهم ان يخاطبهُ في الامر ويوقفهُ الحذر

فلحظ ابو عبيدة ذلك فيهِ فقال ما لي اراك تحاذر ان تخاطبني فهل يسوءك قتل حملة

قال نعم يسوءُني يا سيدي

قال وهل بينكما قرابة

قال وقد تلجلج في الجواب نعم بيننا شبه قرابة

قال واي قرابة بينكما وانت من لخم وهو من غسان ... قرابة المصاهرة

فقال وهو مطرق نعم يا مولاي ثم رفع نظره اليهِ ... هل ... ن لي الامير بأمرٍ أتقدم اليهِ فيهِ

قال قل ما بدا لك

قال ان امر حملة يهمني كثيرا وحياتهُ اعديها بحياتي

قال وما معنى ذلك اني لم افهم السرّ فاذا كان بينكما ... ... لك لم تدافع عنهُ في شيءٍ ولا ذكرتهُ امامي في مثل هذا المعرض قط

قال ان الاحوال لم تلجئني الى ذلك قبل الآن اما وقد آن ... الانعطاف فأتجاسر في تلك امرًا يهمني كتمانهُ الآن ولكني اسطهُ لئلا يعود عليّ بالفائدة

قال قل ما هو

قال اعترف لمولاي الامير ايدهُ الله ان لي في حملة مأربًا يهمني كثيرًا ولا علم لي اي خطب اصابهُ وقد قضيت بضعة اعوام في انتظار وقت القران فحالت الحروب بيني وبينهُ وكان آخر عهدي بالامر ان اجتمع بهِ وباهلهِ في بيت المقدس فلما جئتهم رأيتهم قد رحلوا الى مكان لا تعلمهُ احد فبحثت اسعهم عن مكانهم . قال ذلك وقد ظهرت على وجههِ علامات الاهتمام يمازجها الحياء

فقال ابو عبيدة وهو ينظر الى وجهه يراعي حركاته « كيف هان على ملك غسان ان يزوجك ابنته وانت غريب ولست من سلالة الملوك »

فتغير حال حماد وعلا وجهه الاحمرار لما تذكر من حقيقة نسبه ولكنه تجاهل وقال « لقد عانينا في سبيل ذلك مشقة ولعلة النسب في تأخير الاقتران الى اليوم »

فقال ابو عبيدة طب نفسًا يا حماد واعلم اني نصيرك في الحصول على مرامك ولا يحق لجبلة ان يفاخرك في النسب وانت شهم همام قد رفعتك همتك الى اعلى من مقام الملوك وها اني باثٌ العيون والارصاد للبحث عن جبلة وساحملة على ما تريد قهرًا

فأثنى حماد على غيرته وشكر له وهمّ بوداعه على ان يعود الى حاكم بيت المقدس بنتيجة الرسالة فقال له ابو عبيدة تمهَّل ريثما اشاور الامراء في الامر

وامر فجاء خالد وسائر الامراء وخرج حماد فعقد ابو عبيدة مجلسًا شاور فيه الصحابة فلما انفض المجلس استدعي حماد فدخل على ابي عبيدة ولم يكن في الخيمة غيره فرآه عابسًا فقال له ما بال مولاي مقطب الوجه

فقال ليس بي بأس ولكني لقيت من الامراء رغبة في اجراء الصلح على يدنا استعجالاً للفتح . لان استقدام الخليفة من المدينة يستغرق زمنًا طويلاً وقد يمنع عن المجيء لما يحول بينه وبين ذلك من المشاغل الهامة

فادرك حماد ان البادي في ذلك الرأي خالد بن الوليد لما يعلم من عجلته ورغبته في الفخر فقال اظن الامير خالدًا اكثر الامراء ميلاً الى هذا

فلم يجب ابو عبيدة في بادىء الرأي فصمت حماد ولبث ينتظر الجواب فقال ابو عبيدة عُد الى حاكم ايلياء (١) وقل له اننا قبلنا باجراء الصلح على يد امامنا الخليفة امير المؤمنين واذا جاءهم احد من الامراء بغير ذلك فهم مخيرون في القبول او غيره

فنهض حماد فودعه واوصاه بالسعي في البحث عن جبلة ثم خرج يريد بيت المقدس ولقيه حماد فأخبره الخبر وسرّ لنجاح مهمته وقال له هلم بنا الى الحاكم فسارا اليه فلما اقبلا عليه استطلعها الخبر فقص حماد ما دار بينه وبين ابي عبيدة

فقال الحاكم لا نصالح احدًا غير الامام

(١) بيت المقدس

فقال البطريرك (وكان حاضرًا) وكيف نميز بين الامام وواحد الامراء لو جاءنا باسمو

فقال سلمان اني عالم بصفة امامهم وقد شاهدته بنفسي غير مرة في المدينة يوم شهدت فتح مكة وكان لا يزال اميرًا كسائر الامراء

وفي اليوم التالي صعد البطريرك والحاكم الى اسوار المدينة ومعهما حماد وسلمان متنكرين فلبثوا ينتظرون ما تكون من امر العرب فجاءهم رسول على جواد خاطبهم من اسفل السور يطلب اليهم التسليم فقال البطريرك انا نعمل بالصلح اذا كان على يد اعظم امرائكم

فمضى الرسول وبعد برهة عاد ومعه فارس آخر علموا من لباسه وحاله انه من الامراء فقال الرسول هذا هو كبير امرائنا فصالحوه

فنظر حماد فاذا هو ابو عبيدة نفسه فعلم ان رأي امرائه غلب على رأيه فجاء يطلب الصلح بنفسه فلما رآه البطريرك استطلع رأي حماد عن الرجل فقال هذا هو ابو عبيدة كبير امراء جند الشام

فقال اليس هو ملكهم الكبير

قال كلاَّ

فنظر البطريرك الى ابي عبيدة وقال انا لا نصالح احدًا غير خليفتكم المقيم في المدينة فاستقدموه واحقنوا الدماء

فعاد ابو عبيدة وفي اليوم التالي جاءهم خالد بمثل ذلك فأبوا مصالحته [1] واصروا الاَّ ان يأتيهم عمر نفسه وكان الفصل شتاء وقد تكاثرت الامطار والعواصف فامتنع على المسلمين الثبات هناك مثل ثباتهم في دمشق الشام لان اهل بيت المقدس مقيمون في البيوت والعرب في الخيام على انهم صبروا على محاربتهم اربعة اشهر بين حرب ونضال ومحاربة والروم مصرّون على ان يكون الصلح على يد الامام عمر فلم ير ابو عبيدة بدًّا من استقدامه فكتب اليه بذلك

اما حماد فكان يتردد الى معسكر ابي عبيدة يستطلع ما حدث من امر جبلة ويستحث ابا عبيدة على استقدام عمر قياماً بوعده فمضت الاشهر الاربعة ولم يقف لجبلة على خبر

(١) الواقدي

اما سلمان فانهُ لم يطق صبرًا في انتظار ابحاث ابي عبيدة فخرج بنفسهِ يستخبر الناس ممن ظن انهم يعلمون شيئًا عن جبلة واهلهِ فلم يسمع الاَّ اخبارًا متضاربة فمن قائل انهم فروا الى العراق او مصر او غيرها وقال آخرون انهم لا يزالون مختبئين في بعض بلاد الشام ولكن الاكثرين على انهم فروا الى العراق فعاد الى حماد بتلك الاخبار المتضاربة فلم تغنهِ شيئًا فاشتد اليأس وضاقت دونهُ السبل ولم يكن يرَ تعزية الاَّ بلقاء ابي عبيدة . فبينما هو عنده ذات يوم وسلمان ينتظر خارجًا اذ دخل عليهِ رجل منبسط الوجه كأنهُ جاء ببشارة فقال ابو عبيدة ما وراءَك

قال ان بالباب رسولاً من امير المؤمنين جاء مخبرا بقدومهِ

قال فليدخل فدخل الرجل وآثار السفر بادية على وجههِ وعلى ثيابهِ

فقال لهُ ابو عبيدة اين تركت امير المؤمنين

قال تركتهُ راكبًا من دمشق واسرعت لبشارتكم

فقال ابو عبيدة ما بالهُ ابطأ علينا

قال انما ابطأ لما اعترضهُ في طريقهِ من المسلمين يستفتونهُ ويتقاضون اليهِ وهو لا يرى الاَّ سماع اقوالهم والعدل بينهم

قال هكذا يكون الامراء بورك بطن حملك يا عمر . ثم بعث الى خالد وسائر الامراء يخابرهُ وانبأهم بقدوم عمر وقال فليذهب للقائهِ والتفت الى حماد وهمس في اذنهِ هلمَّ بنا لعلنا نسمع من اهل المدينة خبرًا عن صاحبك جبلة

فركب الامراء وركب حماد ومعهُ سلمان وقد شغلهُ ركوبهُ هذا عن اهتمامهِ بجبلة وحنه وكان الامراء بلباس الديباج والحرير (١) وقد امتطوا خيولاً فوقها السروج الفضة (٢) مما غنموهُ من دمشق الشام وغيرها الاَّ ابا عبيدة فقد كان على قلوصة (ناقة) وفوقهُ عباءة قطوانية وخطام الناقة من الشعر وساروا وقد تركوا الجند في مكانهم حول اسوار بيت المقدس وكان حماد مشتاقًا لمشاهدة عمر بعد ان تولى امر المسلمين وهو يتوقع ان يراه في موكب حافل كما تعوَّد ان يرى او يسمع عن ملوك الروم والفرس مما يبهر النظر ويستوقف البصر فكان كلما مشوا قليلاً تشوف عن بعد لعلهُ يرى الغبار او نحوهُ مما يتقدم المواكب فلم يرَ شيئًا

(١) ابن الاثير (٢) الواقدي

الفصل الثالث والتسعون

الامام عمر بن الخطاب

وفيما هو يتشوف رأى هجنًا قادمة فقال في نفسهِ هذه هي طليعة الموكب قد جاءت ببشارة فلما اقتربت رأى في مقدمتها هجينًا احمر عليهِ من الجانبين غرارتان وامام الرحل قربة الماء ووراءه جفنة للزاد وقد امسك بخطام الناقة بدويٌّ ماشٍ وعلى الناقة رجل ابيض الوجه مع حمرة تعلوه شديد حمرة العينين حسن الخدين والانف خفيف العارضين ضخم الكراديس على رأسهِ عمامة وعلى كتفيهِ عباءة من صوف عليها بضع عشرة رقعة بعضها من الجلد والبعض الآخر من الصوف [1] يحمل بيده درة هي عبارة عن سوط عريض من الجلد . فتحير حماد في امر هذا الهجان والتفت الى سلمان فابتدره قائلاً هذا هو الامام عمر يا مولاي ثم ما لبث ان رأى ابا عبيدة ترجل عن ناقتهِ واسرع نحوه وترجل عمر ايضًا وتعانقا فتحقق حماد انهُ الامام عمر فعجب لزهده ثم ما لبث ان سمع عمر ينتهر بعض الامراء فتقدم ليسمع كلامهُ فاذا هو يؤنبهم لما اتخذوه من لباس الديباج والحرير وقال لهم ما بالكم تمسكتم بالدنيا وغفلتم عن الآخرة ما هذه الملابس ايها السفلة اهل الترف وانتم في سبيل الجهاد قال ذلك وحثا عليهم التراب فقال ابو عبيدة انهم يا امير المؤمنين انما اتخذوه كساء خارجيًا وتحتهُ السلاح [2]

ثم نادى ابو عبيدة حمادًا فاقبل فقدمهُ الى عمر وقال لهُ انهُ شاب من امراء العراق كان لنا نصيرًا في حصار الشام وواسطة في صلحها

فرحب بهِ عمر والتفت الى ابي عبيدة وقال لقد اذكرني بجبلة بن الايهم الغساني ألم يصلك كتابي بشأنهِ

قال كلاَّ يا مولاي وما خبره

قال لهُ خبر طويل سأقصهُ عليك بعدئذ وهلم بنا الآن الى بيت المقدس وركبوا جميعًا

أما حماد فلما سمع اسم عمهِ جبلة خفق قلبهُ وتاق لسماع حديثهِ ولكنهُ لم يجسر على

(١) الواقدي (٢) ابن الاثير

التماس ذلك فاضطر للانتظار الى فرصة اخرى

وما زالوا سائرين حتى اشرفوا على بيت المقدس وحولها معسكر العرب ورأوا الاعلام عن بعد ولما اقتربوا من الخيام سمعوا صجيج الناس ورأوا جماعات منهم مهرولين لملاقاة عمر فرحب بهم واثنى على غيرتهم وشكرهم لحسن جهادهم وذكر ما فتح من المدن على ايديهم حتى اذا وصلوا معسكر ابي عبيدة نزل عمر في فسطاط من شعر نصبوهُ لهُ هناك ونزل الامراء معهُ وتزاحم الناس للتيمن بمشاهدتهِ وسماع كلامهِ ·

اما هو فجلس على التراب وجلس الجميع معهُ وحماد يعجب لزهدهِ وتواضعهِ

ثم نهض والقى عليهم خطاباً ثم جلس الجميع يتحدثون بامر الفتح وما لقوه من الجهد وما كان من فوزهم وكلهم فرحون وامارات الافتخار ظاهرة على وجوههم

وكان حماد ينظر ان يجري حديث جبلة لعل عمر ان يقص خبرهُ فاشتغلوا عن ذلك باحاديث الفتح ثم نودي بالصلاة

فخرج حماد وقد ملَّ الانتظار فقال ما قولك يا سلمان هل نسأَلهُ ليقص علينا خبر جبلة

قال لا حاجة بنا الى ذلك وانما يكفينا ان نسأَل ابا عبيدة وهو يطلب اليهِ

قال حسناً وسارا الى ابي عبيدة بعد الصلاة فلما وقع نظره على حماد قال لهُ غداً نسمع حديث امير المؤمنين عن جبلة واهل بيتهِ اما الآن فاطلب اليك ان تسير الى حاكم هذه المدينة فتبشرهُ بقدوم امير المؤمنين وقل لهُ ليخرج للصلح ومتى عدتَ من هذه المهمة قدمتك الى مولانا الخليفة فتنال منهُ بركة وحظوة

فخرج حماد وسلمان فانبأَا الحاكم والبطريرك بقدوم عمر فخرج البطريرك على الاسوار وطلب ان يرى عمر رأْي العين

فعاد حماد بالخبر فركب عمر ناقتهُ ومرقعتهُ وتقدم نحو الاسوار وابو عبيدة الى جانبهِ وكان حماد قد عاد الى الاسوار واشار الى البطريرك انهُ هو الرجل فاستغرب ما رآه من سذاجة لباسهِ وكثرة زهدهِ واعتبر بما انغمس فيهِ الروم من الترف والرخاء وما اراد الله من خضوعهم لاولئك العربان ثم نظر الى اعيان المدينة وكانوا وقوفاً معهُ على الاسوار وقال « اليكم يا اهل بيت المقدس هذا هو الرجل الذي تفتح بلادنا على يدهِ فاخرجوا اليهِ واطلبوا مصالحته واعقدوا معهُ الامان والذمة (١) » ففتحوا الابواب وكانوا

قد ضاقوا درعا عن احتمال الحصار وخرجوا افواجا وفيهم الرجال والنساء والشيوخ والاطفال وصاحوا بصوت واحد يستغيثون فلما رآهم عمر على هذه الحالة تخشع لله وسجد وهو على قتب بعيره ثم اناخ ناقته ونزل وقال للناس عودوا الى منازلكم ولكم الذمة والعهد

فعادوا ولم يقفلوا الابواب وعاد عمر الى معسكره وفي صباح الغد دخل عمر المدينة والناس يرحبون بهِ وقد رفعوا اصواتهم بالترنيم والترتيل وفيهم القسس في ايديهم المباخر حتى اتى سراي الحاكم قرب كنيسة القيامة واجتمع اليهِ الحاكم والبطريرك وكبار اهل الدولة وعقدوا صلحًا اقرّوا بهِ على اداء الجزية واوصى بهم الامام عمر خيرًا وهدأت الاحوال وسكنت القلوب (1) الّا قلب حماد فانهُ ما زال يتقلب على جمر الانتظار والتردد

الفصل الرابع والتسعون

﴿ جبلة بن الايهم ﴾

ومكث عمر في بيت المقدس عشرة ايام لم يخل يومًا واحدًا من الوفود من سائر انحاء سوريا وخصوصًا عظماء البلاد التي خضعت للمسلمين فانهم كانوا في اشتياق لرؤية الخليفة وفي اليوم الخامس من دخولهِ وهو يوم الجمعة خط عمر محرابًا في المدينة وفي موضعه بني جامعه بعد ذلك وفي ذلك اليوم سار حماد الى ابي عبيدة وشكا اليهِ قلقهُ ورغبتهُ في سماع حكاية جبلة من لسان الامام عمر فاستمهلهُ الى المساء وقال لهُ ان امير المؤمنين سيخرج من المدينة بعد صلاة العصر ليصلي العشاء مع باقي الامراء في فسطاطه وسنقضي السهرة هناك فيقص علينا الخبر

وفي العصر خرج حماد وسلمان الى معسكر ابي عبيدة حتى اذا كان العشاء وصلى المسلمون سارا الى خيمة الامام عمر فلقيهما الحاجب فاستاذن لهما فدخلا وجلسا في بعض جوانب المكان وكانت الخيمة كبيرة وفيها زهاء خمسين رجلاً

(1) فتحت بيت المقدس سنة ١٥ هـ (ابن الاثير)

وكان الجميع جلوسا على ... ما ... عين الى الامام عمر ان يقص عليهم حكاية

... ونبرت ... بسبب ...

جبلة بن الايهم ملك غسان وما ... امره

فقال الامام عمر ماذا تعلم انتم

قال ابو عبيدة نعلم انه فر بأهله الى مكان لا نعلمه

فتبسم عمر وقال انه لم يبرح المدينة بعد فتح دمشق يلتمس الدخول

في الاسلام فقبلت منه ذلك في الاسلام واقام بيننا في اهل منزله معززاً

مكرماً واذنا له ان يبقى على ما امن فاخر اللباس من الحرير والديباج وركوب

الخيل مسرجة بالسروج التي بسلاسل الذهب في اعناقها واذا ركب وركبت

حاشيته عقدوا ادباب الحلي ... حتى لا تبقى واحدة من نساء المدينة الا

وتخرج لمشاهدتهم (١)

ولكننا ما برحنا ... الاستبداد والظلم مما يأباه عدل الاسلام لان

هؤلاء العرب المتنصرة ... واستعملوا دياناتهم وتخلقوا باخلاقهم ولا يخفى عليكم

ما في دولة هؤلاء الروم ... طبقات رعاياهم فيا كل القوي منهم الضعيف

بغير وجه الحق فاراد جبلة ... ذلك فاوقفناه عند حده

ومما دعانا الى ... حادثة جرت لرجل من فزارة مع جبلة وذلك

اننا خرجنا مرة للحج و ... في البيت ومعنا جبلة وجمع غفير من المسلمين

وفي حملتهم رجل من فزارة ... ازار جبلة فانحل الازار فغضب جبلة

ورفع يده وضرب الفزا ... الي هذا الرجل يشكو ما الم به فبعثت الى

جبلة فاتى فقلت ما هذا ... فقال انه لانه تعمد حل ازاري ولولا حرمة

الكعبة لضربت بين عينيه ...

فلما قال ذلك

اقررت بما ارتكبته فعليه

فعظم ذلك على الغساني

(١) الاغاني ...

فقال كيف ذاك يا امير المؤمنين وهو نا مُلك

قلت ان الاسلام جمعك واياه فلست بشيء الا التقى والعافية

فقال وقد خاب ظنه «كنت ظننت يا مؤمنين اني اكون في الاسلام امنع مني في الجاهلية»

فقلت دع عنك هذا فانك ان لم ترض ، اقدته منك

فقال اذاً انتصر

فقلت له ان تنصرت ضربت عنقك لانك اسلمت فان ارتددت قتلتك

فلما رأى ان الايهم ما صممت عليه . . قال لي اني ناظر في ذلك ليلتي هذه

قلت انظر ما شئت ثم انصرف ولم اعد ادري مقره . وقد كتبت اليك بشأ نهِ والتمست ان تبحث عنهُ فهل علمت . . .

قال ابو عبيدة كلاَّ يامولاي انا قصدت . . . بحث عنهُ فلم نقف لهُ على خبر

الفصل الخامس . . . ن

مشورة و . .

وكان حماد يسمع حديث عمر وهو شاخص بطول عنقهِ وقلبهُ يخفق في انتظار آخر الحكاية فلما اتى عمر على آخر كلامهِ انقبض حماد وعظم عليهِ الامر وهم بمخاطبة عمر يستطلعهُ رايهُ في مصير جبلة واهلهِ فاقعده المجلس ومقام الخليفة وما صدق ان ارفض الجمع حتى خلا بسلمان ووقفا بالقرب معسكر ابي عبيدة فقال حماد ما رأيك يا سلمان

قال لقد هان الامر يامولاي والراي عندي بحث عن جبلة في الطريق بين المدينة والشام اذ لا اظنهُ اذا فرَّ من الحجاز الاَّ قاد اطراف الشام او البلقاء او . ر ولا بد لهُ في كل حال من لدبر واذا اشكل الامر اكثر

فتأفف حماد وتذمر ولكنهُ فكر في الامر فرأى كلام سلمان معقولاً فظل صامتاً برهة وسلمان ينظر اليهِ ويتأمل حالهُ فرآه غارقاً في بحار الهواجس وقد تولاه الانقباض وغلب عليهِ اليأس فقال لهُ ما بال مولاي لم يعتد بكلامي العلي مخطئ في ما اقول

قال لا اقول مخطئاً ونعمّ الرأي رأيك ولكني افكر ياسلمان في هند كيف طال هذا الامد ولم يصلني منها علم ولم اسمع عنها خبرًا مع علمها ذهابي الى بيت المقدس بعد فتح الشام

قال لا تلمها يا سيدي ألا تعلم انها فتاة لاتستطيع المجاهرة بامرها فضلاً عما كانوا فيهِ اثناء فرارهم من الخوف والاهتمام واقاموا في المدينة غرباء ثم عادوا فارس كما قد رأيت فهل نستطيع هذا امرًا

فقال حماد لا ادري ولكني اراني مقيد الفكر مغلول اليدين والامير عبد الله بعيد عنا لا نعلم حربهُ ولا ما لاقاه في العراق

قال سلمان اما الامير عبد الله فانت تعلم انهُ من الحكمة والتعقل في ما لانخشى عليهِ معهُ بأساً ولا بأس ان يعود الينا وقد نال حظوة في عيني المسلمين ولكن . . وصمت

فقال حماد ما بالك صمتّ قل ما في نفسك

قال سلمان ماذا اقول ونحن كما قلت مقيدو الفكر مغلولو الايدي

قال وما ذا تعني

قال اعني يا مولاي اننا شغلنا بحروب الشام والتماس ملك غسان عن امرانا اتينا هذه البلاد من اجلهِ ولولاه لكان مقامنا في العراق معًا ندافع عن دولة الفرس دفاعنا عن انفسنا

فانتبه حماد الى حكاية الندر وحقيقة نسبهِ وما لهُ من الثأر على الفرس فقال لقد صدقت يا سلمان اننا تقاعدنا عن ثأرنا واشتغلنا بهام انفسنا عن وصية والدي ووالله لولا فرغت من مشاغلي المتواترة وخلوت بنفسي يومًا واحدًا مذ اقمت في هذه الديار لكنت اول ناهض الى العراق لدفع [illegible] تلك الدولة الظالمة واني لواثق بقرب سقوطها لما علمتهُ من تحمس العرب وفساد احوال الفرس وانقسام حكامهم بعضهم على بعض

فقال سلمان اذًا نسير الى العراق ...

قال حماد بصوت مختنق ونفس صغيرة «وهند» ونظر الى سلمان فكأن لنظرته وقع السهام على قلب سلمان فنظر اليهِ وتبسم ثم همَّ بهِ وضمهُ الى صدره وقال لهُ ان هندًا في المقام الاول يا مولاي ثم الثأر

فتنهد حماد وقال لا بل الانتقام للملك النعمان قبل كل شيء. هكذا اوصانا بصوتهِ المنبعث من ظلمات القبر ولكن .. . قال ذلك وترقرقت الدموع في عينيهِ

فابتدره سلمان قائلاً ان كلا الامرين مستدرك فلنبحث اولاً عن مقر هند فاذا التقيتما بها وكان السفر الى العراق مستعجلاً وكان احل العرس قريبًا أجلت الاقتران الى ما بعد الرجوع منها وسقوط دولة الفرس والاَّ فانك تتزوج ثم نسير. فقم بنا الى بيت المقدس وعدًا نستطلع اخبار العراق ثم نسير للبحث عن جبلة واهلهِ في اطراف الشام وحوران ويفعل الله ما يشاء

فقال حماد حسنًا ترى ولكن ذهابنا الى بيت المقدس في هذا الليل لا يخلو من المشقة فضلاً عن الخطر وقد دعانا ابو عبيدة للمبيت عندهُ فلنبت هنا الليلة وغدًا لناظره قريب

قال حسنًا وتحولا نحو الفسطاط وقبل الوصول اليهِ سمعا اصواتًا عرفا انها اصوات القراء يتلون القرآن والناس يصلون فتنحيا برهة حتى فرغوا من الصلاة فدخلا على ابي عبيدة فقال لهما اين ذهبتما وانا ابحث عنكما منذ خروجكما من مجلس الخليفة

فقال حماد لقد كنا في شأن جبلة وحديثهِ ولم يردني حديث امير المؤمنين الاَّ تلبكًا فلا ادري اين هو هذا الرجل الآن

فقال ابو عبيدة سنبحث عنهُ في سواحل الشام لعلهُ يقيم في مكان هناك او اذا كان قد خرج منها الى بلاد الروم او مصر او غيرهما عرفنا خبره

فقال سلمان ونحن نرى ان نفتش عنهُ في اطراف الشام وحوران لعلنا نسمع عنهُ شيئًا في بعض الدور. قال ابو عبيدة نعم الرأي رأيت وسيكون بحثنا وبحثكم معًا فمن استطلع امرًا اطلع الآخر عليهِ

فقال حماد وماذا تعلمون من اخبار العراق وفارس فان والدي لم يكتب اليَّ شيئًا منذ سفره

فقال ابو عبيدة ان ما اتانا به مولانا امير المؤمنين يسرّ كل مسلم فان النصر معقود لواؤه لجنود المسلمين حيثما ولوا وجوههم وقد كان الامام عمر على موعد من موقعة هائلة بين المسلمين والفرس في القادسية فخرج من المدينة وهو في انتظار البريد يخبرها وقد ابطأ عليه فاوعز الى نائبه في المدينة اذا جاء بريد العراق ان يسفذه اليه في بيت المقدس حالاً فنحن ننتظر ورود البريد(1) انتظار الظمآن لموارد الماء. وكلنا على يقين من نصرة رجالنا مهما تكاثرت جنود الفرس وافيالهم ودوابهم فما هم اشد وطأة من الروم بل نحن اشد وطأة على الفرس منا على الروم لان هؤلاء اهل كتاب قد اوصينا بهم خيرًا واما الفرس فانهم مجوس يعبدون النار(2) فضلاً عن اختلال احوال مملكتهم وتنازع دعاة الملك على كرسيهم فقد توالى على ايوان كسرى بضعة ملوك في عام واحد بعضهم نساء والبعض الآخر من الرجال وملكهم الآن يزدجرد بن شهريار ابن كسرى انوشروان وهو ضعيف الرأي لا يستطيع القيادة فهل يعقل ان جدهُ يغلب جد امير المؤمنين عمر بن الخطاب وعلى كل حال ان موعدنا من اخبار النصر قريب ان شاء الله

ثم امر بعض رجاله فاعدوا خيمة للضيفين فباتا تلك الليلة واصبحا وقد قام الامام للخطابة والصلاة فاذن المؤذنون وصلى المصلون فتنحى حماد وسلمان ومشيا خارج المعسكر يتحدثان في تلك الشؤون فوقع نظرهم على هجين قادم من عرض الافق بسرعة البرق فقال سلمان هذا هو صاحب البريد على ما اظن فوقفا فاذا به دار حتى اتى معسكر ابي عبيدة وترجل عند فسطاطه فاسرعا الى الفسطاط فرأيا ابا عبيدة خارجًا من خيمته ومعهُ الهجان وهو لا يزال بغباره وقد مشى وهجينهُ وراءه حتى اتوا فسطاط عمر فدخلوا جميعًا ودخل حماد وسلمان معهم فرحب عمر بهم وخاطب صاحب البريد قائلاً ما وراءك يا رجل فقال ما ورائي الاَّ الخير ومد يده فاستخرج من بين اثوابه صندوقًا ففتحهُ واستخرج منهُ ملفًا من جلد ناولهُ الى الامام عمر ففضهُ ودفعهُ الى بعض حاشيته وقال اتلهُ علينا لنرى ما كان من امر المسلمين في العراق

فتناول الرجل الكتاب ووقف واخذ يقرأ والناس سكوت واذا فيه

(1) ويقال ان معاوية اول من رتب البريد (2) ابن خلدون جزء 2

الفصل السادس والتسعون

﴿ وقعة القادسية ﴾

« الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب من سعد بن مالك امير جند العراق اما بعد فاني اكتب اليك تفصيل واقعة القادسية التي فاز بها المسلمون على اهل فارس واليك هي · جئنا يا امير المؤمنين بجنود المسلمين ممن تعلم مع ما انضم اليهم من جند الشام وجملتهم جميعاً ٠٠ و٣٥ ونزلنا في القادسية بين العقيق والخندق بحيال القنطرة والقادسية يا امير المؤمنين واقعة في راس بحيرة وراءها مضيق من البر يفصل بين الحيرة والفرات فاقمنا هناك شهرين ندافعهم تارة ونطاردهم اخرى حتى ملوا ما فكتبوا الى ملكهم يزدجرد وشكوا ما يقاسونهُ وقالوا انا احرسنا ما بيننا وبين الفرات ونهبنا الدواب والاطعمة فبعث يزدجرد الى رستم كبير قواده والحَّ عليهِ أن يقدم هو بنفسهِ لقتالنا فجاء وعسكر في ساباط · وقد كتبتُ اليك بذلك في حينهِ فكتبتَ الينا ان لا يكربنا ما يأتينا عنهم فاستعنَّا الله وارسلنا نفرًا من المسلمين الى يزدجرد في المداين يدعونهُ الى الاسلام او الجزية او السيف فاستقدم رستم اليهِ واستشاره فيما حاولوا من اجلهِ فلما سمع مقالهم تهددهم وتوعدهم ثم وعدهم بقوت ومالٍ وكساء فاجابوه بكلام شديد فاخرجهم من المداين مهانين فلما رأينا ذلك منهم جعلنا نغزو ما حولنا من البلاد والقرى نسوق اغنامها وابقارها واسماكها وابلها · فلما بلغ رستم ذلك حمل بجند عدده مئة الف وعشرون الفاً (١) اربعون منها يقودها رجل اسمهُ الجاليوس والباقون يقودهم رستم فجاؤونا في هذا الجند الثقيل ومعهم الفيلة والخيول وكانوا لا يمرون ببلدة الاَّ اساؤوا اهلها وشربوا خمورها واكثروا من الفساد فيها فنقم الناس عليهم وقد علمنا من بعض اسراهم انهم قضوا في انتقالهم هذا من المدائن الى القادسية اربعة اشهر فلما وصلوا القادسية عسكروا بحيالنا ورأينا معهم فيلة بعضها مشهور عندهم بالفتك كالفيل المسمى فيل سابور الابيض وغيره فنظم رستم جيشهُ فجعل من الافيال ١٨ في الوسط و١٥ في المجنبتين ثم انفرد هو في مكان مشرف ينظر منهُ الى جندنا وبعث الينا ان

(١) ابن الاثير

تواقفية برجل منا يكلمه فارسلت اليهِ واحداً فاخبرني لما عاد انهُ دخل على رستم فاذا هو جالس على سرير من الذهب وبين يديهِ البسط والنمارق والوسائد المنسوجة بالذهب فلما وصل رسولنا بعباءتهِ ودرعهِ وسيفهِ لم يبهرهُ ما رآه هناك من بهارج الدنيا فقاد جواده فوق البسط وشق وسادتين ربطهُ بهما فسأَلوه ان يضع سلاحه فأَبى حتى اقبل على رستم فابتدره ترجمانهُ وهو من اهل الحيرة واسمهُ عبود فسأَلهُ عما جاء من اجلهِ . فاجابهُ بالدعوة التي تعلمونها فعظم ذلك عليهم وقالوا « كيف تطلبون قتالنا او الجزية وقد كنتم في قشف ومعيشة سيئة لا نراكم شيئاً وكنتم اذا قحطت ارضكم استعطيتمونا فنأْمر لكم بشيء من التمر والشعير ونردكم ولا نظنكم قادمين علينا الاَّ من الجهد فانا آمر لاميركم بكسوة وبغل والف درهم ولكل منكم وقر تمر وتنصرفون عنا » فاجابهُ الرسول بما اسكتهُ وبعد جدال طويل غضب رستم واقسم ان النهار لا يطلع قبل ان يقتلنا اجمعين فقال لهُ الرسول من يُقتل منا يدخل الجنة . وارسلت اليهِ رسلاً آخرين يدعونهُ الى ما هو خير لنا ولهُ فاجابهم بمثل جوابهِ الاول فلم يجدنا ذلك نفعاً

« وفي اليوم التالي جلس رستم على سريره وضرب عليهِ طيارة وعبَّى الافيال كما ذكرت واتخذ في ايصال خبر الحرب الى ملكهِ يزدجرد طريقةً اعجبتني ولعلي متخذها في بعض حروبي ان شاء الله وذلك انهُ جعل بينهُ وبين يزدجرد رجالاً على كل دعوة رجلاً اولهم على باب ايوانهِ في المداين وآخرهم عند رستم فكل مافعل رستم شيئاً قال الذي معهُ للذي يليهِ كان كذا وكذا ثم يقول الثاني ذلك للذي يليهِ وهكذا الى ان ينتهي الى يزدجرد في اسرع وقت وكنت يا اَمير المؤْمنين مصاباً بدمامل وعرق النساء فلا استطيع الجلوس وانما كنت اجلس مكبًّا على وجهي وصدري فوق وسادة على سطح القصر اشرف على الناس وارى قتالهم ولكن الله اعاننا بمنهِ وكرمهِ فاننا لما رأَينا الفرس يتهيأُون للقتال بعثنا الخطباء في الجند وقرأْنا سورة الجهاد ثم صلينا الظهر وكبرنا اربعاً فزحف الجند وتلاحم الجيشان ووالله يا امير المؤْمنين لقد كنت ارى جند فارس يتهالون كالسيل وفيهم الافيال كالامواج المتلاطمة وهي تثور فتلتقف الرماح والنبال بخراطيمها وتدوس الناس والخيول بحوافرها فهالني امرها فقلت يا قوم اما من حيلة لها فرماها بعض المسلمين بالنبل فقتل ركابها وتقدم آخرون فازاحوا عنها

ثوابيتها فتلبكت حركاتها وفسد نظامها تجاه المساء. وقد قتل من الفرس جند كثير وفي اليوم الثاني وصلتنا نجدة أهل الشام التي ارسلها ابو عبيدة فهاجمنا الفرس حتى كدنا نقبض على رستم ولكنهُ نجا وفي اليوم الثالث لقي الجندان شدة وجهداً اما نحن فواصلنا العمل في الليل وكانت ليلة سميناها ليلة الهرير لان رجالنا لم يكونوا يتكلمون وانما كانوا يهرون هرّاً فنقلنا الجند الى مكان يأخذ العدو من خلفهم ففعلنا ذلك وهم لا يعلمون

« ولما اصبحنا هاجمنا اعداء الله من كل جانب فشتلوا واختل نظامهم ووصل بعض رجالنا الى سرير رستم وقد اطارت الريح الطيارة عنهُ فاستظل بظل بغل فقتلوه وقتلوا الجاليسوس فانهزم الفرس شرَّ هزيمة فتعقبتهم رجالنا وغنمنا اسلابهم وانتصرنا نصراً مبيناً (١) ونحن سائرون الآن لفتح المدائن بعون الله تعالى » انتهى

فما فرغ القاري من قراءة الكتاب حتى ضج المسلمون بالتكبير والشكر لله على ذلك الفتح اما حماد فانهُ صبر على سماع الخبر رغماً عنهُ فلما تفرق الناس خرج حماد وسلمان فقال سلمان يظهر ان اجل الفرس قريب وسيفتح المسلمون عاصمتهم فيندك عرشهم ويكون ذلك جزاء ما كسبتهُ ايديهم من قتل الابرياء

فقال حماد ولكننا لم نستفد شيئاً عن الامير عبد الله ولا عن جبلة ألا تظن صاحب البريد يعلم شيئاً عن ذلك

قال ربما كان على علم فهلم نستطلعهُ وسارا يبحثان عنهُ فاذا هو قد خرج الى خيمة بعض الجند للاغتسال والوضوء وتناول الطعام

فقال سلمان اظن صاحب البريد يحتاج الى الراحة بعد سفره الطويل فلندعه وشأنهُ على ان نعود اليهِ في صباح الغد

قال حماد لقد احسنت رأياً وانصرفا الى خيمة للاستراحة



(١) قيل كانت هذه الواقعة سنة ١٤ للهجرة وقيل ١٥ وقيل ١٦

﴿ فتاة غسان ﴾

الفصل السابع والتسعون

﴿ ويأتيك بالاخبار من لا تسائلهُ ﴾

تركا حماداً وسلمان وقد انصرفا الى خيمةٍ يلتمسان الراحة ريثما يتمكنا من مقابلة ساعي البريد واستطلاع خبر حبلة وعبدالله وفيما هما صائران الى الخيمة رأيا عجوزاً حدباء عليها سمات الفقر وغبار الاسفار قادمة نحوهما تتوكأ على عكاز وقد لفّت راسها بخمار فظنّاها من المتسولات فلم يعبأ ا بها وظلاّ في طريقهما حتى دخلا الخيمة وليس فيها سواهما وما لبثا ان جلسا حتى رأيا تلك العجوز قد شقّت حجاب الخيمه بعصاها ودخلت بلا استئذان فصاح بها سلمان ما غرضك يا خالة

فلم تجبهُ وظلت داخلة حتى دنت من حماد وحسرت اللثام عن وجهها فاذا هي خادمة هند التي لقيها في دمشق فخفق قلبهُ لرؤيتها وشعر بانعطاف نحوها وقد تنسم منها رائحة حبيبتهِ فبغت وصاح بها ما خبرك واين هند

قالت تمهَّل ريثما استريح فاخبرك الخبر وقد جبت البلاد وفحصت العباد وانا في هذا الزيّ ابحث عنك فلم اقف لك على خبر وقضيت حول هذه المدينة اياماً لا يخبرني احد عن مقامك ولا انا استطيع المجاهرة باسمك لان حالنا تدعو الى الاستتار .

قالت ذلك وهي تبحث عن وسادة تجلس عليها وتنظر الى خارج مخافة ان يسمعها احد فجلست وعينا حماد تراعيانها وقد نفد صبره في استطلاع حال هند فقال لها اخبريني عن هند قبل كل شيء هل هي في خير

قالت كن مطمئنًا انها في خير وسلامة لاترجو الاَّ لقاءك

فقال اين هي

قالت لا ادري اين هي الآن ولكني اعرف الخطة التي ستسير فيها فاذا قصصت عليك الحديث من اولهِ هان عليك فهم الحقيقة

قال قولي باختصار ولبث صامتاً مصغياً لما تقولهُ

فقالت تركتني في دمشق بجوار كنيسة مريم فاسرعتُ الى ما بين يديَّ مما

بُحمل واكتريت بغلة ركبتها حتى اتيت بيت المقدس . وكانت سيدتي هند ووالدتها وسائر اهل القصر مقيمين في ديرهذه المدينة فاساءتهم سقوط دمشق فخافوا ولكني طمأنت هندًا واملتها بقرب مجيئك فهان عليها كل عسير ولبثنا ننتظر ذلك اليوم . ولكن الامر جاء بالعكس فان سيدي الملك جبلة بعث الينا في اليوم التالي ان نتأهب للرحيل سرًّا ثم جاء هو وامر ان نسير على عجل بما خفّ حمله وغلا ثمنهُ ولم يجسر احد من اهلهِ ان يسألهُ عن جهة المسير ولولا ذلك لبقيت انا هنا لاخبرك بمكانهم . رحلنا وقد اسرَّت مولاتي هند الي انها حالما تعرف المكان الذي سنقيم فيهِ تبعث بخبره اليك

فسرنا اياماً وليالي ولم نحط رحالنا الاَّ في المدينة مقام خليفة المسلمين الذي سمعتم الكتاب يتلى بين يديهِ الآن وقد كنا في خوف عظيم ولكننا آنسنا اكرامًا وحسن وفادة وبلغني ان سبب سلامنا اعتناق سيدي الملك ديانة هؤلاء الفاتحين فلما طبنا المقام استقرَّ بنا لم يبق على سيدتي الاَّ ان تبعث اليك بذلك وقد فاتني ان اخبرك بوفاة ثعلبة او لعلك سمعت بهِ قبلاً

قال حماد لقد سمعنا خبره رحمهُ الله

قالت ولم نكد نتوسم الراحة ونحيي الامل حتى جاءنا سيدي الملك بجبلة وبغتة كما فعل يوم خروجنا من هنا فتأهبنا وخرجنا في ليل دامس خفنا فيهِ خوفًا شديدًا ولكن بعض خيراننا اليهود من اهل المدينة كانوا لنا عونًا في مسيرنا الى ما وراء اسوارها وفي اليوم الثاني تحققنا اننا قاصدون بلاد الشام فرأيت في سيدتي هند ارتياحًا الى هذه الوجهة على رجاء ان نقرب منك فقضينا في طريقنا هذه مدة طال امدها ونحن نسير ليلاً متنكرين ونختبئ نهارًا ولا نقيم الاَّ في الاديرة لانها آمن مبيت او مقام لاهل النصرانية وكنا نمكث في بعضها اياماً واسابيع قالت ذلك وخفضت صوتها لئلاَّ يسمعها احد وجعلت تتطلع من باب الخيمة خوفًا ممن يتجسس او يتسمع فقال لها سلمان تكلمي لا تجزعي فان ليس في هذا المعسكر من يظن بنا سوءًا ولكن اخفي صوتك

قالت وآخر مكان اقمنا فيهِ دير بحيراء ولا تسل عن حالنا لما اطللنا قبل ذلك على صرح الخدير وبستانهِ وميدانهِ وما استولى عليهِ اولئك المحاربون من المغارس والابنية التي بناها الملوك الغساسنة منذ اجيال وقد رأيت في وجه سيدي الملك علامات الغضب والقلق حتى كادت الدموع تتناثر من عينيهِ لولا عزة النفس . اما

سيدتيّ سعدى وهند فقد نكتا واطن هندًا اما نكت لتذكرها امرًا وقع لها في ذلك الصرح والخلاصة انا لم نصل دير بحيراء حتى اخذ اليأس من سيدي الملك كل مأخذ لما ذاقهُ من ذل التنكر في بلاد كانت طوع اشارتهِ لا يمرُّ بها الاَّ محفوفًا بالجنود والاعوان فنصب لهُ الاعلام و يحتفل اهلها بقدومهِ فكيف يمرُّ الآن متنكرًا يخاف ان يعرفهُ احد (قالت ذلك وشرقت بدموعها فمسحتها بطرف خمارها) .

فتأثر سلمان وحماد لكلامها و عظم عليهما ما آلت اليهِ حال الغساسنة وتصوَّر حمادٌ ان حال ملوك الحيرة ستؤول الى مثل ذلك فشكر الله في باطن سرِّهِ لان سقوطهم سيكون على يد غير يدهِ

واتمت المرأة حديثها فقالت في ذات ليلة دعا سيدي الملك سيدتيّ سعدى وهندًا وخلا بهما في حديث طويل وفي الصباح التالي دعتني سيدتي هند واسرَّت اليَّ ان ابحث عنك في بيت المقدس فما حولها حتى اقف على مكانك واطمئنك عنها واخبرك انهم ساروا الى العراق وسيقيمون في دير هند بعيدين عن الشام والبلقاء لانهم لا يستطيعون صبرًا على ما خرج من ايديهم ان يروهُ كل يوم رأي العين وايدي العاليين فوقهُ

فلما سمع ذكر دير هند أجفل وقال اي دير تعنين

قالت دير هند في ضواحي الحيرة

فنظر الى سلمان وقال اعهد دير هند في الحيرة وليس خارجها فما هذا الدير

فقال سلمان ان في الحيرة ديرين ينسبان الى هند احدهما الاصغر وهو في الحيرة والآخر في ظاهرها اما الاول فقد سمي باسم اخت هند بنة لما قبض كسرى على المرحوم والدك الملك النعمان في اوائل حكمهِ وحبسهُ قبل ان تولاه ثم باعوام وندرت شقيقتك هند ان ردَّهُ الله الى ملكهِ ان تبني ديرًا وتسكنهُ حتى تموت فلما اطلق سبيل والدك فعلت ذلك ومكثت في ذلك الدير [1]

واما الدير الاكبر وهو ما تسموهُ دير هند الكبرى فقد بنتهُ هند بنت الحارث بن عمر بن حجر آكل المرار الكندي بظاهر الحيرة [2] وهي من كندة ولست من لخم والدير كبير اذكراني زرتهُ غير مرة وكان رهبانهُ يترددون على منزل سيدي الامير عبدالله للمداولة بشؤون تتعلق باملاك لهُ هناك يأمُّ هذا الدير اناس من جهات

(١) ياقوت (٢) المشترك

العراق وغيره يقيمون فيهِ اياماً وفيهِ ما يحتاجون اليهِ من الزاد ونحوهِ

ونظر حماد الى المرأة وقال هل تظنين هنداً في ذلك الدير الآن

قالت لا ادري اذا كانت لا تزال هناك لانها اوصتني بما تقدم منذ بضعة اسابيع قضيتها في البحث عنك ولكن سيدتي سعدى اسرّت اليَّ بعد خروجي من بين يدي هند ان مولاي الملك جبلة انما يريد الشخوص الى القسطنطينية ليقيم بقرب امبراطورها هرقل معززاً مكرماً وانهُ سيجعل طريقهُ في الفرات ومنهُ برّاً في البلاد التي لم يصل سيف المسلمين اليها اما سواحل الشام فانها في ايديهم لا يخلو المرور بها من الخطر. وقالت لي انها اقنعتهُ ان يقيم في دير هند مدة ليرى ما يكون من حال جند العراق فاذا طال غيابي عنهم اظنهم يقصدون القسطنطينية وذاك آخر مكان يقصدونهُ فافعل ما يبدو لك

فلما سمع حماد ختام الحديث انقبضت نفسهُ مخافة ان يقصد العراق فيذهب سعيهُ ضياعاً وادرك سلمان فيهِ ذلك فقال لهُ ألا ترى يا مولاي ان مسيرنا الى العراق رمي حجرًا فنصيب عصفورين الم نكن في حاجة للبحث عن سيدي الامير عبد الله في العراق فمسيرنا الى هناك يجمعنا بهِ وبهند ان شاء الله

فقال حماد الم تسمع ما تلي علينا اليوم من خبر واقعة القادسية وهي بالقرب من الحيرة الا تظن على الحيرة خطراً

قال سلمان ان الحيرة يا مولاي دخلت في صلح المسلمين منذ اعوام وكنت شاهداً صلحها بنفسي ورد على ذلك ما نعلمهُ من صيانة الديور عند المسلمين

فقال حماد وهل تعرف الطريق الى الحيرة

قال نعم

قال وانت ماذا تفعلين يا خالة

قالت لا اظني استطيع المسير معكما لما انا فيهِ من الاستعجال ولكني انفعكما في طريق آخر او انني في دير بحيرا انتظر خبراً من عندكم



الفصل الثامن والتسعون

هند في دير هند

دير هند الكبرى بناء واسع شادته هند بنت الحارث الكندية بحجارة ضخمة في بستان خارج الحيرة يشرف عن بعد على بحيرة كانت هناك وفي الحديقة انواع الرياحين والازهار وحولها كروم العنب والتين وغيرها من الفاكهة يأوي اليه الرهبان من اهل العراق وفيه منازل للاضياف هي دار الضيافة ينزل فيها الغرباء من المارة او نحوهم يقيمون اياماً ثم ينصرفون . ورئيس الدير راهب شيخ سرياني اصله من ساباط . وقد جاء جند المسلمين العراق وجرى ما جرى لهم من الوقائع والدير في مأمن لم يصبه سوء واهله آمنون

ومن يستقبل باب الدير ووجهه يقرأ على عتبته نقشاً هذا نصه « بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الاملاك وام الملك عمرو بن المنذر امة المسيح وام عبده وبنت عبيده في ملك ملك الاملاك خسرو انوشروان في زمان مار افريم الاسقف فالاله الذي بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها ويقبل بقومها الى امانة الحق ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر » (١)

وفي ذات ليلة بعد انقضاء واقعة القادسية وسكون الناس الى الراحة سمع اهل الدير قرع الاجراس وهي اجراس تعلق بيبان بعض الاديار حتى اذا مرّ غريب دقها فيفتحوا له فيبيت هناك يتناول الطعام او نحوه . فلما سمع خدام الدير الدق هرول بعضهم الى الباب وكان الباب ثقيلاً مصفحاً بالحديد وفيه المسامير الضخمة فاطلّ من فوقه من غرفة صغيرة فرأى ركباً على افراس ومعهم الخدم والامتعة فنزل الى الباب ففتحه ورحب بالقادمين واسرع الى قيم الدير يخبره بقدوم ركب كبير ولما دخلوا وفيهم المشاة والفرسان فلما وصلوا الى ساحة الدير ترجل الفرسان وتقدم بعض [illegible] فامسكوا بأزمة الخيل ووقفوا جانباً [illegible]

وهو لا يزال [illegible]

---

(١) دائرة المعارف . ويلوح لنا انها كانت مكتوبة [illegible]

ورأوهُ في غرفة باتوا فيها تلك الليلة واهل الدير يتحدثون في من عسى ان يكون هؤلاء الناس الذين لثامهم لا يعرف النساء فيهم من الرجال ولكنهم عرفوا من قيافتهم وسروج افراسهم انهم من اهل الشام وكانوا قد سمعوا بحروب المسلمين هناك فرجح لديهم انهم بعض كبار الغساسنة وهم بالحقيقة جبلة واهلة فاقاموا هناك مستترين

اما حماد وسلمان فلما عزما على العراق سارا لوداع ابي عبيدة فاذا هو يتأهب لوداع الامام عمر وقد همَّ بالرجوع الى المدينة فوقفا ريثما ودعهُ فامتطى عمر جملهُ وركب معهُ بعض الامراء وودع الناس وتحول نحو المدينة وسلمان وحماد ينظران اليهِ ويعجبان بما اوتيهِ من رفعة المنزلة مع رغبتهِ في الزهد والاقتصار على بسائط الاشياء

ولما توارى الامام عاد الامراء الى معسكرهم وفي مقدمتهم ابو عبيدة فانتظر حماد وسلمان ريثما خلا بنفسهِ فسارا اليهِ واستأذناهُ بالانصراف

فقال الى اين

قال حماد انا سائرون الى العراق لعلنا نلتقي بوالدي فقد طالت غيبتهُ

قال تفوزا بسلامتهِ وصحتهِ فانهُ مقيم على الرحب والسعة وهل سمعتم خبراً عن جبلة

قال لم نسمع خبراً بعد ولعلنا نعرف عنهُ شيئاً هناك

(قال ذلك وهو يعلم ان ابا عبيدة اذا علم بمكانهِ بعث من يقبض عليهِ عملاً بارادة الامام عمر فانكر مكانهُ)

فقال ابو عبيدة اظنكما تعثران عليهِ في العراق فقد سمعت من بعض الناس انهُ سار الى هناك وربما يقيم في دير هند الكبرى خارج الحيرة

فلما سمع حماد ذلك اجفل ولكنهُ تجلد وتجاهل وقال سنبحث عنهُ جهد الاستطاعة وهل نقبض عليهِ بأسنا اذا عرفنا مكانهُ

قال ان امير المؤمنين كتب الى عمالهِ في الشام وفلسطين والعراق كافة ان يقبضوا على الرجل حيث وجدوه لانهُ اسلم وارتدَّ وخرج من المدينة فارًّا

فشكر حماد لنفسهِ لانهُ لم يقل بمكان جبلة ولكنهُ خاف عليهِ من الرقباء ومال الى العجلة في المسير الى العراق فاستأذن ابا عبيدة وودعهُ سلمان وسارا الى خالد وغيره من الامراء وودعاهم وخرجا يتأهبان للمسير

الفصل التاسع والتسعون

﴿ وادي الفرات ﴾

وبعد بضعة ايام حملا ما استطاعا حمله من المتاع وخرجا من بيت المقدس وفيما هما في الطريق قال حماد لابنه انا اذا اتينا العراق عائدين الى هذه البلاد فلنأخذ امتعتنا التي تركناها في بصرى وخصوصاً الدرع فانها كبيرة الثمن عندي وقد احتاج اليها في دفاع او هجوم فمرّا ببصرى فنزلا البيت حملا منه ما طاب لهما من خفيف الحمل وغالي الثمن وخرجا الى دير بحيرا ودخلا الصومعة فلم يلقيا احداً فتذكر حماد اياماً مرت به هناك فهاجت فيه ذكرى هند وتنبهت اشجانه وتاقت نفسه الى العراق للالاقاة حبيبته قبل ان يصيبها سوء ولقيا في دير بحيراء خادمة هند فسألاها عن حالها فقالت انها ستسير في اثرهما مع قافلة من قوافل العراق

اما هما فاصطحبا خادماً او دليلاً يسوس الخيل ويدلهما على الطريق وسارا وهما تارة يمران بغياض وطوراً برمال وآونة بجبال واودية وتارة بصخور وعرة وكانت اكثر المشاق عليهما صحراء الشام وفيها مرّا بمدينة تدمر العظمى وبعد بضعة عشر يوماً اطلاّ على وادي الفرات من اكمة مرتفعة فاذا هو سهول منبسطة يخترقها الفرات وفيها القنوات والبحيرات بينها المغارس والبساتين والمزارع وكان وصولهم الى هناك قبل الغروب فوقفا والخادم ينصب الخيمة على نية المبيت فوق ذلك التل اما حماد فوقف وهو على متن جواده والتفت الى تلك السهول الخصبة وما تخللها من القرى والمدن ومنها الماشية عن بعد وشجر النخل كانه جند واقف لالقاء التحية فتذكر والده النعمان وقال في نفسه هذه هي البلاد التي كان يحكمها والدي ومرّت بذاكرته خيالات جمة اكثرها مخيف ولكن صورة هند كانت تظللها كلها فترسل المخاوف على انه ما لبث ان تصورها في حال الضيق فهبّ من اعماق تصوراته وعاد الى قلقه

أما سلمان فكان يساعد الخادم في نصب الخيمة واعداد معدات الراحة فلما فرغ من ذلك جاء الى سيده وطلب اليه ان يترجل فترجل فساق الخادم الفرس ووقف حماد وسلمان ينظران معاً الى وادي الفرات

فقال حماد واين موقع الحيرة يا سلمان

قال ان الحيرة اول مدينة تستقبلك قبل وصولك الفرات وانما نشرف عليها غدًا وبينها وبين القادسية بضعة عشر ميلاً

ثم جلسا للعشاء وانصرفا بعدهُ للرقاد لان التعب اخذ منهما مأخذًا عظيماً . وفي الصباح التالي بكرا وركبا وحماد لا يصدق انهُ يشرف على الحيرة ويرى ديرهند ولو عن بعد وبعد ظهيرة ذلك اليوم اشرفا على بحيرة من الماء كبيرة ظنها حماد لاول وهلة بحرا فقال ما هذا يا سلمان قال هذه بحيرة النجف يامولاي وعلى ضفافها جرت واقعة القادسية التي سمعنا خبرها في معسكر ابي عبيدة ووراء هذه البحيرة شمالاً مدينة الحيرة مقام المناذرة اجدادك ووراء الحيرة شرقًا نهر الفرات واما ديرهند فهو خارج الحيرة وربما اطللنا عليهِ بعد قليل ولا يخفى عليك ان معظم الكروم والبساتين المجاورة للدير في ضواحي الحيرة هي من املاك الامير عبدالله ولا ندري ماذا جرى فيها بعد واقعة القادسية واذا كان مولاي الامير ممن شهدوا الواقعة فاظنهُ يتدبر في حفظها وحمايتها

فقال حماد الا ترى اذا اطللنا على الحيرة الآن ان نبيت في الدير الليلة

قال لا اظننا نستطيع ذلك والمسافة بعيدة ولا ندري ما هنالك من العقبات [illegible] نبيت الليلة في مكان على مقربة من الحيرة وفي الغد نسير الى الدير

قال [illegible] وفي الغروب ظهرت لهما الحيرة بابنيتها ولكن الظلام غشيها قبل ان يبلغاها فباتا تلك الليلة واصبحا وحماد لم ينم الاَّ قليلاً لشدة قلقهِ وشوقهِ فكان كلما تصور [illegible] اختلج قلبهُ فوصلا ضواحي الحيرة عند الظهيرة فاطلاَّ على ديرهند فلما رآهُ حماد [illegible] عرفهُ من ذي قبل ولكنهُ لم يدخلهُ ومشيا بين الكروم ومغارس الفاكهة والزيتون وسلمان يدلهُ على ما يملكه الامير عبدالله منها وحماد يريد استئناسا ولكنهُ ما زال هاجس يهدد لا صبر لهُ على لقائها ثم وصلوا الى قناة من الماء تظللها شجرة عظيمة وحولها الاشجار باغصانها يمر بها النسيم اللطيف فتسمع لاوراقها حفيفًا يطرب السمع بما يمازجه [illegible] فتقدم سلمان الى حماد ان يستريحا هناك ويتناولا [illegible]

[illegible] كيف نكون قرب الدير ولا نسرع اليهِ [illegible] والخادم [illegible] الطعام [illegible]

قال لا اراني قادرًا على ذلك ولا بدّ لي من المسير معك فلنترك احمالنا تحت هذه الشجرة مع الخادم ونذهب الى الدير

قال افعل ما بدا لك فسرنا وغسلا ايديهما ووجهيهما من الغبار وهمّا بالمسير



الفصل المئة

الفشل

ركبا وسارا بين الاشجار والشمس فوق الرؤوس فلم يغنهم ظل الاغصان الا قليلًا حتى انتهيا الى باب الدير وحماد قد نفد صبره . وكان سلمان عارفًا الجرس المعلق هناك بجذب الحبل فدق الجرس ودق قلب حماد معه فوقفا برهة لم يفتح لهما احد فاعاد الدق وبعد قليل اطلّ من فوق الباب راهبٌ وقال مستفهماً . من انتم

قال سلمان زوّار للدير

قال من اين انتم قادمون

قال من جهات الشام

فقال الراهب بلهجة النفور « لا سبيل للزيارة عندنا » وتحوّل الى داخل الدير فناداه سلمان فلم يجب فكلمهُ بلسان اهل الحيرة فعاد الراهب وقد تذكر انهُ يعرف ذلك الصوت فاطلّ ثانية من اعلى الباب وقال من انتم

قال سلمان لسنا من اهل الشام وانما نحن عراقيون [illegible] افتحوا لنا فتفرس الراهب في وجه سلمان برهة ثم جذب سلسلة ممدودة بالباب فانفتح الباب فدخل حماد وسلمان وفرساهما وراءهما فاخذ الراهب يرحب بهما وينظر الى سلمان كأنهُ يعرفه

وقال أ سلمان [illegible]

فالتفت اليه وقال [illegible]

قال بلى [illegible]

[illegible]

قتلنا فقد كان لنا عوناً ومحناً بورك فيهِ ومرحباً باسهِ

وما زالوا سائرين حتى اتوا دار الضيافة وحماد ينظر يمنة ويسرة وقد شاخت عيناه لعلهُ يرى شيئاً يتنسم منهُ رائحة هند فلم يرَ الاَّ رهباناً وفعلة فدخلوا دار الضيافة وتناول الفرسين بعض الخدم فساقوهما الى الاسطبل وبعثوا من يدعو الخادم ليأتي بالاحمال

اما حماد فتعاظم قلقهُ ولم يعد يستطيع صبرًا فادرك سلمان فيهِ ذلك فابتدر الراهب بالاستفهام عما منعهُ من فتح الباب لهما حالاً وما الذي يخافونهُ من اهل الشام

فقال نلتمس من الامير حماد عذرًا على توقفنا عن استقبالهِ برهة وما ذلك الاَّ لاننا وقعنا منذ ايام في ورطة بسبب ضياف نزلوا عندنا وكانوا قادمين من الشام

فقال سلمان ومن هم اولئك الاضياف

قال جاءنا جماعة نزلوا في هذا الدير شهرًا ونحن نحسبهم من اعيان الشام فما لبثنا ان عرفنا انهم جبلة بن الايهم وامرأتهُ وابنتهُ وبعض خدمهِ

فلما ذُكر جبلة واهلهُ خفق قلب حماد وخاف ان يسمع خبرًا يسوءُهُ وقد عودتهُ حوادث الايام ان يسيء الفأل في كل مستقبل فاصاخ بسمعهِ ليرى ما تمَّ لهم واكتفى باصغائهِ تاركاً للراهب عن امام خدمهِ . وكان بعض الرهبان قد جاؤُا بالمواعين فيها الماء ليغتسل الضيفان فلم ينتبه احد منهما اليها وظلا مصغيين

قال الراهب فاقام الملك جبلة بيننا اياماً على الرحب والسعة ونحن لا نحسبهُ الاَّ من بعض امراء الشام على اننا كنا نعجب لاحتجابهِ في الدير واحتباسهِ عن العيون ونحن نتوسم من حولهِ وخدامهِ انهُ محبٌّ للصيد والفروسية ولكن الامر انكشف لنا بغتة فجاءنا جماعة من جند المسلمين في عصاري بعض الايام وفيهم الفرسان والمشاة وقرعوا الباب ففتحنا لهم ونحن غير خائفين لما نعلمهُ من العهود التي حصلوا الديور والكنائس بها فخرج الرئيس فاحترم لاستقبالهم فقالوا لا خوف عليكم ولكن عندكم عدوًّا فرَّ منا في حرب الشام وكان قد سلم ثم ارتد فلا بد من القبض عليهِ وسوقهِ الى الامير سعد بن مالك

فسألهُ الرئيس عن ذلك العدو فقال انهُ جبلة بن الايهم ملك غسّان وكان جبلة قد رأى الرجال وعلم انهم قادمون لبعض غاية فتربص ولو كان وحده لتمكن من

الفرار ولكنه لم يجد اليه سبيلاً . فقبضوا عليه وساقوه حالاً ولم يمهلوه ريثما يلتفت وراءه

فقطع سلمان الحديث قائلاً هل ساقوه وحده

قال ساقوا معه امرأَته والخدم

قال حماد وماذا جرى لابنته . قال ذلك وهو مضطرب الحواس

قال الراهب اما ابنته هند فكانت قد خرجت في صباح ذلك اليوم لزيارة دير هند الصغرى في الحيرة على ان تقضي نهارها هناك وتعود في المساء . فلما أُخذ والداها لم تكن هي هنا فلما جاءت في المساء اخبرناها بما كان فاجفلت ولطمت خديها وندبت والدها ثم وقفت تبكي تارة وتفكر أُخرى حتى قاربت الشمس الزوال ونحن نخفف عنها فسألتنا عما قاله لنا والدها قبل ذهابه فاعتذرنا بانه لم يستطع كلاماً لفرط ما الحوا عليه بالذهاب فاسرعت الى جواد لها كان باقياً هنا فركبت وترملت بعباءة من الحرير المزركش كأَنها فارس مغوار واستفهمت عن الجهة التي ساروا فيها بوالدها فاشرنا اليها فهمزت الفرس وخرجت تنهب الارض نهباً ونحن لا نعهد مثل ذلك في البنات . ثم لم نعد نعلم عنها خبراً

فما اتى الراهب على تمام الحديث حتى انقبضت نفس حماد واتقدت الغيرة في قلبه وتولاه اليأس فلبث صامتاً كأنه اصيب بصدمة ثم التفت الى سلمان فاذا هو صامت يفكر

فاستغرب الراهب ما المَّ بهما من البغتة وعهده بالحميين يسرون بما يسوء الغساسنة لما بينهما من الضغائن القديمة فقال لهما ما بالي ارى حديث جبلة قد همكما الى هذا الحد وهو غساني ألعلكما من غسان

فقال سلمان لم يهمنا حديثه ولا يهمنا امر الغساسنة كلهم ولكننا نفكر في تلك الفتاة المسكينة . فهل مضى على ذهابهم مدة طويلة

قال لا تزيد على بضعة عشر يوماً

قال وهل سمعتم عنهم شيئاً بعد ذلك

قال سمعنا اخباراً متضاربة من قائل ان بعض امير جند المسلمين قتلهم حالاً وقائل انهم قتلوا قبل وصولهم اليه وقائل انهم لا يزالون احياء

فازداد اضطراب قلب حماد وهمَّ بالنهوض فاقعده سلمان وقال للراهب متجاهلاً وماذا سمعتم عن ابنته المسكينة

قال لم نسمع شيئاً عنها منذ خروجها ولعلها اقتفت آثارهم الى معسكر المسلمين

فلم يعد حماد يستطيع صبراً فنهض الى جواده وتبعهُ سلمان وكان خادم حماد قد وصل الدير بما معهُ من الامتعة وجعلها في مأمن . فانفردا في مكان

فلما خلوا قال حماد دعني يا سلمان اقتفي أثر جبلة فقد ضاق صدري وتحدثني نفسي بسوء اصابهم جميعاً . اهذه نهاية آمالي ونتيجة اتعابي قال ذلك وحرّق اسنانهُ وتلألأت الدموع في عينيهِ ولكنهُ تجلد تجلُّد الرجال وقال علينا السعي يا سلمان وعلى الله التدبير . فما الرأي

قال الرأي ان نقصد معسكر المسلمين وندخل على سعد بن مالك اميرهم فنسأَلهُ عن مولاي الامير عبدالله وهو عنده من كبار المشيرين كما نعلم فاذا لقيناه اعاننا في البحث عن جبلة واهلهِ واذا كان جبلة لا يزال حيًا وسّطنا الامير عبد الله بالعفو عنهُ

فقال نعم الرأي رأيك ولكن هندًا أين هي

قال نظنها معهم وهبْ ان والدها قتل فهي لا تقتل لان المسلمين لا يؤذون النساء فقد تكون عندهم في حفظ وخصوصًا اذا كان سيدي الامير عبدالله قد رآها او عرف مقرّها

فقال حماد الا تظنهم يخدعونها سبيَة اعوذ بالله قال ذلك وهمّ بالجواد بركضهُ فقال سلمان مهلًا يامولاي ربما نلاقي رئيس الدير فنسأَلهُ عن معسكر المسلمين لئلاَّ نبذل السعي والوقت عبثًا . قال حسنًا وتجلدا ودخلا على الرئيس وكان قد عرف قدومهما فرحب بهما وقبل حمادًا وامر لهما بمائدة فقالا لا نستطيع طعامًا لاننا خارجان على عجل لامر هامّ لنا وقد جئنا لوداعك قال اتودعاني قبل ان نلتقي

قال كذلك قضي علينا وانتم تعلمون ان سيدي الامير عبد الله في معسكر المسلمين وفي نيتنا ان نذهب اليهِ فاين هو معسكرهم

قال ان المسلمين معسكرون الآن تجاه المدائن في بهرسير (١) واظنكم تعرفونها وهي بالحقيقة قسم من المدائن فانها في الغرب والمدائن في الشرق وبينهما دجلة . فقد نزل المسلمون على بهرسير وحاصروها شهرين ورموها بالنبال والمجانيق حتى فتحت . فاخذوها وهم عاملون على فتح المدائن (٢)

(١) او كوكبمبنوس) (٢) طبري

فقال سلمان اني أعرف نهر شير جيدًا ويسهل علينا الوصول اليها اذ لا يحول بيننا وبينها الاّ الفرات وبعض السهل

الفصل الحادي بعد المئة

فتح المدائن

فودّعا الرئيس ونزلا الى الغرفة التي أودعا الامتعة فيها فلبس حماد درعهُ ورداء والدهِ الملك النعمان وجعل حمائله من اثوابهِ وسلمان ينظر اليهِ فسألهُ عن سبب لبسهِ ذلك الرداء فتنهد وقال انسا ذاهبين الى المدينة التي قتل فيها والدي النعمان

قال بلى

قال ألسنا في شك من بقاء هند حية

قال الله اعلم

قال حماد ونحن نعلم ايضًا انها قد تكون حية او ميتة اذ لا يعرف احد مكانها وقد سيق والدها الى القتل لا محالة فاذا كانت لحقت بهِ فلا يخلو امرها من احد خطرين اما ان تكون سبيّة او قتيلة وكلاهما موت فهل اطمع بعد ذلك في الحياة وقد آن الوقت الذي يجب عليّ ان انتقم فيهِ لوالدي وهذه جنود المسلمين على ابواب المدائن واني محاربٌ معهم حتى ادخل الايوان بنفسي فاقتل كسرى بيدي فاذا قُتلت فانا خير من هند ولا عيش لي بعدها واذ حييت فذلك امر الله تقدّرهُ لحكمة لا نعلمها قال ذلك وقد علاه الغضب وتجلّت في وجههِ مهابة الملوك فاقطب اسرتهُ وما زال يلبس درعهُ وصلصل حديده مسموع الى الخارج فهبّ سلمان من مجلسهِ ولبث صامتًا لا يدري مايقول ثم قال الا ترى يا مولاي ان تتنكر زي المسلمين الآن لئلا يسمعوا بنا في جوف المعركة فيحسبونا من الفرس او من عرب الحيرة احلافهم

قال لقد رأيت حسنًا وكان بين ثياب سلمان كثير من ذلك الاثواب لما كان يحتاج اليهِ من التنكر فاستخرج ثوبين لبس كلٌّ منهما ثوبًا وعمامة حتى صار منظرهما لا يشك الناظر اليهما في انهما حجازيان

وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل وهمّ اهل الدير بتهيئة طعام المساء فشاهدا جماعات منهم عائدين باحمال الاثمار والاحشاب من بساتين الدير

ثم ركبا واطلقا الاعنة للجوادين فقضيا مدة صامتين وافكارهما سابحة في ما سمعاهُ يستوقف محاربها اصوات حوافر الخيل وانغام وقعها بين قرقعة على الحجارة وهمس على الرمال وهما لا يتكلمان فامسى عليهما المساء وراء الحيرة فباتا في كنيسة هناك واصبحا راكبين فمرّا بجيف بعضها رمم خيول وجمال والبعض الآخر جثث آدميين مبعثرة في تلك السهول لم يبق منها غير العظام الصخمة التي لم تقدر على قضمها النسور . فتذكرا ما وقع هناك من الحروب الهائلة بين المسلمين والفرس . ثم قطعا الفرات على جسر من السفن وفي اليوم التالي اشرفا على المدائن وقصورها عن بعد فرأيا فوقها ضبابًا كثيفًا يكاد يحجبها عن الابصار فقال سلمان لقد همني امر هذا الضباب فاني اظنهُ غبار الحرب ويخال لي ان المسلمين يهاجمون المدينة في هذا الصباح . ثم وخزا الجوادين حتى وصلا بهرسير فاذا هي في هرج والناس فيها بين فارس وماش يهرعون نحو النهر فسألا عن سعد بن مالك فقيل لهما انهُ يخوض النهر بجيشهِ لفتح المداين والمسلمون يقتفون اثرهُ ففتشا عن الامير عبد الله فلم ينبئهما بخبره احد فصعدا الى اكمة اشرفا منها على المدائن ودجلة فرأيا المسلمين يقطعون النهر بافراسهم والرماح مشرعة في ايديهم (١) وبعضهم قد بلغوا الضفة الاخرى يحملون الاعلام . ونظرا الى المداين فاذا بعض حاميتها قد خرجوا من الاسوار بافيالهم وافراسهم واعلامهم يتأهبون للقاء المسلمين وقد علا الصحيح حتى استكّت المسامع وتصاعد الغبار حتى حجب السماء

فهاجت عواطف حماد وجرى دم الملوك في عروقهِ وثارت الحمية في رأسهِ فنظر سلمان اليهِ فرآهُ قد احمرت عيناهُ وهو يتفرس في ساحة القتال كأنهُ يهمُّ بالوثوب اليها فقال لهُ ما بال سيدي في شاغل

فنظر حماد اليه وقال « اراني يا سلمان راغبًا في نزول هذه الساحة فقد آنت ساعة الانتقام لوالدي هؤلاء هم قتلة النعمان بن المنذر قد نزلوا لقتال المسلمين فلا اراني صابرًا عن منازلتهم ووصية والدي خارجة من ظلمات القبر ولا ريب عندي يا سلمان ان تقاعدي عن القيام بتلك الوصية من اول الامر هو الذي عرقل مساعيّ

(١) ابن الاثير

وحرمني من هذ لان طاعة الوالدين واجبة وقد تهاملنا في هذا الواجب فجوزينا بالتعب والشقاء والفشل والقنوط . الم تكن هذ طوع ارادتنا الم يكن والدها راضياً بي ينتظر ساعة القران . فما بالك الحكم وتغير من يوم قرأنا تلك الوصية المقدسة وعولنا على اعمالها ذلك اول قصاص بلناه وما زالت تتوالى علينا الاحن وتقف في سبيلنا العقبات من ذلك الحين حتى خرج النصيب من ايدينا او كاد وكأن الله سبحانه وتعالى قد جرَّنا الى هذه الساحة ليذكرنا بما ارتكبناهُ لعلنا نرعوي ونصدع بالامر وكأني بوالدي يناديني باعلى صوتهِ من اعماق قبره واطنهُ ما انفكَّ يفعل ذلك منذ اعوام ولكننا كنا بعيدين عن مدفنهِ فلم نسمع النداء وتحدثني نفسي يا سلمان ان انازل هؤلاء الفرس في جملة المنازلين وعليَّ برد النعمان بن المنذر وبيدي خاتمهُ فاما ان أُقتل شهيد الثار المقدس واما ان احيا بعد النصر واظفر بخطيبتي فيطيب لي القران عملاً بوصية والدي فقد اوصاني ان لا اقضي امرًا مثل هذا الاَّ بعد الانتقام لهُ »

وما اتى حماد على آخر كلامهِ حتى ارتعشت انامله وثارت عواطفهُ ولم يتمالك عن ان همز جوادهُ نحو النهر فخاض الماء وخاضهُ وسلمان في اثرهِ حتى اتيا الضفة الاخرى فرأيا المسلمين يطاردون الفرس حتى دخلوا المداين فدخلوها في اثرهم . واوغل المسلمون في المداين وحماد في جملتهم حتى اتوا ايوان كسرى فدخلوا حديقتهُ وخيولهم تدوس الازهار والرياحين ورماحهم تخترق اغصان الليمون والاردرخت حتى وصلوا باب الايوان فكان حماد اول داخل وقد عوَّل ان يقتل كسرى بيده والايوان قاعة كبيرة (١) طولها مئة ذراع وعرضها خمسون مبنية بالآجر والجص سقفها عقد واحد قائم على عمد من الرخام المنقوش وفي صدر الايوان عرش يجلس عليهِ كسرى تعلوهُ قبة مرصعة في داخلها مروحة من ريش النعام والى جانبي العرش مجالس الاعوان والوزراء من المرازبة والكهنة وجدران الايوان وسقفهُ مزينة بالرسوم وفي جملة ذلك رسم كسرى انوشروان وغيره من الاكاسرة العظام وابيات من الشعر الفارسي مكتوبة بالحرف الكلداني وفي سقف الايوان رسوم الافلاك والاجرام

فلما رأى حماد نفسهُ في وسط الايوان ووقع نظره على ذلك العرش اسرع نحوهُ وهو يحسب كسرى جالسًا عليهِ فاذا هو خالٍ وليس في المكان احد من الفرس لـ[ازالتهم]

(١) راجع الفصل السابع والستين من هذه الرواية

جميعاً الى حلوان (1) ولم تمضِ لحظات حتى امتلأ الايوان بالمسلمين وقد اخذوا في تكسير التماثيل وتمزيق الصور وكان الفرس قبل خروجهم قد حملوا معهم ما خف حمله وغلا ثمنه وبقي مع ذلك ما لا تقدَّر قيمته من الذهب والحجارة الكريمة والثياب المزركشة والاسلحة المذهبة والتيجان المرصعة

اما حماد فحالما تحقق سقوط المدائن لم يعد يشغله شاغل عن التماس الامير عبد الله فلم يرهُ بين الفاتحين فاشتغل باله عليهِ فاوعز الى سلمان ان يساعدهُ في طلبهِ وكان سلمان اكثر قلقاً عليهِ من حماد فقال لحماد لا تبتعد عن هذا الايوان فاني ذاهب الى سعد بن مالك امير هذا الجند لعلي اسمع منهُ خبراً عن سيدي الامير

قال حسناً وبقي حماد في حملة الجند لا يسمعهُ احدٌ حتى سكنت الغوغاء وهو ينظر الى ما يحملهُ الفاتحون من التحف الغريبة وفيها التيجان والسيوف المرصعة فسمع قائلاً يقول هذا هو سيف النعمان فلما سمع ذلك خفق قلبهُ وود لو يناله هو ولكنهُ لم يجسر على التماسهِ فقال في باطن سرهِ هذا هو سيف النعمان وهذا ابن النعمان وهذا برد النعمان وهذا جاءهُ قد شهدوا حرب الفرس معاً ورأوا سقوط دولتهم رأي العين وذلك ما تمناه والدي ولم يتحقق لي في الحياة مأرب الا اذا ظفرت بعشيقتي ومنتهى اربي ولم يكد يتذكر هذا حتى عادت اليهِ التخيلات وتنبه من غفلته والناس في شاغل عنهُ فهمز جوادهُ واخذ في البحث عن عبد الله فتذكر موعدهُ مع سلمان فوقف حتى عاد سلمان فاذا هو منقبض الوجه فقال لهُ حماد ما وراءك قال لقيت بعض حاشية سعد بن مالك وسألتهم عن الامير عبد الله فقالوا انهُ كان معهم ولكنهُ خرج من المعسكر اول البارحة ولم يعد

فقال هل سألتهم عن حملة

قال سألتهم فقالوا ان بعض الامراء [illegible] قبض عليهِ

فقال هل علمت اذا كانت هند معهُ بعد قبضهِ وماذا جرى لها

قال سمعت انها لم تكن معهُ وانهم لم يصلوا اليهِ فقد قيل لي يجوز ان جبلة بقي اسيراً ومعهُ [illegible] وهي [illegible] لا نستطيع تبين الحقيقة الا من سيدي الامير عبد الله

(1) [illegible]

وتركا المدينة والمسلمون يحسبونهما من جملة جندهم لما تنكرا به من الزي الحجازي حتى اذا صارا خارج المدائن قال حماد لقد قضي الامر ياسلمان وسقطت عاصمة الفرس وان يكن ملكها يزدجرد فرّ ولم يقتل بعد ولكنهُ مقتول لامحالة فها قد انفذنا وصية والدي ولكننا ما لبثنا ان سمعنا بمقتل جبلة ونحن في ريب من امر اهلهِ ولا نعلم مقرّ هند قال ذلك وحرق اسنانهُ واطرق

فقال سلمان لا اظن هندًا الاّ في بعض الديور وعلى كل حال انا لا نستطيع امرًا قبل مواجهة الامير عبد الله

قال حماد وما العمل

قال ارى ان نفتش عنهُ

قال اخاف ان يكون قد اصاب حتفه ايضًا

قال لا اظن ذلك لانهُ لم يكن في المعركة وقد علمنا انهُ كان في المعسكر قبل الهجوم ولعلهُ التجأ الى مزرعة من مزارعهِ خوفًا من الحرب

قال أتعرف لهُ مزرعة قريبة من هذا المكان

قال اعرف مزرعة لهُ على بضعة اميال منّا فلنذهب اليها لعلنا نقف على خبره من بعض الفلاحين هناك

قال حماد سر انت في هذه المهمة ودعني أعود الى الحيرة احدد البحث عن هند لعل احدًا من اهل الدير ينبئني بخبرها ولنضرب موعدًا نلتقي فيهِ بمكان بعينهِ

قال لقد رأيت رأيًا حسنًا وأرى ان نلتقي في دير هند الصغرى في الحيرة بعد ثلاثة ايام فمن استطاع خبرًا قصهُ على الآخر وافترقا



الفصل الثاني بعد المئة

أين هند

فانطلق حماد بجواده العنان وعاد فخاض دجلة واعرب نحو الفرات فقطعه وسار قاصداً دير هند الكبرى وبات في الطريق ليلة ونزل على الدير في اصيل اليوم التالي فقرع الجرس ففتحوا له وهم يحسبونه مسلماً لتنكره بلباس المحاربين فرحبوا به ولبثوا ينتظرون ما يبغيه فلم يكلمهم وظل قاصداً الرئيس وقد عرف غرفته فاستقبله احسن استقبال وبالغ في اكرامه فلم يصبر على تنكره فاطلعه على حقيقته فسأله عما لقيه فقص عليه خبر المداين وفتحها فذكر الله وقال لقد توسمنا قرب سقوط الفرس منذ اشهر لانه سبحانه وتعالى لا يبقي على عبدة النار فان هؤلاء الفاتحين وان لم يكونوا نصارى فهم يعبدون الله ويوحدونه ويؤمنون بالانبياء والرسل ويذكرون عيسى ومريم بالخير ففي انتصارهم نصرة للدين القويم

ولم يكن هذا الحديث ليهمّ حماداً ولكنه صبر حتى فرغ الرئيس من كلامه فقال له هل سمعتم شيئاً عن جبلة بعد دهاني

قال لم نسمع عنه شيئاً ولكننا سمعنا خبراً عن ابنته

قال وماذا سمعتم عنها

قال ان بعض رهباننا يزاولون الحيرة مرتين في الاسبوع يحضرون سوقها يستبدلون ما يفضل عندنا من غلات ارضنا بما نحتاج اليه من الامتعة او الآنية او نحوها فاتفق لبعضهم ان نزلوا على اثر خروج جبلة واهله انهم رأوا بنت الملك الفتاة في بعض طرق الحيرة على انهم اختلفوا في حقيقتها فانكرها بعضهم واصرّ الآخرون على انها هي بعينها ولا ندري اينها مصيباً

فلما سمع حماد ذلك قال الا يتنازل حضرة المحترم لاستقدام اولئك الرهبان لعلي اتحقق الامر بنفسي

قال حبّاً وكرامة وصفق فجاء راهب فامره ان يدعو راهبين سمّاهما وبعد هنيهة جاء الراهبان فسألهما حماد عن تلك الفتاة فقال احدهما رأيناها قبل ان ندخل الحيرة

بقرب بحيرة هناك وبجمال لي انها ابنة حلة ولكن اخي هذا ينكر عليّ ذلك

فقال الآخر لا اظنها هي لاني لم اتوسم فيها ما عهدناه من الانفة والعز فقد عرفناها هنا وفي وجهها مهابة الملوك وفارقتنا على جواد كأنها من امهر الفرسان والفتاة التي شاهدناها لا اقول انها لا تشبهها ولكنها اشبه بعامة الناس منها بالملوك او الامراء

فلما سمع حماد كلامهما تحير في امره ومال بكليته للمسير الى الحيرة يتفقد هنداً بنفسهِ فتظاهر بالاكتفاء بما سمعهُ وهمَّ بالنهوض فدعاه رئيس الدير للمبيت عندهم تلك الليلة فاعتذر بما يدعوه الى سرعة المسير وودعهُ وخرج والشمس قد مالت نحو المغيب وجعل الحيرة وجهتهُ ولم يكد يتوارى عن الدير حتى اشرف على الحيرة ورأى غديرها المتصل بالبحيرة وقد غابت الشمس واخذت الكواكب في الظهور فاظلمت الدنيا في عينيهِ فالتهمت فاذا هو على ميل او بعض الميل من المدينة ثم اشتد الظلام ولم يعد يرى الطريق فتبين لهُ عن بعد نور مزدوج عرف من حقيقتهِ انهُ وقود عند الشاطئ انعكس نوره في الماء فظهر مزدوجاً فقصده وقبل ان يصلهُ سمع صوتاً يناديهِ بلغة العراق

« من انت »

فقال غريبٌ لا اعرف الطريق ومن أنت

فقال يا هلا بالضيف يا هلا بالفارس

ثم رأى حمادٌ الرجل قادماً وبيده خشبة مشتعلة يستضيءُ بها فتفرس فيهِ فاذا هو شيخ طاعن في السن قد استرسلت لحيتهُ وشاب شعره ولكنهُ لا يزال في نشاط الشباب عليهِ عباءة خلقة وبيده عصا كبيرة فعرف حماد من مجمل منظره انهُ راع على انهُ ما لبث ان شم رائحة الزريبة وسمع ثغاء الماعز فتحقق ظنهُ ولكنهُ لم ير حولهُ بناء ولا خيمة فترجل وسلم والراعي يتفرس فيهِ وينظر تارة الى وجههِ وطوراً الى لباسهِ

ثم قال لهُ ما بالي ارى لباسك حجازياً وكلامك عراقياً

قال اني من كليهما وقطع الكلام . فسكت الراعي وتقدم الى الفرس فقاده بعصاه وليس في ذلك المكان غيرهما فمشيا لا يسمعان صوتاً غير ثغاء الماعز ونقيق الضفادع حتى انتهيا الى كوخ صغير مبني من سعف النخل وقد ربض عند بابهِ كلب كبير الجثة ظل رابضاً هادئاً كأنهُ ادرك ان النازل ضيف لا خوف منهُ على القطيع

الفصل الثالث بعد المئة

أين التبجي من الحلي

اما حماد فلما وصل الكوخ واشتم رائحة الرعاة استنكف من الدخول اليهِ فقال الشيخ دعنا نجلس ههنا فان ذلك افرح لنا

قال مرحبًا بك حيثما جلست واتاه بفروٍ من جلد الماعز جلس عليهِ وذهب الشيخ بالفرس الى عمود وراء الكوخ شدَّهُ اليهِ واخذ في نزع السرج وفيما هو يفعل ذلك سمعهُ حماد يتمتم ويقول اقوالا لم يفهمها

فناداه فلم يجبهُ فاعاد النداء فجاء الشيخ واللجام بيده فنظر حماد اليهِ فاذا هو يبتسم فبانت لثتهُ ولم يبق فيها الأسنان بارزة الى الاعلى

فقال لهُ حماد ما يضحكك يا اخا لخم

قال انما اضحكني ما رأيتهُ في عدة هذا الجواد مما يشبه عدة فرس تعودت ان اراه كل ليلة من ليالي الاسبوع الماضي بركبهُ فارس قد اعجبني فيهِ ما اعجبني فيك

قال من هو ذلك الفارس وما الذي اعجبك فيهما

قال لقد اعجبني فيكما التنكر فان ذاك كان يأتيني في كل صباح ملثمًا وعليهِ عباءة من الحرير فيكلمني بصوت النساء وعليهِ رداء الرجال وانت جئتني بلباس التجار وكلام العراق فلا ادري تغيرت الارض واختلط الناس ام كيف

فتذكر حماد هذا وما سمعهُ من نزولها بالعباءة يوم خروجها من الدير فاستأنس بحديث الرجل فهمَّ باستيضاحهِ فاذا هو قد تركهُ وتحوَّل نحو الزريبة فاستقدمهُ فاجاب انهُ آتٍ على عجل فلبث حماد كأَنهُ على مقالي الجمر حتى عاد الراعي وفي يدهِ قصعة من الخشب قد اكمد لونها من توالي السنين على استخدامها بلا غسل وفيها لبن حليبهُ من ماعزه وقدمها لهُ ليشرب

فاعتذر حماد بانهُ لا يحتاج الى طعام

فقال الشيخ لقد نزلت ضيفًا فما عليك الاَّ ان تتناول الطعام واذا كنت ملآن الجوف فهل ربما آتيك ببعض الخمر قال ذلك وتحوَّل نحو الكوخ وعاد بقصعة فيها

خمر فقدمها لحماد وهو يقول اليك هذه الخمر فانها من غلة كرمنا هذا العام . فتناول حماد القصعة لا رغبة في الشرب ولكنه خاف اذا اعتذر ان يأتيه الشيخ بشيء آخر

ثم جلس الراعي بجانب كلبه ويده على رأس الكلب يلاعب ناصيته بين اصابعه وهو ينظر الى حماد

فابتدرهُ حماد قائلاً ذكرت لي الفارس المتنكر ولم تتم حديثك

قال هذا هو كل حديثي عنه فانهُ أتاني منذ بضعة عشر يوماً فاوقف جواده عند هذا الكوخ وسألني الذهاب الى دير هند لاستفهم لهُ على اناس قادمين من الشام هل نزلوا الدير ام لا . وكنت اذا نظرت اليه رأيته فارساً ملثماً فاذا تكلم خلته امرأة فسألته ان يحسر اللثام عن وجههِ فأبى ودفع اليَّ ديناراً فاطعت امرهُ ووعدتهُ بالجواب في المساء فعاد في المساء وهو نظني دهشت لاشتداد مهمتهِ ولم يدرِ اني لااستطيع التخلي عن ماشيتي وليس عندي من اعهد امرها اليهِ فلما سألني اجبتهُ اني سألت اهل الدير فقالوا انهُ لم يأتهم احد وما زال يكرر زياراتهِ ويدفع الدنانير وانا اجيبهُ جواباً متشابهاً حتى اذا كان منذ بضعة ايام استخلفني بدرٌ الماشية والسيدة مريم ان آتيهُ بالخبر اليقين فسرت الى الدير فسألتهم فقالوا انهم لم يأتهم احد وهب ان احداً من اهل الشام جاءهم فلا يقبلون زيارتهُ . فلما اجبت الفارس هذا الجواب غضب وتمتم وكاني سمعتهُ يلطم ثم تحول عني ولم اعد اراه من ذلك اليوم فندمت لاخلاص الخدمه وإعاذ المهمة بالصداقة فلما رأيتك وآنست ما آنستهُ من المشابهة ذكرتها ضحكت وعوّلت على ان لا اصدُق في خدمتك

فلما سمع حماد ذلك تحقق ان السائل هند نعيما فقال للشيخ ألم تعلم الجهة التي سار فيها ذلك الفارس

قال لا . وهب اني اعلم فما انا صادقك

فمد حماد يده واستخرج دينارين دفعهما اليهِ فتناول الشيخ النقدين وهو يتفرس فيهما ويضحك ثم قال اما اذا شئت ان اصدقك الخبر فاعلم ان الفارس سار محاذياً لهذا الشاطئ قاصداً الحيرة فلما بعد عني وصار على مقربة من المدينة رأيته ترجل ووقف مدة فطننتهُ عائداً اليَّ واشتغلت عنهُ برهة ثم التفت فلم أرهُ

فاستولى القلق على حماد وعجب لترجلها ووقوفها ولبث صامتاً يفكر ثم قال ومتى

حدث ذلك

قال حدث منذ اسبوع

اما الشيخ فلما آنس من حماد بذلاً حاول المبالغة في اكرامهِ فجعل يقدم لهُ الخمر واللبن فلما رآهُ لايشرب شيئًا وقد مضى بعض الليل دعاهُ للرقاد في الكوخ

فقال حماد لا احتاج الى رقاد

فقال اذا كنت تحتقر كوخي وقد تعودت المنام على الاسرة فاني معدٌّ لك فراشًا من الحرير ودخل الكوخ ثم عاد وفي يدهِ ملاءة فرشها لهُ فعجب حماد لوجود تلك الملاءة عندهُ فتفرس فيها فاذا هي عباءة مزركشة فأَجفل لرؤيتها ومد يدهُ فتناولها ونظر اليها بضوء القمر فاذا هي عباءة هند وكان كثيرًا ما يراها عليها اذا ركبت فصاح في الرجل وأَنَّى لك هذه العباءة . فضحك الراعي ضحكة يمازجها خوف ولم يجب

فندم حماد على ما اداهُ بهِ من الجفاء وقال بهدوءٍ لقد اعجبني لطفك وحسن وفادتك فاني يا عماهُ لا استطيع القيام بحق شكرك على هذا الاكرام الا تخبرني ممن ابتعت هذه العباءة

فسكن روع الشيخ واشار الى كلبهِ وقال انها من صيد هذا الكلب

قال وكيف ذلك

قال افتقدتهُ ذات صباح فلم اجدهُ وكان قد تعود السرح في بعض الايام ثم ما لبث ان عاد وقد عض على هذا الرداء بفيهِ وجاء يجرهُ وراءهُ

فازداد قلق حماد وقال ومن اي جهة قدم بهِ

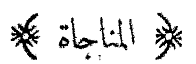
قال من جهة الشاطئ

فقال الا تظنها العباءة التي كان ذلك الفارس ملتفًا بها

فتنحنح وتشاغل عن الجواب وحرك حاجبيهِ وكتفيهِ كأَنهُ يقول لا اعلم



الفصل الرابع بعد المئة



المناجاة

فتحقق حماد انها عمامة هند فخاف ان يكون لوجودها هناك سبب محزن فخفق قلبهُ وتشاءم وحدثتهُ نفسهُ ان يتتبع الشاطئ لعلهُ يقف على اثر آخر ثم تردد مخافة ان يتوه عن الطريق والوقت ليل فحاول الانتظار الى الصباح ولكنهُ نظر الى السماء وتأمل مواضع الابراج فعلم انهُ في نصف الليل فاستبعد الأجل وكان القمر قد طلع حتى تكبد السماء فانار البحيرة وشاطئها وابنية الحيرة . وفي اول تلك الابنية قصر الخورنق الشهير فعوَّل على مفاوضة الراعي والمسير على الشاطئ فتظاهر بالضجر والقلق وقال لهُ اراني لا استطيع رقادًا الآن فاحتفظ بالفرس ريثما أتمشى على هذا الشاطئ برهة لعل النعاس ان يأتيني واعطني العمامة التحفها فتقيني من البرد

فقال افعل ما بدا لك

فتناول حماد العمامة وترمل بها وسيفهُ الى جنبهِ فرفعهُ وعلقهُ بمنطقتهِ لئلاَّ يطرق الارض فيحدث صوتًا يعترض مجاري تصوراتهِ وسار الهوينا محاذيًا للشاطئ وقد سكن الهواء واوت الطيور الى اوكارها وبعد ان مشى برهة وقف والتفت وراءهُ فاذا بالربية قد توارت عنهُ فنظر الى ما حولهُ فعلم انهُ على مقربة من الحيرة وبينهُ وبينها المغارس والكروم وامامهُ البحيرة وقد هدأ ماؤُها ونور القمر ينعكس عن سطحها فيتلألأ كالزجاج والطبيعة هادئة ساكنة لا يتخلل سكونها الاَّ نقيق الضفادع فجلس على صخر هناك واطلق لتصوره العنان ففكر في ما هو فيهِ من الهواجس وتصور هندًا وعمامتها وما الذي اوصل ذلك الكلب اليها فاعترضهُ فكر اقشعر منهُ بدنهُ وخيل لهُ ان هندًا لما يئست من لقائهِ القت نفسها في ذلك الماء فبقيت العمامة على الشاطئ حتى حملها الكلب الى الربية ولما تصور ذلك انقبضت نفسهُ واحس كانك صببت عليهِ ماءً باردًا وهمَّ بالعمامة يقبلها ويتنسم رائحة هند منها فغلب عليهِ الوجد فاخذ في البكاء وجعل يخاطب العمامة وهو يبكي ويتنهد ويقول

اخبريني يا عمامة هند اين تركتِ هندًا هل انت خلعتها ام هي خلعتك وقد غرقت في هذا الماء وتركتكِ نذيرًا بمصيرها آه من طوارئ الحدثان آه من تقلبات

الزمان اين هند الآن ألعلها لا تزال في قيد الحياة ام هي غارقة في هذا الماء وقد أكلت لحمها الاسماك . . كيف تموت هند وحماد حيّ يرزق .. وسكت برهة ثم قال العلي قصرت في البحث عنك حتى يئست من لقائي من يخبرني اين انت . هند هند . . . اين انت ِ أألبستني درعًا لتقيني وتقتلي بنفسك قبح الله رأيي والدك وضعف عزيمته لقد جرّ علينا الشقاء سامحهُ الله اذا كان لا يزال بين الاحياء من يخبرني ان هندًا حية او ميتة فاذا تحققت موتها استودعت الدنيا ولحقت بها لعلنا نلتقي في ظلمة الابدية . ثم سكت برهة ومسح دموعه ونظر الى ما حوله فاذا هو منفرد ليس من يسمعهُ او يراهُ فاطلق لنفسهِ عنان البكاء وعاد الى العباءة فلفّ بها وجههُ وجعل يشمها ويقبلها ويشهق في البكاء حتى كاد يغمى عليهِ

ثم رفع العباءة عن وجههِ ووقف بغتة والتفت نحو الحيرة فاذا بيوتها ساكتة هادئة فقال . هؤلاء اهل الحيرة نيام لا يزعجهم طيف ولا يقلقهم خيال هل يعلمون ان على شاطئ بحيرتهم ملكًا يبكي كالطفل هل يعلمون ان ابن ملكهم النعمان صبّ هائم يبحث عن حبيبتهِ في آكامهم هلّموا ايها الراقدون اخبروني اين هي هند ابن انتِ يا هند ابن قامتك ابن عيناك ابن انت احبيبي فاخبرك ان دولة الفرس قد سقطت وانتقمتُ لوالدي تعالي نجتمع وننسى الاحزان والاتعاب لقد آن زمن الراحة . .

ولكن آه ان الراحة من فتى مات والدهُ قبل ان يولد هو وانقضت زهرة عمرهِ وهو لا يعرف نسبهُ حتى اذا عرفهُ وآن لهُ ان يستريح نكبهُ الزمان بضياع حبيبتهِ آه — يا ليتني لم اعرف ذلك النسب فان معرفتهُ جرت عليّ كل هذا البلاء — ما احلى الحب وما اسعد المحبين اذا التقيا ولو عاشا في كوخ مثل كوخ هذا الراعي واوغل في البكاء وهو يقلب العباءة بين يديهِ يقبلها و يشم رائحتها حتى ملها وقد تعب وخارت عزيمتهُ فاتكأ على الصخر فعقرهُ الدرع فتوسد الثرى والقى رأسهُ على حجر فغلب عليهِ التعب والنعاس فغمضت اجفانهُ وهو بين اليقظة والمنام

ثم استيقظ مذعورًا كأنهُ سمع صوتًا يناديهِ فنظر الى ما حولهُ فلم يرَ احدًا فعلم انها احلام اقتضتها هواجسهُ وتشكوكهُ . ولكن ذلك الصوت ما زال يرن في اذنيهِ وقد اضطربت حواسهُ وخيل لهُ هدوء المكان وسكون الطبيعة انهُ في عالم الارواح وان ذلك الصوت خارج من القبور فاقشعر جسمهُ

وكان البرد قد قرسهُ والتعب انهكهُ على اثر ما قاساهُ من الركوب نهارهُ كلهُ مع ما الم بهِ من التهيج والكدر في ذلك الليل فالتف بالعباءة جيدًا ونهض ومشى بالشاطىء وهو يحاذر ان تسمع خطواتهُ كأنهُ يخاف احدًا . ثم رأى النجوم تتوارى رويدًا رويدًا حتى لم يبق منها الاَّ القليل وقد تضاءل ضوءها فعلم ان الفجر قريب ثم بدا الشفق من وراء الافق يطارد اشعة القمر وهو سابح في الفضاء كأنهُ يودع الليل على موعد .

ورأى الاطيار خارجة من اوكارها بين مغرد ومرنم ومصفق ومرفرف ومحلق فمشى حماد والعمامة على رأسهِ وقد فسد هندامها لما قاستهُ من صدمات العباءة اما العباءة فجعلها على كتفيهِ وشدها على صدرهِ يتقي البرد بها ولم تمضِ برهة حتى سمع دق الاجراس من كنائس الحيرة واديرتها فاخذ يتفرس في الشاطىء لعلهُ يقف على اثر آخر من آثار هند ثم خاف ان ينزل احد من اهل الحيرة ليغتسل او يستقي فيراه في تلك الحال فهمَّ بالرجوع وفيما هو يتحوَّل سمع وقع حوافر فأجفل والتفت فرأى فارسًا خارجًا من سور الحيرة كأنهُ يطلب البحيرة ولم يقع نظره على الفرس حتى خفق قلبهُ لانهُ يشبهُ فرس هند ولكنهُ لم يرَ فوقهُ سرجًا وقد ركبهُ غلام يشبه ان يكون خادمًا فوقف حتى دنا الفرس منهُ فتاملهُ فاذا هو فرس هند بعينهِ فبغت واستبشر وصاح في الغلام فوقف

فقال لهُ الي يا غلام

فحالما رأى الغلام العمامة الحجازية خاف واسرع نحوهُ

فقال لهُ لمن هذا الفرس

قال هو للامير فلان

قال ومتى اقتناه

قال اول البارحة

قال وممن اشتراه

قال من بعض الرهبان عرضهُ للبيع في سوق الاربعاء

فقال وانَّى للرهبان مثل هذا الفرس وهو من خيول الشام

قال لقد تعودنا مشاهدة مثل هذهِ الخيول يا سيدي منذ قامت الحرب فكل قتيل لم يكن لهُ وارث وُهبت امتعتهُ واسلابهُ للاديرة تنفقها في سبيل البر فكم من

فارس قتل وظل فرسهُ تائهاً فاستولت عليهِ الدبور وباعتهُ

فلما سمع حماد ذلك ايقن بموت هند عرقاً في تلك البحيرة وتحوّل عن الغلام خشية ان يرى بكاءَهُ واطلق لدموعهِ العنان والشمس لم تشرق بعد اما الغلام فلم يصدق انهُ نجا من ذلك الحاري فحوّل عنان الفرس وكان قادماً ليسقيهُ فعاد ولم يسقهِ

فلما خلا حماد بنفسهِ وقف عند الماء والغمامة تظللهُ ونظر الى السماء وتنهد وقال أَأَطمع بعد ذلك بالبقاء لمن احيا وقد فقدت حياتي أَأَشرب الماء وقد غرقت فيهِ حبيبتي .. ما الذي حملك على الانتحار يا هند أيأساً من لقائي ففضّلت اللحاق بي الى دار الابدية وقد ظننت اني سبقتك اليها . فنحن على كل حال لاحق اثر سابق ولكن ويلاهُ افترق اعواماً ونحن في جهاد وشقاء فاذا آن اللقاء وزالت العراقيل امتنعت علينا الحياة .. ثم سكت ونظر نحو الشمس فاذا هي لم تطل بعد فقال أأنتظر شروقكِ لعلك تأتيني ببشارة ام انت لا تحملين الاَّ البلاء والشقاء . دعيني اتوسد الماء قبل ان ارى وجهك . ونظر الى الماء امامهُ فاذا هو رقيق لا يغرقهُ فتحوّل الى صخر رآهُ نائتاً فوق الماء على مقربة منهُ وقال الاولى بي ان القي نفسي من فوق ذلك الصخر فمشى نحوهُ وفيما هو ذاهب شعر بحادث في نفسهِ يمسكهُ عن الانتحار فاعتبر ذلك من قبيل الضعف الذي يتولى الانسان اذا تحقق دنو الاجل

الفصل الخامس بعد المئة

﴿ لقاءٌ هائل ﴾

فلما وصل الصخر صعد اليهِ ومشى نحو حافتهِ فزلّت قدمهُ وتعثر بادئاً في موقع وفيما هو يتحفز للنهوض حانت منهُ التفاتة فرأى اشباحاً خارجة من ضواحي الحيرة تطلب البحيرة فقال في نفسهِ فلأُعجّل الاجل قبل وصولهم فتقدم فاحسّ بما يمسكهُ عن ذلك العمل واستولى عليهِ الضعف الطبعي فتجلد ونظر الى تلك الاشباح فرآها تهرب نحو الشاطئ فتأملها فاذا هي اشباح نسوة احداهن تحمل جرةً والاخرى سلاً واخرى تسوق بعيراً وكلهن في زيّ واحد فاستغرب السنهنّ المتشابهة وكلها سوداء وعلى رؤُوس اغطية سوداء فهمهُ امرهن وعلم ان تلك الالبسة لاتكون الاَّ في الدبور . فخيل لهُ انهن راهبات خرجن قبل

البحر للاستقاء وقطف الاثمار والنقول من مزروعات الدير فحسدهن على سذاجتهن وخلوّ قلوبهن من لواعج الحب ورأى حاملة الجرة تقترب نحو الشاطيء ثم ما لبثت ان دنت منهُ حتى كرت راجعة كأن احدًا يطاردها فاستأنس بخطواتها لمشابهتها خطوات هند ولكنها أضعف منها كثيرًا فعلق ذهنهُ بتلك الفتاة وود لو انهُ يراها لحظة اخرى فظل يتبعها بنظرهِ حتى رآها وقفت الى رجل يخطب مخاطبتهُ وإشارت الى حماد فاشتغل بال حماد ومال الى معرفة سرّ ذلك الخطاب ثم رآهما آتيين معًا الفتاة بجرّتها والرجل بفأسهِ

فلبث ينتظر وصولها فتقدم الرجل اولاً وحيَّا حمادًا وتلطف في السلام عليهِ وحماد ينظر الى الفتاة وهي منصرفة نحو الشاطيء لتملأ جرتها فقال الرجل لحماد اتأذن لي بسؤال قال قل قال من اين اشتريت هذه العباءة

قال وما يعنيك من امرها

قال لانها مسروقة من صاحبها فاذا اخبرتنا عمن باعك اياها طالبناهُ بها

قال وما ادراك ان هذه هي بعينها ان العبي قد تتشابه

قال ان صاحبها رآها بعينهِ وعرفها ولهُ فيها علامات

قال ومن هو صاحبها

قال الفتاة التي رأيتها الآن فانها حالما رأتك عادت اليَّ بالخبر وقد كنا قضينا ثلاثة ايام ونحن نبحث عنها

ولما سمع ذلك الكلام طن نفسهُ في منام فمسح عينيهِ والتفت الى ما حولهُ واستشهد وجدانهُ فتحقق انهُ في يقظة فنظر الى حاملة الجرة فرآها قد ملأت جرتها وعادت الى رفاقها فجعل يتأمل خطواتها فاذا هي خطوات هند ولكن الجسم نحيل فقال الرجل ما بال صاحب العباءة لا يطالب بها بنفسهِ

قال لان صاحبتها من راهبات دير هند الصغرى ولا يؤذن لهن بمخاطبة الرجال واما انا فمن خدمة الدير المكلفين بمثل ذلك

فقال حماد (وقلبهُ يكاد يطير من الفرح وهو يمسك نفسهُ ويتجلد) وهل صاحبة هذه العباءة قديمة في سلك الرهبنة

قال لا تزال حديثة وقد دخلت في طور الابتداء فاذا مضى عليها بضعة اشهر

تحت الاختبار رسوها ولذلك فقد وهبت الدير كل ما كان معها من الثياب والمصاغ والدواب فايقن حماد انها هند ولولا عمامة ولباسة الحجازي لعرفتهُ لاول نظرة وهي لولا ثوبها الاسود ونحولها لعرفها · فلما ايقن انها هي نفسها ارتعدت فرائصهُ لما كان فيهِ من الخطر وحمد الله لنجاته على هذه الكيفية وحدثتهُ نفسهُ ان يسرع الى هند فيطلعها على حقيقتهِ فخاف عليها من البغتة مع ما آنسهُ من ضعفها فصبَّر نفسهُ · وخاف من الجهة الثانية ان تكون قد نذرت العفة فلا يبقى لهُ اليها سبيل فقال للرجل وهل نذرت العفة

قال لاتنذرها قبل ان تنقضي مدة الابتداء

فاطمأَن بالهُ ونظر فاذا بالفتيات لا يزلن في شواغلهن بعيدات لا يسمعن ولا يرين وصاحبة الجرة قد وضعت جرتها على الارض وجلست على حجر منفردة تنتظر رفيقاتها ليرجعن الى الدير معًا

فقال حماد للرجل اذهب الى صاحبة العباءة وقل لها اني لا اعطي العباءة الاَّ تسليماً بيدها

قال قلت لك يا مولاي انها لاتستطيع ذلك

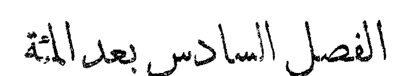
قال اليك هذا البرد · وخلع برد النعمان عنهُ من العباءة ادفعهُ اليها بدلاً وقال

فتناول البرد وتأَملهُ فاذا هو اثمن من العباءة كثيرًا فاسرع بهِ حتى أَتى الفتاة وهي لا تزال جالسة وحدها فدفعهُ اليها وقال لم يعطي العباءة ولكنهُ دفع اليَّ هذا البرد · فحالما رأتهُ صاحت للحال حماد حماد ·· وتركت الجرة واسرعت نحوهُ وكان هو يراقبها ليرى ما يبدو منها فلما رآها نهضت واسرعت نحوهُ لم يبق عندهُ ريب بشأْنها فاسرع لملاقاتها وقد نزع العمامة عن رأْسهِ فلما التقيا وقعت هند مغميًّا عليها فاستلقت على حضن حماد فانهضها وكان خادم الدير قد رآها تسرع نحو حماد فلما اغمي عليها اسرع بالماء ورشَّها فأَفاقت وهي تقول حماد حماد حماد ··· وهو يقول هند هند حبيبتي هند أَأَنت حية وانا احسبك غريقة في هذا الماء ولو تأَخر قدومك لحظة اخرى لذهب حماد طعامًا للاسماك

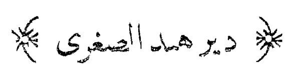
قالت حماك الله يا حبيبي ثم غلب عليها الحياء فغطت رأْسها بالنقاب الاسود وجلست متأَدبة وقد امتقع لونها وتولاها الهزال فقال لها اين والدك يا هند قالت اما سمعت خبرهُ انهم قتلوهُ واظنهم قتلوا والدتي آه من تقلبات الايام · واوغلت في البكاء

قال هل تحققت مقتله

قالت لم اره ولكني سمعت به ولولا ذلك لرأيتني معه حيثما كان لاني لما قبضوا عليه وعلى والدتي امتطيت جوادي وتعقبت اثرهما فوصلت الحيرة فبت في هذا الدير وقد كنت اتردد اليه قبلاً فاشارت عليَّ الرئيسة ان ابقى عندها وابعث من يستطلع الخبر فعاد المخبرون وقد اكدوا مقتلها فلم يبق لي نصير الا حبيبي حماد ومن يخبرني بقدومه فان الخادمة التي كنت ارسلتها للبحث عنك في بيت المقدس لم تعد بعد فاستخدمتُ راعيًا بالقرب من هذه المدينة كنت اتردد اليه متنكرة ليسأل عن قدومك الى الدير فقطع املي من دخولك الدير لان اهله لا يقبلون فيه واحدًا من الشام فصفت ذرعًا واستولى عليَّ اليأس ولم يبق لي في الدنيا مطمع بعد فقد والديَّ وضياع حبيبي وزوال عز الملك وخسارة الاموال والعقار ولا انكر عليك اني هممت بالانتحار غير مرة ولكن قلبي لم يطاوعني لاني لم ايأس من لقائك بعد. ولم اجد وسيلة غير الترهب في دير اعرف رئيستهُ وبعض راهباته فطلبت ذلك فقبلوني مبتدئة تحت التجربة فوهبتهم كل مالي من الثياب والفرش ولم احفظ شيئًا غير الاساور وهي عربون المحبة بيننا فانها مخبأة بين اثوابي وكنت قد اضعت عباءتي هذه اثناء رجوعي المرة الاخيرة من عند الراعي لفرط قلقي وهواجسي على اثر ما انبأني به من خبر الدير فوقعت العباءة عني ولم انتبه فبحثت عنها في اليوم التالي ولم اجدها وهو اليوم الذي طلبت فيه الانضمام الى الرهبنة فاخبرتهم اني فقدت هذه العباءة فاذا عثروا بها كانت حلالاً للدير وهذا هو اليوم الثالث من دخولي وقد كلفوني تجارب كثيرة فحملت الاحمال واشتغلت الاشغال الشاقة فزادني ذلك ضعفًا على ضعف



الفصل السادس بعد المئة



دير هند الصغرى

وكان الخادم واقفًا وقد ذهل لما رآه فتقدم الى هند وانبأها ان عملها هذا مخالف لشروط الرهبنة فقالت دعنا نذهب الى الرئيسة فنهضت ونهض حماد ومشيا لمقابلة الرئيسة وفيما هما في الطريق سألته عن سبب تنكره وما مرّ به فاحكى لها حكايته

بالاختصار حتى اتى الى حديث المدائن والبحث عن والدها فلما بلغ الى هناك تنهدت هند وقالت آه يا حسبي اني سعيدة بلقياك ولكن حظي غير تام لما قاسيتهُ من فقد والديّ

فقال لها اما لم نحقق مقتلها وقد كلفت سلمان بالبحث عنهما وموعدنا الالتقاء في دير هند هذا في الغد وهو اليوم الثالث من افتراقنا ومن عرف خبرًا اطلع الآخر عليهِ فقد فرت نطريدتي فعسى هو ان يفوز بمن يبحث عنهم والامير عبد الله معهم

وكانا ماشيين في وسط المدينة لا يهمهما استغراب الناس لمسيرهما معًا بل كانا في شاغل من تجاذب القلوب لا يكادان يريان الطريق فلما وصلا الدير اسرع الخادم الى الرئيسة فانبأها بما شاهدهُ من جرأة ذلك الحجازي على الراهبة المتدينة مما يخالف العهود المعطاة من المسلمين. فاطلت الرئيسة من باب الدير فرأت هندًا وحمادًا قادمين وكان حماد قد نزع عمامتهُ فعرفت من ملامح وجههِ انهُ عراقي فارادت استطلاع السر فدخلت بهما الى غرفة منفردة فهمّ حماد فقبل يد الرئيسة فعرفت انهُ مسيحي فسألتهُ عن امرهِ

فقال اذا اذنتِ فاخبرك ان هذه الفتاة خطيبتي منذ اعوام وقصت حروب الشام بافتراقنا لا نعلم احدنا بمكان الآخر حتى اذن الله باجتماعنا على يدك

وتأملت الرئيسة بوجه حماد وهو يكلمها فآنست في وجههِ هيبة وجلالاً فقالت الستَ عراقيًا

قال نعم ومن بني لخم

قالت ويخال ليّ ان هندًا شامية من غسان

قال نعم

فقالت وكيف اجتمعتما

قال كذلك قدّر الله

اما هند فتذكرت اول معرفتها حمادًا وتذكرت والديها ويأسها من حياتها فترقرقت الدموع في عينيها

فلحظت الرئيسة فيها ذلك فقالت لها ما بالك تبكين يا ابنتي وكان حماد قد ادرك سبب بكائها فقال انها تبكي لضياع بعض اقاربها في اثناء حرب الشام

فجعلت تخفف عنها وتعزيها وتذكر حماد الامير عبد الله وسلمان فصبر نفسهُ ليرى

ما يأتي به الغد وقال للرئيسة على ترين ما يمنع خروج هند من سلك الرهبنة

قالت لا ارى مانعاً لانها لم تنذر العفة بعد

قال فلنتفق اذاً يوماً آخر في ضيافتك لاني على موعد مع خادمي باللقاء هنا غداً وقد ذهب للتفتيش عن صائغ لنا فاحتفظي بها ريثما اعود فاني ذاهب الى راعٍ في ضاحية الحيرة تركت فرسي عنده البارحة

ثم نهض فلبس العمامة لئلا ينكره الراعي وترك العباءة عند هند وهمّ بالخروج فامسكته قائلة لاتذهب فاني لست تاركتك لحظة بعد هذا اللقاء فقد كفاني ماقاسيته فلا يفرق بيني وبينك الاّ الموت

قال والفرس

قالت دعنا من الافراس او ارسل من يأتي به فما انا راضية بذهابك ولا نخرج من هذا الدير الاّ معاً اما الى القتل واما الى الحياة

فعذرها والتفت الى الرئيسة وطلب اليها ان تبعث رسولاً من قبلها يستجلب الفرس فبعثت واحداً يعرفه الراعي ويثق به واطلعه حماد على علامة يتقدم اليه بها وبعث اليه دينارين ولبث ينتظر عودته

اما الرئيسة فقالت لحماد لا يخفى عليك يا سيدي انا في دير راهبات لا يؤذن للرجال دخوله الاّ اذا نزلوا في دار الاضياف واما اجتماعهم بالراهبات فمحظور فاذا رأتك الراهبات مع هند وهنّ لا يعرفن علاقتكما ساءَ الظن فهل تتفضل فتنزل في دار الاضياف ريثما يأتي الغد

قال أفعل ما تأمرين . وودع هنداً ونزل يصحبه الخادم الى دار الاضياف فمرّا بمربط الخيول فرأى افراساً شاهد فيها فرساً يشبه فرس سلمان فاستبشر واسرع الى الدار فلقيه سلمان فهمّ احدهما بالآخر وهما يبتسمان فاستبشرا معاً فقال سلمان هل ظفرت بهند

قال نعم ولكنها راهبة في هذا الدير

قال وهل نذرت العفة . فضحك حماد وقال لا وانت هل ظفرت بالامير عبد الله

قال ظفرت به وبجبلة وامرأته

قال اين هم

قال سيصلون الينا الليلة او غدا وسيأتون متنكرين لانهم كانوا محتبئين عند سيدي الامير عبدالله ولولاه لكان حمولك حيلة في عالم الاموات ولكن الامير عبدالله حالما علم بالقبض عليه استرضى الذين امسكوهُ واظهر للناس انهُ قتل وخبأهُ في منزله تلك المزرعة ريثما يتمكن من العثور على هند او الاجتماع بك فلما وصلت اليهم وأنبأتهم بحركة انعدي لاطمئنك واساعدك في البحث عن هند ريثما يقدمون هم الينا

فانشرح صدر حماد ايما انشراح وحمد الله على انقضاء الازمة التي هي احسن ولم يملك صبرًا عن تبشير هند بقاء والدها حيًّا

وهمَّ بالرجوع الى الدير ورأى هندًا واقفة في الشرفة تطل على دار الضيافة لانها لم يعد يرتاح بالها على حماد الاَّ اذا كان امامها فلما رأتهُ عائدًا وعليهِ امارات الدهشة اومأت اليهِ مستطلعةً وضحك ضحكت هي وقد اشرق وجهها ونسيت كل متاعبها وقالت ما وراءك

قال همسًا ان والدك ووالدتك قادمان الينا غدًا

فارقت اسرَّتها واسرعت لملاقاتهِ عند الباب ولم تعد تعبأ بقوانين الدير . ولما لقيتهُ مدت يدها اليهِ وصافحتهُ وضغط كل منهما على يد الآخر ضغطة ما ادراك ما وراءها ولا تسل عن حديث القلوب وحوادث العيون

فقالت هند هل انت متحقق قدوم والديَّ

قال هذا سلمان قد جاء بالخبر اليقين ولكنهم قادمون ومعهم الامير عبدالله متنكرين فاحذري ان يلحظ احد ما نحن فيهِ لئلاَّ نقع في شرّ اعمالنا فتكون الليلة الثانية شرًّا من الاولى

قالت وسأخبرك خبرًا جديدًا حدث ساعة خروجك من غرفة الرئيسة

قال وما ذلك

قالت ان خادمتنا الامينة التي كانت تسعى في اجتماعنا ولولاها لا ادري ما تمَّ لنا قد وصلت الدير الآن بعد ان قضت ايامًا بالبحث والتفتيش ولم تكن عالمة بوجودي هنا ولكنها جاءت تنضم لاحدى الراهبات ملتمسة وسررت بها لانها ذات فضل علينا

قال لقد اذكرتني بفضل سلمان الشهم الغيور فلا ادري بماذا اكافئهُ على مروءته وحسن صنيعهِ ثم قال فاذهبي الآن الى الرئيسة ودعيها على ان نفارقها غدًا بعد

وصول والديك والامير عبدالله واحذري ان تسمي اسم احد منهم

قالت لا تخف من ذلك

وتحولت وتحوّل هو الى دار الضيوف ومكث هناك الى صباح اليوم التالي

الفصل السابع بعد المئة

قرانٌ سعيد

فاستحسن حماد الخروج لملاقاة القادمين في الطريق فخرج وسلمان معهُ على الخيول وهند لا تعلم وقطعا مسافة حتى وصلا عين ماء لا بد للقادم من المدائن الى الحيرة من الوقوف عندها فترجلا وجلسا ولم تمض برهة حتى رأيا هندًا وخادمتها قادمتين مسرعتين على الاقدام وهند بثوبها الاسود الجديد فبهتا وصاح حماد ما الذي اتى بك يا هند قالت سامحك الله الم اقل لك اني لم اعد استطيع البعاد عنك لحظة مخافةً ان نعود الى ما كنّا عليهِ من الفراق فشكرها وجلسوا ولم يكد يستتب بهم الجلوس حتى رأوا الغبار يتصاعد من جهة الفرات فتقدم سلمان ليحقق القادمين فعاد ضاحكًا مستبشرًا فنهضوا جميعًا وتهيأوا لاستقبال القادمين ولكن سلمان عاد فاخبر الركب ان حمادًا وهندًا ينتظرانكم هنا فقبل وصولهم الى العين ترجلوا جميعًا وهمّ جبلة مسرعًا الى حماد فضمهُ الى صدره وجعل يقبلهُ والدموع تتساقط من عينيهِ واسرعت سعدى الى هند وجعلت تقبلها وتبكي ثم تبادل جبلة وسعدى فقبلت سعدى حمادًا وجبلة هندًا واما عبدالله فظلّ واقفًا يتأمل في ذلك المنظر المؤثر فلما انتهت سعدى من تقبيل حماد تقدم اليهِ وضمهُ الى صدره وجعل يقبلهُ ويبكي بكاءً مرًّا ولم يستطع احد ابعاده عنهُ حتى جاءوا عليهما وهم لا يعلمون سبب ذلك وبعد برهة انفصل عنهُ وقد تبللت عيناهُ وقال لا تلوموني على ما رأيتم من تمسكي بحماد فان ما ترونه من دموعي انما هو دموع الفرح فان حمادًا ابني وولدي وصديقي وذخري وسندي وقد زادني تعلقًا بهِ انهُ قد انتقم لوالده وبدد سيوف دولة الفرس ومحا العار عن جبلة ورفع ثقلاً عن عاتقي حملتهُ منذ نيف وعشرين سنة ثم تقدم عبدالله الى هند فقبلها والجميع يبكون كالفرح وسلمان ينظر اليهم وقلبهُ يكاد يطير فرحًا فلما سكت الجميع وهدأ روعهم

وقف سلمان وقال اسمحوا لي بكلمة اقولها بين ملكين وملاكين . لقد شاركتكم في فرحكم بهذا الاجتماع السعيد فشاركوني بفرحي بمقتل ثعلبة الخائن الذي كان سبب كل هذه الاتعاب . ثم نهض حماد والدموع لا تزال في عينيه وقال اما انا فلا اقدر اصف فرحي من ولدي حماد لما سببته له من الشقاء وما بذله هو ورفيقه او قل والدي الامير عبد الله من الجهد في انقاذنا من الموت فنظر سلمان الى حماد وقال الا تزال سيدتي هند تمتنع على سيدي حماد ومن يا ترى افضل لذلك حماد ام ثعلبة فضحكوا جميعاً

ثم نهض عبد الله وقال اعلموا ايها السادة انا في خطر عظيم الآن ولم يعد يحلو لنا المقام في هذه البلاد لاننا اعداء الفرس بالطبع واعداء المسلمين بالفعل لما ارتكبناه من مخالفة اوامر اميرهم فلا شك انهم سيبحثون عنا ويبذلون كل سعي في القبض علينا

فقال سلمان لقد نطقت بالصواب واريد على ذلك اننا لا نبرح الحيرة قبل ان نعقد للعروسين ثم نذهب حيثما تشاؤون ولو زعل حماد وهند فضحك الجميع

فقال حماد ذلك هو الرأي الصواب واذا استحسنتم فلتكن وجهتنا القسطنطينية دار الامبراطور هرقل نقضي بقية العمر هناك اذ لم يبقَ لنا مقام في الشام ولا العراق قالوا حسناً ونهضوا الى كنيسة بقرب الدير فعقدوا للعروسين بالاختصار

ولا يحتاج القارئ الى تقدير قيمة تلك الساعة السعيدة فانها من ساعات العمر وبعد الاكليل ركب الجميع وساروا متنكرين نحو القسطنطينية فوصلوها بعد بضعة عشر يوماً واقاموا فيها حتى قضى الله بما شاء



﴿ فتاة غسان ﴾ (تابع ما قبلهُ)

وكانت الفرسان قد وصلت فتحول جبلة عن جواده وعليهِ لباس السفر من العباءة والكوفية وقد تقلد الحسام ومشى يلتفت ذات اليمين وذات الشمال يبحث عن حماد حتى اذا وقع نظرهُ عليهِ دنا منهُ فتقدم حماد وهو يقدم قدماً ويؤخر اخرى ليرى ما يبدو منهُ . اما جبلة فاسرع اليهِ وسلم عليهِ مصافحة وقبلهُ قبلة الوالد لولده والناس ينظرون . وكانت هند تراقب حركات والدها فلما رأت منهُ ذلك رقص قلبها طرباً وتناثرت دموع الفرح من عينيها وكذلك والدتها اما حماد فانهُ قبل يدي عمهِ وقد تحقق رضاءهُ عنهُ . فقال لهُ جبلة اهلاً بولدي وعزيزي نحمد الله على عودتك سالماً

فاجابهُ حماد (وملامح الامتنان ظاهرة على وجههِ) لهُ الحمد على كل حال ولكنني احمد اسعدهِ عليّ برضا ملك غسان فانها نعم لا اقدر على تقديرها يا عمّاه

ثم تحوّل جبلة نحو هند فقبلت يدهُ وقبلها وحماد ينظر فتحركت فيهِ عاطفة الغيرة عليها حتى من والدها ثم حيّا سعدى ومشى الجميع نحو القاعة وعينا حماد على هند كانهُ يريد ان يلتقفها بنظرهِ وقد شق عليهِ مفارقتها بعد ان تقرر لهُ الحصول عليها

وكان سلمان في جملة اهل القصر الوقوف في انتظار جبلة ولم يشأ دخول الحديقة على حماد عند اول مجيئهِ مراعاة لما قد يدور بين الحبيبين من عبارات العتاب مما لا يهون التفوه بهِ امام احد

ودخل جبلة وسعدى وهند وحماد القاعة فسأل حماد عن سلمان فجاء فدعاه للجلوس هناك فوقف توقيرًا للجلسة فنهض حماد وامسكهُ بيدهِ وقدمهُ الى الملك قائلاً اقدم لكم يا عماه رفيقي وصديقي سلمان فانهُ كان معتمدي في اسفاري وهو محب غيور للملك جبلة وسائر آل منزلهِ

فرحب بهِ جبلة وامرهُ بالجلوس فجلس والجميع جلوس ثم التفت جبلة الى حماد وسألهُ عن والده فقال اني تركتهُ في دير بحيراء على ان يحظى بمقابلة مولاي في فرصة اخرى

قال لقد سررت كثيرًا باجتماعكما بعد طول التشتت بسبب ذلك الغلام الغرّ (يريد ثعلبة) وقد كنت في غفلة عن امرهِ الى ما بعد وفاة والدك فتعثر اصدقاؤهُ فاخبرني بعضهم بما ارتكبهُ هذا الخائن في سبيل الفتك بك على اثر ما اظهرتهُ من

الشهامة وكرم الاخلاق ويكفي الملك عفوك عن قتلهِ في حلبة السباق بعد ما عاينت من غدره وسوء قصده ولكن ذلك الخائن قد نال جزاء ما جنتهُ يداه وكان الناس انما يرمقونهُ بعض الاحترام مراعاة لمنصب والده فلما كاد يتوفى الحارث حتى نُبذ نبذ النواة وصار مضغة في الافواه ومن اثقل المصائب عليهِ ان يعلم بخيبتك ونيل مرامك ولا اظنهُ يسمع باقترانك حتى يقع ميتاً لشدة لؤمهِ وحسده قبحهُ الله وكان جبلة يتكلم ولحيتهُ تهتز وعيناه تتقدان غضباً مع محاولتهِ اخفاء ما في نفسهِ وتخفيف ما بهِ فلما اتمَّ كلامهُ اخذ يتلاهى بتمشيط لحيتهِ باصابعهِ ويشاغل نظره بالالتفات الى خيلٍ مربوطة خارج القصر كانت تتزاحم وتتضارب

اما الحضور فانهم لبثوا بعد اتمام حديثهِ سكوتاً تهيباً من غضبهِ ولكن قلوبهم كادت تطفح سروراً بما قالهُ عن ثعلبة . ثم وجه جبلة خطابهُ الى سعدى قائلاً اسقينا شيئاً نرطب بهِ اجوافنا ونشربهُ نخب اجتماعنا فرحاً بقدوم صهرنا سالماً . فقالت الا ترى ان نجلس الى المائدة فنتناول الطعام والمدام معاً

قال حسناً تفعلين

فصفقت فجاء غلام . فقالت هل تمت معدات الطعام

قال نعم يا مولاتي

فنهض جبلة ومشى فتبعهُ الجميع حتى دخلوا غرفة مدت فيها الاسمطة وعليها الاطباق والمواعين وكلها من الذهب او الفضة [1] فجلسوا يأكلون ويشربون والفرح شامل لهم

فلما فرغوا من الطعام وقاموا عن المائدة تقدم جبلة الى حماد واشار اليهِ ان اتبعني فتبعهُ حتى خرجا من القصر وجعلا يتمشيان في بعض طرق الحديقة فلما خلوَا قال جبلة اعلم يا حماد الملك الآن بمنزلة والدي وقد قسم الله ان تكون صهراً لي وهذا امر احسبهُ من حظ هند لانك شهم يفتخر بشهامتهِ وشجاعتهِ ما يربو على الافتخار بالحسب والنسب . وقد تركت اليك تعيين زمن الاقتران ولكني اوجه التفاتك الى امر واحد وهو ان هنداً كما تعلم وحيدة ليس لنا ولد سواها فيشق علينا فراقها فاشترط عليك اذا تمَّ الاقتران ان تقيم عندنا انت ووالدك ومن تريده من ذويك فتنزلون على الرحب

---

(١) الاغاني

والسعة فان البلاد تحتاج الى من يتولاها وليس لي ولد ذكر فاذا احسنت السياسة مع القبائل اجتمعوا بعدي تحت لوائك وكنت ملكًا دليهم

فلم يعد يعرف حماد كيف يشكر لعمةُ ولكنهُ وقف وكانا ماشيين فوقف جبلة فقال حماد ان هذه النعم وهذه المنن مما يقصر لسان الناس عن اداء الشكر عليها . ان شرطًا اشترطموه يا عمّاه ان هو الاّ نعم انعمت بها عليّ جزاك الله عني خيرًا اما وقت الاقتران فلا يمكننا تحديدهُ الآن لدواع لا اخفيها عنك

قال وما هي

قال لعل مولاي رأى طول شعري لما لبست الدرع يوم السباق

قال نعم اذكر ذلك وما سبب طوله

قال ان والدي نذر اني اذا عشت لا يقصّ شعري الاّ في السنة الحادية والعشرين من عمري في دير بحيراء وضرب لذلك اجلاً يوم الشعانين فالآن ذلك اليوم منذ عام ونصف اشهر محتنا الملقاء فحدث ما حدث من سعي ثعلبة ضدي والقبض على والدي ثم لم نجتمع الاّ من امد قريب في المدينة فيرى والدي ان ننتظر يوم الشعانين القادم ونقص شعري في الدير وقد اخبرني ان عنده حكاية سيقصها عليّ في ذلك اليوم واعز اليّ ان لا اقطع بامرٍ من الامور المهمة الاّ بعد ذلك اليوم فما رأي مولاي

فعجب جبلة لذلك السر وقال لا ارى مانعًا من تأجيل الاقتران الى ما بعد الشعانين فتجعله في يوم القيامة ولكني استغربت هذا السرّ الا تعلم ما موضوعه

قال كلاّ يا عمّاه لا اعرف عنهُ شيئًا ولا يعلم به احد سوى والدي وقد اخبرني انهُ لما وقع في الخطر مرة وخاف الموت لم يأسف على شيء اكثر من اسفهِ على ضياع ذلك السر

قال جبلة فلننتظر يوم الشعانين وكل آت قريب

ثم تحولا نحو القصر وكانت هند ووالدتها وسلمان جالسين في القاعة فدخل جبلة وحماد وقضوا بقية ذلك اليوم في الاحاديث الممتعة

ولما كان العصر التمس حماد العود الى الدير لئلاّ يستبطئهُ والدهُ فيشغل بالهُ عليه فقال لهُ جبلة افعل ما بدا لك ولكن اعلم يا ولدي ان صرح الغدير وسائر قصور الملقاء مفتوحة لاستقبالك متى اردت القدوم . فهمّ حماد بيد عمهِ فقبلها وكذلك

وصل سلمان وودع هندًا وسعدى وكان قد امر فاسرجت الخيل واراد الاسراع في الشخوص الى دير بحيراء ليخبر والده بما لاقاه من الاحتفاء وما عرضهُ عليهِ جبلة من الانعام لعلهُ يرغب في القدوم على جبلة

فركبا وسارا وهند تشيعهما بنظرها خلسة حتى توارايا فعاد اهل الصرح فاحكى جبلة لسعدى ما دار بينهُ وبين حماد ولما عاد هو الى الملقاء احكت ذلك الى هند فكادت تطير من الفرح

اما حماد فانهُ وصل الدير في مساء ذلك اليوم وكان والده في انتظاره فاستقبلهُ ودخلا الغرفة فاحكى لهُ حماد ما لاقاه من الاكرام والاحتفاء وما دار بينهُ وبين جبلة مما لم يكن يرجوه . وكان حماد يتوقع ان يرى من والده بعد هذا الحديث اعجابًا او انبساطًا فلم يرَ وجههُ يزداد الاّ انقباضًا ولم يجب بكلمة فلبث حماد ينتظر يوم الشعانين نافد الصبر



الفصل التاسع والخمسون

﴿ قصُّ الشعر ﴾

وكان عبد الله كلما دنا ذلك اليوم زاد انقباضًا حتى قيل غدًا يوم الشعانين فعلم ان الدير سيكون مزدحمًا في ذلك اليوم وهو انما يلتمس الانفراد بحماد ليتلو عليهِ الحكاية فسار الى رئيس الدير واطلعهُ على قصده

فقال واي الغرف تريدون

قال نريد صومعة بحيراء نفسها فانها منفردة وفيها كرامة وبركة

قال ولكن الناس يقدمون اليها في مثل هذا اليوم زائرين

قال نزورها بعد خروجهم منها وربما مكثنا فيها ساعات قليلة من الصباح الى الظهر . وكان عبدالله جليل الطلعة محترمًا فادعن لهُ الرئيس

ثم قال عبدالله اعرف راهبًا شيخًا من تلامذة بحيرا الراهب صاحب هذا الدير كان يقيم في الصومعة فهل هو باق هنا

قال انهُ باق ولكنهُ يشكو شدة الضعف لشيخوخته فلا يخرج من غرفته الاّ نادراً

قال الا تظنهُ يخرج في صباح الغد اذا توسلنا اليهِ ان يرافقنا الى الصومعة ويقص شعر غلامنا

قال لا اعلم ولكن عندنا من الرهبان والقسس كثيرين يفعلون ذلك

قال صدقت ولكني افضل ذلك الراهب الشيخ لاني اعرفهُ

قال هلمَّ بنا اليهِ نسألهُ فعساه ان يرضى

وسارا الى غرفة من غرف الدير مغلقة الباب فقرعاه وانتظرا ريثما ينهض الشيخ لفتحهِ وبعد هنيهة فتح الباب وبان من ورائهِ شيخ هرم قد ابيض شعره بياضاً ناصعاً واسترسل من رأسهِ ولحيته وحاجبيهِ وشاربيهِ حتى لا تكاد ترى من جلد وجههِ الاّ بعض وجنتيهِ وقد تجعدتا ونتئت جبهتهُ وبرز انفهُ اعقف واحدودب ظهره حتى لا يستطيع النظر الى واقف امامهُ الاّ بجهد وعناية فتقدم الشيخ ويده الواحدة على الباب ويده الاخرى يتوكأ بها على عصا قديمة العهد ربما رافقته في صباه وقد قبض عليها بانامل لم تترك الشيخوخة عليها لحماً فلصق الجلد بالعظم حتى كان اعراضها في الكف عقد الامشاط عند اتصالها بالاصابع

فلما فتح الباب رفع الشيخ نظره وحدق بزائريهِ وكان قد عرف الرئيس من محول قيافتهِ ولكنهُ لم يعرف رفيقهُ فنظر اليهِ نظر المتأمل وشعر حاجبيهِ المسترسل يحجب معظم النظر عنهُ فارسل يده يرفع بها شعر الحاجبين وهي ترتعش لضعف الشيخوخة فابتدره عبدالله بالسلام وهمَّ بتقبيل يده معرفة الراهب فقال اهلاً بولدنا الامير عبدالله ابن الوطن العزيز تفضل يا ولدي ادخل فدخل ودخل الرئيس معهُ وجلس كلٌّ منهما على وسادة وهما لا يجسران على فتح الحديث احتراماً لشيخوخة الراهب

ثم تكلم الرئيس فقال ان ولدكم الامير عبدالله يلتمس حضوركم لاحتفال بقص شعر ابنهِ وفاء لنذر نذره منذ بضع وعشرين سنة

فتأمل الشيخ برهة ثم رفع نظره الى عبدالله بعنقهِ والنور ينبعث من عينيهِ في خلال شعر الحاجبين كأن الزمن لم يؤثّر على حدتهما وقال ما اسم غلامكم

قال حماد

قال نعم حماد ادكراني رأيتهُ في الصومعة مذ عامين واخبرني انهُ جاء لنص شعره وكان يوم الشعانين قريباً ألم تُوفِ النذر بعد

قال لا يا مولاي لم نستطع ذلك لاسباب فرّقت بيننا اعواماً فلما اجتمعنا جئنا لنفي النذر فهل تريد ان يكون وفاؤه على يدك

قال ابي شيخ ضعيف لا استطيع الوقوف لتادية الفروض اللازمة اثناء الصلاة

قال يؤديها القسيس ونكون انت معنا بعد الصلاة فننفرد انا وانت وحماد لكلام اقصهُ عليكما

قال حسناً ياولدي ومتى يكون ذلك

قال غداً صباحاً ان شاء الله

قال سنلتقي اذاً صباح الغد في الصومعة قال ذاك وهو يتلاهى بمسبحته ويداهُ ترتجفان

ثم نهض عبد الله فودع الراهب وخرج تواً الى غرفته وجلس ينتظر عودة حماد وكان حماد يختلف الى صرح الغدير مراراً في الاسبوع يتمتع برؤية هند فيقضي النهار عندها مع والدتها واحياناً سلمان وقد شعر ان ملاكُ السعادة يحرسهُ وخصوصاً بعد ما قصهُ عليه جبلة مما ينويهِ له في مستقبل حياته واصبح لا همّ لهُ الاّ مجيء يوم الشعانين ليفي النذر ويقترن بهند على انه كان اذا جلس اليها ودار الحديث بينهما نسي النذور وغفل عن مستقبل الايام . اما والدهُ فلم يجتمع بجبلة وكان حماد يلتمس ذلك منهُ احياناً فيتحمل اعذاراً يتخلص بها من المسير

فلما كان آخر يوم كما قدمنا عاد عبد الله الى غرفته وجلس ينتظر حماداً وكان قد سار الى صرح الغدير في صباح ذلك اليوم وسلمان معهُ فعاد في الاصيل على فرسهِ وسلمان وراءه على فرس آخر فلما وصلا الدير ترجلا ودخلا وهما يتوقعان ان يكون عبدالله في انتظارهما فرحب بحماد وقال لهُ الا تعلم يا ولدي ان غداً يوم الشعانين

قال نعم يا اتاه واني في استعداد لوفاء النذر

قال جعلهُ الله نذراً مقبولاً . وقد خاطبت الراهب الشيخ الذي كان يجلس في صومعة بحيرا هل تذكرهُ

قال نعم اذكر اني جلست اليه مرة وقص عليّ خبر الراهب بحيرا استاذه قال قد خاطبته في ان يقص شعرك ويسمع ما اتلوه عليك بعد ذلك

وكان سلمان لا يزال واقفاً بالقرب من الباب يصلح كوفيته وعقاله وكانا قد انحلاّ وهو يتحول عن جواده فلما سمع ما قاله عبد الله تقدم نحوه ونظر اليه قائلاً الا تظن خادمك سلمان يستحق الاطلاع على هذا السر ايضاً

قال بلى انك اولى الناس بذلك وستكون انت ايضاً معنا

وقضوا بقية ذلك اليوم يعدون انفسهم وخصوصاً عبد الله فانه مال الى الانفراد بعدُ بعض الثياب

وفي صباح اليوم التالي ساروا الى الصومعة باكرًا فرأوها مضيئة بالشموع وهي كما تعلم عبارة عن غرفة كل من جدرانها الاربعة حجر واحد والسقف حجر والارض حجر وبابها حجر واحد يفتح ويغلق (١) وهذا هو شأن ابنية حوران حتى الآن نظرًا لكثرة صخورها وقلة خشبها فيبنون البيوت من الحجر ويجعلون درف نوافذها وابوابها وسقوفها من الحجر ايضاً

فدخلوا الصومعة فرأوا الراهب الشيخ ومعه قسيس آخر وشماس فلما اجتمعوا جميعًا اخذوا في الصلاة فاحرقوا البخور وحلوا شعر حماد حتى استرسل على ظهره وكتفيه وطافوا به بالترانيم والتسابيح على جاري العادة والقسس يحملون الصلبان والمباخر يترنمون حتى تمت الصلاة وقرأوا فصلاً من الكتاب المقدس وكان الراهب قد تعب فجلس على مقعد الحجري ليرتاح فلما انقضت الصلاة تقدموا نحوه واعطوه مقراضاً ودنا حماد منه وشعره يجلله فمد الراهب يده وامسك خصلة من شعره وبارك وقصها اشارة الى ابتداء النذر وبقي الشعر مسترسلاً على انه ان يقصه عند عودته الى المنزل

فلما انقضى الاحتفال اشار عبدالله الى الراهب انه يريد الخلوة فأوعز الى الحضور فخرجوا وبقي هو وعبدالله وحماد وسلمان واطفئت الشموع ولم يبق من الانوار الا مصابيح الزيت المعلقة امام الايقونات فاشار عبدالله الى سلمان ان اغلق الباب فهمّ باغلاقه وهو لا يحسب نفسه قادرًا على ذلك لضخامته فاذا هو طوع يده لان لابنية حوران صناعة دقيقة في تركيب تلك الابواب حتى تغلق بسهولة (٢)

(١) دائرة المعارف (٢) ميريل

فلما أُغلق الباب وضعف النور أحسوا بانقطاعهم عن عالم الاحياء وخيل لهم انهم في عالم آخر وخفق قلب حماد تطلعًا لما سيسمعهُ من غريب الاحاديث . فنزع عبدالله جبتهُ وهمّ بصرة كانت معهُ فحلّها واستخرج منها رداء مزركشًا يشبه الطيلسان كان قد اذخره واحتفظ به منذ اعوام فقبّلهُ ثم بسطهُ وجعلهُ على كتفيهِ ونشر على الارض امام مجلس الراهب جلدًا جثا عليهِ وجلس حماد وسلمان امامهُ والجميع سكوت يراقبون حركات عبدالله وسكناتهِ وينتظرون ما يبدو منهُ

الفصل الستون

﴿ كشف السرّ ﴾

فلما استتب بهم الجلوس التفت عبد الله الى الراهب وقال اعلم يا مولاي اننا الآن في بيت الله وقد اجتمعنا فيهِ لعمل مقدس ولا يعلم بما سيدور بيننا الاَّ الله وحدهُ وسأقص عليكم حكاية أُوتمنت عليها منذ بضع وعشرين سنة فارجوان تصغوا اليّ حتى آتي على آخرها ومتى فرغت منها [illegible] منكم كتمانها عن اهل الارض كافة فهل تعاهدوني على ذلك

قال الراهب نعم يا ولدي [illegible] وان هذه الصومعة

[illegible] الصلاة الربانية قبل الشروع في الكلام

[illegible]

فتلا الراهب « ابانا الذي في السموات الخ » واقسم كل منهم بالصليب والمعمودية كتمان ما سيتلى عليهم

ولما تمّ القسم نظروا الى عبدالله فاذا هو يتأدب في قعوده كأنهُ في مجلس رهيب وقد امتقع لونهُ هيبة واطراقًا . وما زادهم هيبة ضئالة الأنوار واختلاؤهم في ذلك المكان [illegible] عبدالله الى حماد ووجه الخطاب اليهِ قائلاً

« ستأتي البقية »





ارمانوسة المصرية

✽ رواية تاريخية غرامية · الطبعة الثانية ✽

« تأليف جرجي زيدان مؤلف هذا الكتاب »

تشتمل على اهم حوادث التاريخ الاسلامي واكثرها تعلقاً بالقطر المصري اعني ظهور الاسلام وفتوحاته وخصوصاً فتح مصر وبيان حقيقة اسباب ذلك الفتح وما كان من حال القبط مع الروم وشرح احوالهم وعوائدهم واخلاقهم وملابسهم منذ ثلاثة عشر قرناً وهي عبارة عن تاريخ فتح مصر في صدر الاسلام مع تمثيل حركات الجند و[illegible] ومداولات

القواد في خيامهم وقصورهم وما جال في خواطرهم مكتوباً على اسلوب حكاية يقرأها المطالع ولا يمل بل يزداد اشتياقاً لمطالعتها وهو يحسب انه يقرأ قصة فكاهية فلا يأتي على آخرها الا وقد فهم تاريخ الفتح وحوادثه كانه شهده بنفسه ومن ابطالها عمرو بن العاص والمقوقس حاكم مصر والاعيرج قائد جند الروم فيها وغيرهم وفي هذه الطبعة فضلاً عما في الطبعة الماضية فتح الاسكندرية وخروج الروم من القطر المصري مدحورين ثمنها ١٠ غروش مصرية واجرة البريد غرشان ولا بأس من ارسال القيمة طوابع بوسطة



استبداد المماليك

رواية ادبية تاريخية · الطبعة الثانية

(تأليف جرجي زيدان مؤلف هذا الكتاب)

تتضمن هذه الرواية حوادث آخر القرن الماضي وقد مثلت فيها احوال الامراء المماليك ومعاملتهم للرعية وعلاقتهم بالدولة العلية وداخل الروسية ومن ابطالها علي بك الكبير ومحمد بك ابو الذهب والشيخ ضاهر العمر وغيرهم ثمنها ٨ غروش مصرية واجرة البوسطة غرش ونصف

6404

5/19